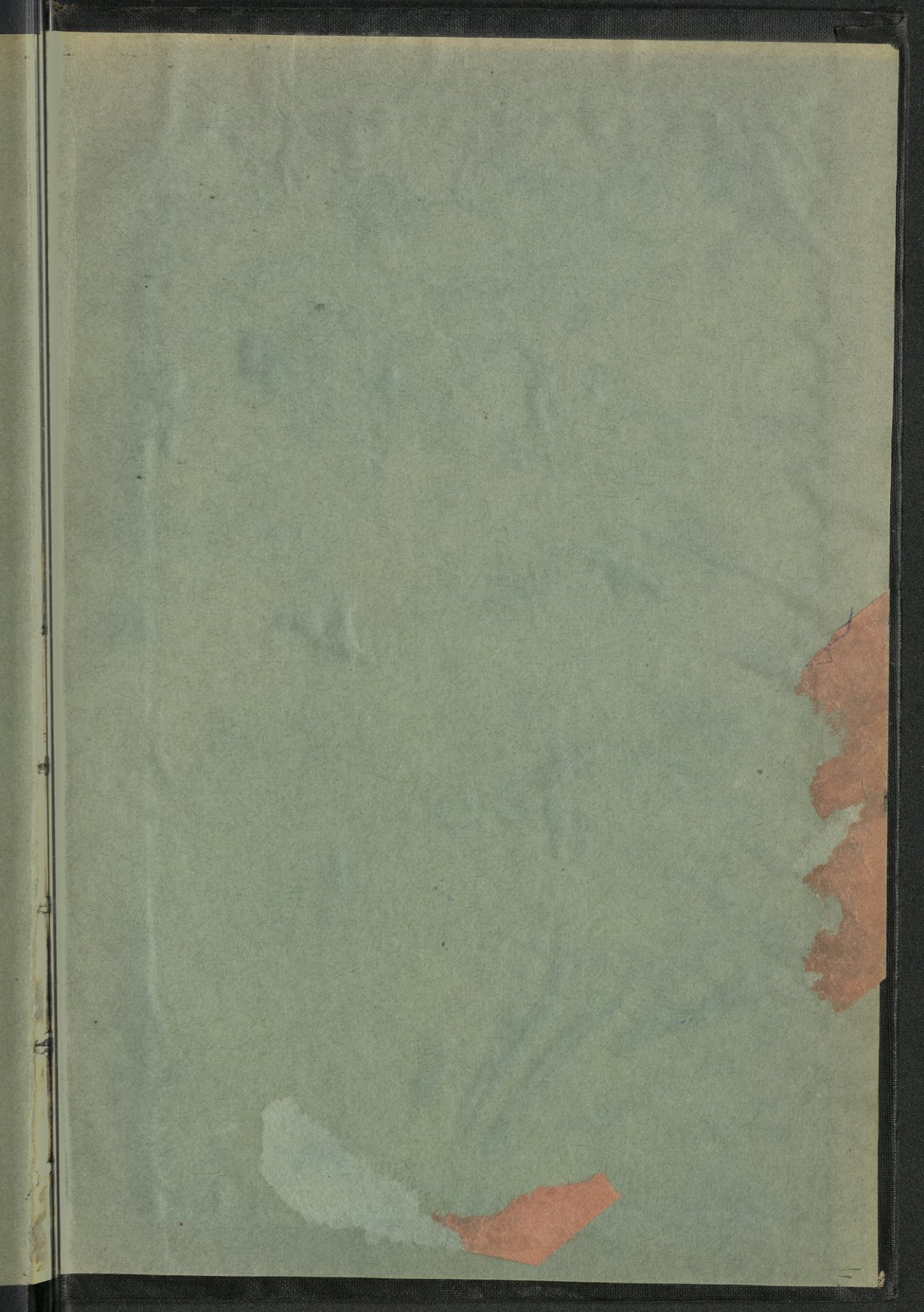




892.709:B31aA

C.1

البصير، محمد مهدي

10.3.82

892.709

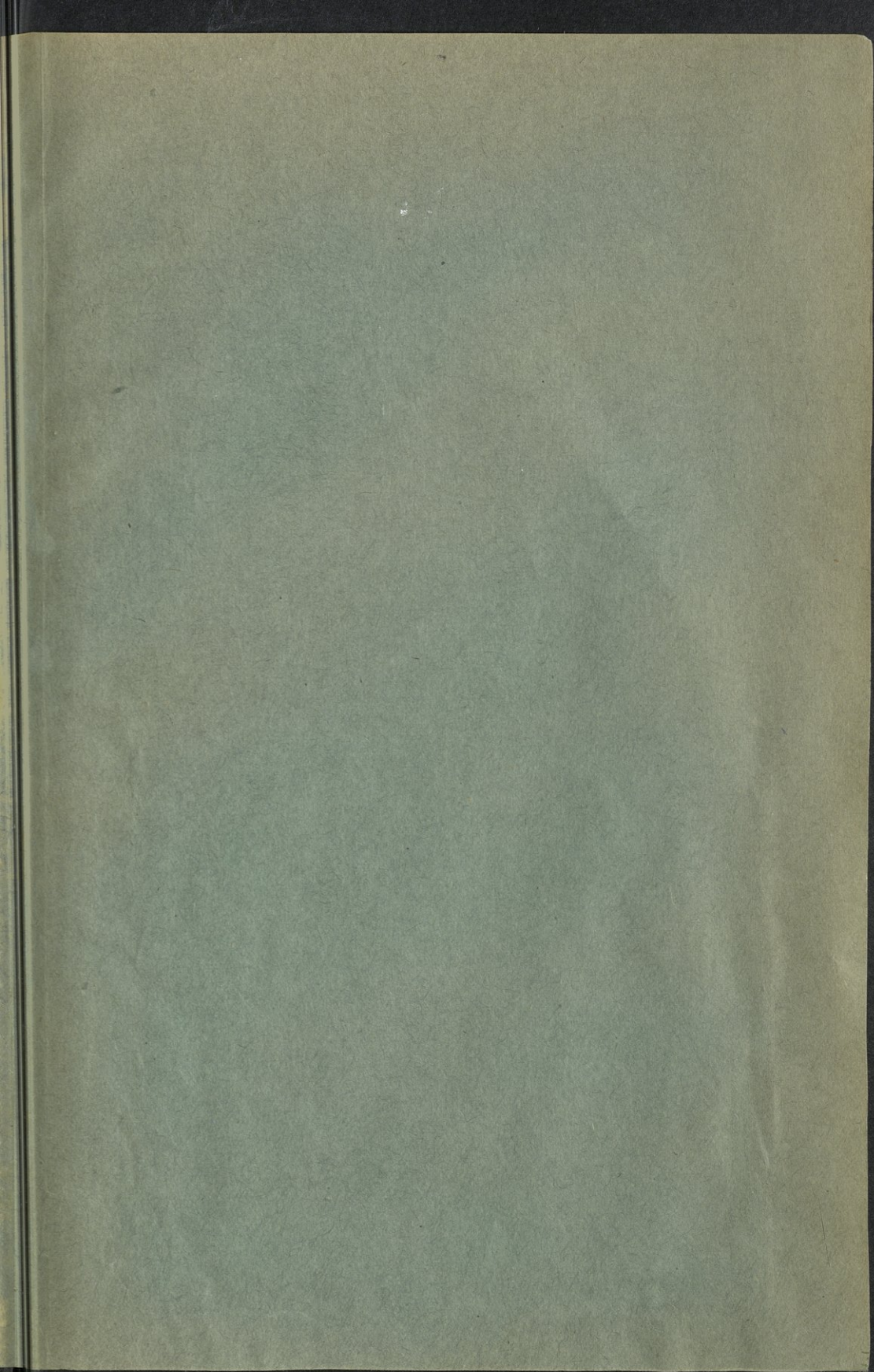
B31aA

JAFET LIB.

- APR 1982

JAFET LIB.

73 MAR 1982



892.709

B31aA

C.1

مجدد البصير

عصا القرائن

١٠٤

٤٧/١٢/٤١

حقوق الطبع والترجمة محفوظة لوزارة المعارف العراقية الجليلة

كل نسخة ليست مختومة بختم وزارة المعارف تعد مسروقة

مطبعة المعارف - بغداد

cat. 21 Apr. 53



الطبعة الأولى
٥١٣٦٦
م ١٩٤٧

المقتضب

أريد بعصر القرآن هذه الفترة التي تبندى بقيام الدعوة الإسلامية وتنتهي بزوال دولة بني أمية في الشام . وقد أطلقت عليها هذا الاسم لغلبة روح القرآن ولغته على خطب خطبائها ورسائل كتابها ولأثره البين في ألسنة شعرائها . فقد رقى من لغتهم ولطف من أساليبهم ووسع دائرة مداركهم ومعارفهم ، ومن أمثلة أثره البين في كلامهم قول السكيت بن زيد في هشام بن عبد الملك :

ألم يتدبر آية^(١) فتدله على ترك ما يأتي أم القلب مقفل
فانه مستمد من قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » -
« سورة محمد » . وقوله في نفس القصيدة :

كلام النبيين الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية نفعل
فانه مستمد من قوله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » - (البقرة) .

وقول عيسى بن فاتك الجبلي في الخوارج :

هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا
فانه مستمد من قوله تعالى : « .. كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » - (البقرة) ، ومثل هذا كثير . بل إنني أذهب إلى أبعد من ذلك ، فأزعم أن أسلوب السكيت في الجدل والمناظرة مستمد من القرآن وأن فن عمران بن حطان الممتاز بتوخي الحقيقة والتزام الصدق التزاماً تاماً من جهة

(١) يغلب على الظن أن السكيت يريد بقوله (ألم يتدبر آية ... البيت) قوله تعالى في سورة المائدة : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » على أن لهذه الفقرة نظائر كثيرة في القرآن الكريم .

وبمزاولة اللفظ وجمال التعبير ودرصاته وبساطته من جهة أخرى مستمد كذلك من القرآن . وسأشير إلى أثر القرآن في أدب هذا العصر مراراً أخرى عديدة في ثنايا هذا السفر .

وما أعدك بموسوعة تستوعب أدب هذا العصر درساً واستقصاء وتستوفيه عرضاً وتسجيلاً ، ولكني أرجو أن أضع بين يديك مجموعة فصول تحتوي على المادة المقرر تدريسها في دار المعلمين العالية من أدب هذا العصر ، وقد لا بخلو من فائدة أن أخبرك أي درست نثر هذا العصر من حيث تأثيره بالقرآن وتقليده له في مذاهبه وأساليبه البيانية ونسجه على منواله . وأتي جمعت بين خطب صدر الاسلام وخطب العصر الأموي في مكان واحد لأنها تتفق في مقاصدها وأغراضها ولا تختلف في لغتها وأسلوبها ، وفعلت مثل ذلك بالعهود والرسائل لنفس السبب ، وأتي درست الشعر من حيث هو ممثل لأهم المذاهب والنزعات الأدبية والسياسية والدينية والاجتماعية ، فقد درست الخطيئة وكعب بن زهير مثلاً على أنها مثلاً أكبر مدرسة بدوية شعرية نشأت في الجاهلية وعمرت زمناً غير قليل في الاسلام وهي مدرسة أوس بن حجر أستاذ زهير بن أبي سلمى ومخرّجه . ودرست حسان بن ثابت على أنه ممثل أكبر مدرسة شعرية حضرية نشأت في الجاهلية وامتدت حياتها زمناً غير قليل في الاسلام .

هذا في صدر الاسلام . أما في عصر بني أمية فقد قسمت الشعر أقساماً ثلاثة هي : الشعر السياسي ، والشعر العاطفي ، والشعر التقليدي . فأما الأول : فهو هذا الشعر الذي يمثل الأحزاب التي كانت تتطاحن في سبيل الاستيلاء على الخلافة وتبخر الحروب وتريق الدماء سعياً وراء الاستئثار بزعامة المملكة الاسلامية الفسيحة الأرجاء . وأما الثاني : فهو هذا الشعر الذي يمثل الحياة الغرامية التي كان يغلب عليها العفاف والظهر حيناً والعبث والمجون حيناً آخر ، تلك الحياة التي

نشأت عن تدفق الأموال على الحجاز وغلبة الترف على فريق كبير من سكانه وشيوع الغناء والقصف في المدينتين المقدستين مكة والمدينة . وأما الثالث : فهو هذا الشعر الذي يقوله الشعراء المتكسبون في كل زمان وفي كل مكان من مديح وهجاء وفخر ورثاء وغير ذلك مما يجري على ألسنتهم بحق وبغير حق . وقد اكتفيت بدراسة المقدمين من كل نوع من هذه الأنواع .

وبعد ، فقد كانت هذه الفصول تلقى على الطلبة في غرف التدريس إلقاءً وتملى عليهم إملأً . وفي ذلك ما فيه من عناء ومشقة ، وفيه كذلك ما فيه من تضيق للوقت وتأخير للعمل ، ولم يكن هذا مقصوداً على الفصول التالية ، ولكنه يتناول كثيراً غيرها . وكنا نعاني كل هذه الصعوبات بسبب مشاكل الطبع والورق وما إليها . ولكن يبدو أن حدة هذه المشاكل قد خفت الآن ، وأنا أصبحنا قادرين على نشر ما نسود من أوراق ، فعمسى أن لا يكون بقاء ما نسود في طيات الخفاء خيراً من ظهوره إلى عالم الهواء والنور .

وختاماً أحب أن أقدم بخالص الشكر وصادق الامتنان لزملائي أساتذة اللغة العربية في دار المعلمين العالية ، لأنهم أحسنوا الظن بهذه الفصول وقرروا إصدارها في شكل كتاب ، وللمجلس أساتذة الدار المذكورة لأنه أيد قرارهم بهذا الشأن ، ولحضرة صاحب المعالي وزير المعارف لأنه شمل هذا القرار بعطفه وأمر بتنفيذه .

محمد مهدي البصير

الجمعة — ١٨ حزيران ١٩٤٧

الباب الاول

النثر في عصر الفرائد

كنت قد نشرت الفصول التي يتألف منها هذا الباب
بشكل مقالات في العدد السادس (كانون الأول ١٩٣٩ م)
السنة الرابعة من مجلة المعلم الجديد البغدادية ، وفي العدين
الأول والثاني (كانون الثاني ١٩٤٠) السنة الخامسة من المجلة
المذكورة .

وقد اقتضى سياق البحث في هذا الكتاب أن أدمجها فيه
لأنها تؤلف جزءاً كبيراً منه ، ففعلت ذلك بعد أن هذبتها
تهذيباً واسعاً لحذفت منها ما بدلي فيه رأيي وأضفت إليها
ما جد عندي من آراء وملاحظات متواضعة .

النثر الفني في القرآن

- أ - تمهيد في النثر الجاهلي ونشأته وتطوره وضياعه .
ب - النثر الاسلامي . ابتدأه بالقرآن . القول بخلو القرآن من النثر خلوه من الشعر . رفضه .
ج - أنواع النثر الفني عند العرب . وجودها جميعاً في القرآن . النثر المرسل . المزدوج . أنواع السجع . الأسجاع القصيرة . الأسجاع المطولة . السجع المرصع . المحلى بالعائد .
د - ميل القرآن الى التزام قافية واحدة .
هـ - بعض خصائصه الفنية الأخرى . قلة الغريب فيه . اشتماله على الشعر . استعمال المحسنات اليبانية في غير تكلف . التكرير . استعمال أدوات الاستفهام بمقياس واسع .
و - خاتمة .

أ - الواقع أنه ليس بأيدينا شيء يمكن الاطمئنان اليه على أنه نثر جاهلي ، لأن عرب الجاهلية كانوا يعتمدون في رواية أدبهم على الذاكرة ، وهذه مهارة بلغت من القوة لا تستطيع أن تخزن الكلام المنشور وتحفظ به أجيالاً متعاقبة ، وقد أصاب الشعر الجاهلي شيء غير قليل من الفساد والاضطراب بسبب ما يعتريها من الضعف والوهن ، فما ظنك بالكلام المنشور؟! . ولكننا مع ذلك لا نشك في أن النثر الفني ^(١) وجد قبل الاسلام وأصاب خطأ لا بأس به من السكالم

(١) أريد بالنثر الفني الكلام البليغ غير المنظوم الذي تصور به الأشياء أو الأشخاص أو الحوادث تصويراً مؤثراً .

والنضج ، ولا شك كذلك في أنه كان مؤلفاً من خطب الخطباء وسجع المكيان^(١) ، ولنا على ذلك دليلان : أحدهما أن الخطابة كانت في صدر الاسلام فناً كبير الحظ من الزواج والانتشار^(٢) يمارسه الخلفاء والولاة والقواد فيحسنون فيه ويمجدون ويبلغون من النفوس والعقول كل مبلغ . وهذا لا يمكن أن يحدث فجأة في تاريخ الأدب ، بل لا بد من اجتيازه مراحل كثيرة مهدت لتقدمه وعملت في تكوينه وإعداده . وثانيهما أن مؤرخي الأدب القديم الذين استقوه من منابعه ووقفوا على أصوله ومصادره مجمعون على أن كهان العصر الجاهلي كانوا يلتزمون السجع فيما يصدر من أحكام ويذيعون من نبوءات ، ولا بد من قبول هذا الاجماع والرجوع اليه في تكوين فكرة صحيحة عن نشأة النثر العربي الفني خصوصاً إذا علمنا أننا لم نتبين حتى الآن ما يبعث على الارتياح بهذا الاجماع . إذن فقد كان للعرب في أيام جاهليتهم نثر فني ولكنه ضاع لغلبة الأمية عليهم ولم يصلنا منه شيء . يمكن الاطمئنان إليه .

ب - وإذن فلنبحث عن النثر الفني في الاسلام، وهذا يبتدىء دون أدنى ريب بالقرآن . ستقول : ولكن القرآن سفر ديني قبل كل شيء . وقد ذهب فريق من المستشرقين والنقاد العرب منهم الأستاذ ولیم مارسيس William Marsais والدكتور طه حسين إلى أنه خالٍ من النثر خلوه من الشعر وما أشك في أن القرآن سفر ديني قبل كل شيء . ولكنني لا أستطيع أن أتصور كيف يقدم ناقد عربي أو مستعرب يقرأ القرآن ويفهمه ويتذوقه على القول بخلوه من النثر الفني خلواً تاماً؟!

(١) ربما كان لعرب الجاهلية نوع آخر من النثر الفني . ولكن ليس لدينا ما يدل على وجوده دلالة قاطعة .

(٢) إذا اتخذنا خطب النبي والراشدين مقياساً لخطب العصر الجاهلي أمكننا أن نلاحظ أن هذه كانت تشتمل على كل ضرب من ضروب الكلام الفني ، ففيها السجع وفيها الازدواج وفيها الكلام المرسل الذي لا يتقيد بوزن ولا قافية .

ج - نحن نعلم أن النثر إما أن يكون مسجوعاً أي مؤلفاً من فقر تلتزم فيها القافية ولا يلتزم فيها الوزن كقول ابن العميد في مخاطبة والٍ متمرد (فانك تدل بسابق حرمة وتمت بسالف خدمة) ^(١) أو مزدوجاً وهو ما تترن به أو أجزا الجمل دون أن يلتزم فيها الروي كقول الجاحظ في ادعاء أحمد بن عبد الوهاب : (انه عتيق الوجه أخص البطن) ^(٢) أو مراسلاً وهو ما خلا جملة من الروي والوزن على أن يكون بالطبع فصيح اللفظ حسن التأليف محكم السبك كما هي الحال في كل نوع من أنواع الكلام الفني .

وأنت إذا تصفحت القرآن وجدته حافلاً بهذه الأنواع الثلاثة . فاما النثر المرسل فان القرآن يرجع إليه كلما رأى أن التزام السجع لا يتفق وأداء المعنى بصورة سليمة . ومن أمثلة ذلك قوله في سورة يوسف المكية التي يغلب عليها السجع : « بسم : يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرأ وأما الآخر فيصاب فتناً كل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان . وقال للذي ظن أنه ناجٍ منها اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين . » ومثل هذا في القرآن كثير نكتفي منه بما تقدم .

أما الازدواج فهو شائع في التنزيل العزيز ولا سيما في الموضوعات التي تتعلق بالوعظ والارشاد والتحذير من بطش الله وعقابه والتبشير بما عنده من حسن

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٠ طبعة المطبعة الحنفية بدمشق .

(٢) رسائل الجاحظ ص ١٨٧ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٣ م .

الآب؛ خذ مثلاً على ذلك قوله في سورة الطارق المسكية :

« بسم : والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب . إن كل نفس لها عليها حافظ . فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . »

وقوله في سورة البلد المسكية :

« بسم : ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب اليمين . والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة . »

وقوله في سورة الغاشية المسكية :

« بسم : هل أتاك حديث الغاشية . وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية . »

فواضح أن فواصل^(١) هذه الآيات تنفق وزناً ولا تتحد رويًا . ومعنى ذلك أن الآيات المذكورة من النثر المزدوج .

على أن الطابع الذي يمتاز به القرآن إنما هو السجع الذي إفتن به إفتناناً ، واستحدث منه ضروباً وألواناً ؛ فهناك السجع القصير الفقر^(٢) كقوله في المدثر المسكية :

« بسم : يا أيها المدثر . قم فأندب . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . »

وله في (الرحمن المسكية أو المدنية على قول) :

« بسم : الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان »

(١) الفواصل : جمع فاصلة وهي ما تختتم به الآية .

(٢) السجعة القصيرة هي التي لا يتجاوز عدد كلماتها عشرًا (راجع المثل السائر ص ٩٧) طبعة المطبعة البهية بمصر سنة ١٣١٢ هـ .

وقوله في سورة النجم المكية :

« بسم : والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة ^(١) فاستوى » .
وقوله في الدهر المدنية :

« بسم : إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجييراً . يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً » .

وهناك الأسجاع المطولة ^(٢) كقوله في وصف المنافقين في سورة البقرة :

« بسم : في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ، قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ^(٣) . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ^(٤) » .

وقوله في وصف سفينة نوح (ع) والطوفان وما يتعلق بها بسورة هود

المكية :

(١) المرة : قوة الخلق وشدة ، وقيل إن المعنى بالآية هو جبرائيل (ع)

(٢) السجعة الطويلة هي التي تتألف من إحدى عشرة إلى عشرين كلمة ، ويعتقد صاحب (المثل السائر) بحق : « أنه لا ضابط للأسجاع المطولة » (انظر المثل السائر ص ٩٧ طبعة المطبعة البهية بمصر سنة ١٣١٢ هـ)

(٣) تتألف هذه الآية من سبع كلمات وبهذا تختلف وما تقدمها وما يأتي بعدها من الآيات الطوال .

(٤) أوردت طرفاً من الآيات المسجوعة في سورتي الدهر والبقرة المدنيتين لأنه الافسار إلى أن الزعم القائل بخلو السور المدنية من السجع نظراً لاشتغالها على الفرائض والأحكام غير صحيح ، وللقاريء أن يرجع إلى كثير من السور المدنية الأخرى كالجمعة والمنافقين والزلزلة ليرى أن هذه السور حافلة بالاسجاع .

« بسم : وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين ^(١) » .

وهناك السجع المرصع ^(٢) وهو الذي تزدوج أو اسطه أو غيرها من اجزائه علاوة على ازدواج فواصله واتفاقها في الروي ، كقوله :

« بسم : والعاديات ضبحاً . فلموريات قدحاً . فلمغيرات صبحاً . فأثرن به نفعاً . فوسطن به جمعاً » ^(٣) فأنت ترى أن كلتي العاديات والموريات تتفقان في الوزن والروى علاوة على اتفاق آخر الآيتين فيهما ، ومثل ذلك يلاحظ في قوله « فأثرن ، ووسطن » ، فهاتان الكلمتان تتفقان وزناً وروياً علاوة على اتفاق الآيتين السكريتين في الآخر . وهذا النوع الطريف من السجع منتشر في القرآن ، فمن ذلك قوله تعالى في سورة (الغاشية المسكية) : « إن [إلينا] أياهم . ثم إن [علينا] حسابهم » .

(١) تختاب الآيات المسجوعة المطولة التي افتبسنها من سورتي البقرة وهود طولا وقصراً ، فالآية « وهي تجري .. الخ » تتألف من تسع عشرة كلمة . والآية « قال سأوي .. الخ » من ثلاث وعشرين ، والآية « وقيل يا أرض .. الخ » من سبع عشرة ، ويسمى القدماء هذا النوع من السجع (بالمطوف) لاشتغال طرفي السجعة على روي واحد دون أن تتفق الجملتان في عدد الكلمات .

(٢) آتينا تسمية هذا النوع من السجع بالمرصع لترصيع فقره بكلمات تتفق في زنة المقاطع وفي الحرف الآخر علاوة على اتفاق الفواصل ، والقدماء يسمونه التصريع تشبيهاً للسجعة بببيت من الشعر ، مشتمل على قافيتين . ونلاحظ أن هذه التسمية غير مفهومة ، لأن اتفاق الكلمات في الوزن والروي - ان صح هذا التعبير - لا يقع في الفقرة الواحدة وإنما يقع في فقرتين أو أكثر .

(٣) العاديات المسكية .

وقوله في سورة (الانفطار) المكية : « إن [الأبرار] لفي نعيم . وإن [الفجار] لفي جحيم » . وهكذا .

وهناك نوع من السجع لم ينتبه إليه أحد من القدماء فيما أعلم ، وقد سميناه (المحلى بالعائد) لاشتماله على فقرة يتكرر إيرادها في تضاعيف الكلام لتكسيبه رنة موسيقية خاصة ، ولتترك له في النفس أثراً قوياً جداً ^(١) : مثال ذلك أن (الرحمن) المسجوعة اشتملت على آية تكرر إيرادها إحدى وثلاثين مرة ، هي قوله تعالى : (فبأي آلاء ربكما تكذبان) وأن « المرسلات » المسجوعة كذلك التزمت إعادة قوله تعالى : « ويل يومئذ للمكذبين » ثلاث عشرة مرة ، وأن (القمر) التي هي أشد التزاماً للسجع من السورتين السابقتي الذكر كررت أربعة مرات آيتين متتابعتين بدلاً من آية واحدة وهما قوله : « فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » . والي تقدّر هذه الموسيقى البانية الجميلة حق قدرها أورد هنا مثلاً قليلة من كل من هذه السور : قال في (الرحمن) :
« بسم : خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار . فبأي آلاء ربكما تكذبان . رب المشرقين ورب المغربين . فبأي آلاء ربكما تكذبان . مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

وقال في المرسلات :

(١) فطن الاستاذ أنيس الحوري المقدسي الى هذا التكرار الموسيقي في (المرسلات) وشبه الآية المسكورة بـ (اللازمة شعرية) - (تطوار الأساليب النثرية ص ٣٨) وفطننا نحن له في (الرحمن) و (القمر) ونرجح تسمية الآية المعادة بـ (العائد) لاعادتها غير مرة في تضاعيف الكلام ، وهذا ما يسميه الفرنسيون في الشعر (رفران) Revran والألمان في الموسيقى (ليت موتيف) Leitmotiv - ولست أعرف لما سماه الاستاذ المقدسي (لازمة شعرية) وسميناه نحن (العائد) وجوداً في غير القرآن من الكتب العربية المنتورة .

« بسم : إنما توعدون لواقع . فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقيمت . لأي يوم أُجلت . ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل . ويل يومئذ للمكذّبين . ألم نهلك الأولين ثم تبعهم الآخريين . كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذّبين . ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذّبين » .
وقال في (القمر) :

« بسم : كذّبت قباهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازجر . فدعا ربه أي مغلوب فانتصر . ففتحنّا أبواب السماء بماء منهمر . وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر ^(١) . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدّكر . فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرّنا القرآن للذكر فهل من مدّكر . كذّبت عاد . فكيف كان عذابي ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرّنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ^(٢) » .

د - ومن يمعن النظر في القرآن يجد أنه شديد الميل إلى التزام قافية واحدة فقد التزمت الراء المنصوبة بالفتحة في معظم آيات سورة الدهر . واللام المنصوبة بها كذلك في (المزمل) إلا قليلاً . والألف المقصورة في ست وخمسين آية في سورة النجم التي عدد آياتها اثنتان وستون . بل إن هناك ما هو أكثر من ذلك،

(١) الدر : جم دسار ، وهو السمّار .

(٢) فصل بين الآيتين المكررتين عند إعادتهما المرة الثالثة بقوله : « بسم : إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم محتظر . » وحلت كلمة « فدوقوا » محل السكّتين الأوليين في الآية « فكيف كان عذابي ونذر » عند إعادتهما المرة الرابعة . وغني عن البيان أن هذا غير مؤثر في الفرض الفني المقصود من الإعادة .

فقد التزمت الرء المسكنة في (القمر) من البداية إلى النهاية . وهناك سورة قصيرة روعيت فيها وحدة القافية مراعاة كاملة : منها (الشمس) و (الفيل) و (الاخلاص) .
أقول إن القرآن راعى في هذا أذواق العرب الذين هم يفضلون وحدة القافية على تعددها في أشعارهم ؟ قد يكون ذلك . إن القرآن حفظ للعرب نحوهم وصرفهم وأساليبهم في منشور الكلام ، وليس من المستبعد أن يجاريهم في ميلهم الشديد إلى وحدة القافية .

هـ - أضف الى ما تقدم أن للقرآن في أنواع نثره ، مسجوعاً كان أم غير مسجوع ، سمات وصفات يمتاز بها من الناحية الفنية ^(١) . فمن ذلك وضوح عبارته وقلة الغريب في لغته .

نزل القرآن ليكون هادياً لمن قرأه ومرشداً لمن سمعه ، وغني عن البيان أن كتاباً هذه غايته وتلك مهمته يجب أن يكون واضح الأغراض جلي المقاصد ، وهذا ما حصل للقرآن بالفعل . فهو من جلاء التعبير وقلة الغريب بحيث لا يصعب فهمه على قارئ متوسط في ملكاته وثقافته . وقد سبق هنا إيراد مثل عديدة من سور مختلفة بعضها مكى وبعضها مدني . وقد رأيت أننا لم نفتقر للتعليق على ألفاظها إلا نادراً . على أي لا أنفي وجود الغريب ^(٢) في القرآن نفياً باتاً ،

(١) ذكر الدكتور زكي مبارك في كتابه (النثر الفني في القرن الرابع) ص ٤١ و ٤٢ الجزء الأول مطبعة دار الكتب بمصر سنة ١٩٣٤ سبع مميزات للسلوب القرآني غير ما نذكر هنا ، وذكر الأستاذ أنيس الحوري المقدسي في كتابه (تطور الأساليب النثرية) الجزء الأول ص ٤١-٤٨ أربعاً فليراجعها من اراد .

(٢) نريد بالغريب غير المألوف من الألفاظ ، وقد الفت كتب كثيرة في غريب القرآن غايتها البحث عما كان غريباً عن لغة قريش خاصة (كأرائك) و (معاذير) - اي ستور - اليمينيتين ، او عن اللغة العربية عامة (كسندس واحتبرق) الفارسيين ، و (مسك) و (كافور) السنسكريتيتين ، وغير ذلك .

ولكنني أزعج أن لغة القرآن مألوفة على الأكثر وأن الغريب لا يوجد فيها إلا نادراً .

وقد اشتد الانسجام في عبارة القرآن حتي أدنى لاستحالة آيات كثيرة أياتاً أو أشطراً مستقيمة الوزن من الشعر ، من ذلك قوله (العاديات - مجزوء الرجز) :
والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً
وقوله (النازعات ^(١) - مجزوء الرجز) :

والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً
والساجحات سبجاً فالسابقات سبقاً
وقوله (المرسلات ^(٢) - مجزوء الرجز أيضاً) :

والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً
والناشرات نشرأ فالفارقات فرقاً
فالملقيات ذكراً

وقوله (الانشراح - مجزوء الرمل)
ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك
ورفعنا لك ذكرك

أما الاشطر فهي كثيرة جداً منها قوله تعالى (الدهر المديد) :
« فجعلناه سميعاً بصيراً »

وقوله - الأحزاب ، المديد أيضاً - « إنه كان ظلوماً جهولاً » .

وقوله - الزلزلة ، المتقارب - : « وأخرجت الأرض أثقالها » .

وقوله - الأنفال ، البسيط - : « ليقضي الله أمراً كان مفعولاً » .

(١) النازعات : النجوم أو النسي

(٢) المرسلات : الرياح أو الملائكة أو الخيل

وقوله - القمر ، الرجز : « كأنهم أعجاز نخل منقعر ^(١) » .

وقس على ذلك كثيراً مما هو موجود في تضاعيف السور .

وقد عقد (السيوطي) في كتابه (الاتقان) فصلاً ضافياً للكلام عن الشعر

في القرآن ، فليراجع .

ولم يكن هذا النثر الجميل الذي يبلغ من شدة انسجابه أنه يستحيل شعراً موزوناً في كثير من الأحيان يخلو من المحسنات اليبانية ، بل إنه حافل بها في أجزائه ، ولك أن تقرأ أية سورة من سورة المكية أو المدنية لترى أنها لا تخلو من تشبيه بليغ أو استعارة جميلة أو كناية مستملحة أو مجاز مستطرف أو طباق منسجم ، بل ربما اشتملت السورة على هذه المحسنات كلها أو أكثرها . بيد أنه يجب أن يلاحظ أن هذه الزخارف اليبانية إنما تأتي عفواً وتفيض من منبع الإلهام فيضاً ، وإلا فأي تكلف في هذا التشبيه :

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون ^(٢) القديم ^(٣) »

(١) في سورة الرحمن المكية آية تكون شطراً من الرمل متبعاً بكلمتين تؤلفان ذلاً طريفاً هي : « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » وقد احتذى صفي الدين الحلي المتوفى سنة (٧٥٠) للهجرة مثال هذه الآية فنظم على نسقها موشحة أولها :

شق جيب الليل عن نحر الصباح أيها الساقوت

وفي سورة الاسراء آية بدئت بشطر من الهزج وختمت بمثله وتخللها كلام منشور منسجم كل الانسجام مع هذين الشطرين من حيث الاطراد والرنانة الموسيقية وهي - بسم - « وقرأنا فرقناه لتقرأ على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً » . وقد قلد ابن معنوق الموسوي أحد شعراء العراق في القرن الحادي عشر للهجرة هذه الآية بنوع من الكلام مما بدأ به وكان البند رائعاً في العراق رواجاً لا بأس به في أثناء القرن الماضي . ولعل من خير قائله في هذا العصر المرحوم الشيخ صالح التيسري البغدادي الذي يبدأ بنده هكذا : -

« سل الخللال ينيبك وحاشاه من الالفك » ، وابن الخلفه وينده معروف .

(٢) العرجون : الشمراخ المعوج

(٣) ياسين المكية

وفي هذا التشبيه :

« بسم : وإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ^(١) » ^(٢)

وفي هذا التشبيه :

« بسم : مثل الذين ^١حمّلوا التورات ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً ^(٣) » .

وأي تعسف في هذا الطباق :

« بسم : والسماء رفعها ووضع الميزان ^(٤) »

وفي هذا الطباق :

« بسم : والضحى والليل إذا سجا ^(٥) »

وفي هذا الطباق أيضاً :

« بسم : وإنه هو أضحك وأبكى ، وإنه هو أمات وأحيى ^(٦) »

وأي تعمّل في هذا المجاز :

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

وفي هذا المجاز أيضاً :

« ربي إني وهن العظم مني (واشتعل) الرأس شيباً ^(٧) »

(١) الدهان : جمع دهن أو هو ما يدهن به

(٢) الرحمن

(٣) الجمعة المدنية

(٤) الرحمن .

(٥) الضحى المكية .

(٦) النجم المكية .

(٧) سرهم المكية .

الحقّ أن القرآن مثل أعلى في استعمال المحسنات البيانية ضمن حدود الاعتدال وبدون تعسف ولا تكلف .

وحيث أن القرآن يستهدف قوة التأثير على عقول سامعيه وقارئيه وقلوبهم علاوة على الجمال الفني ، فقد عمد إلى استعمال عدة وسائل أهمها التكرير ، وقد رأينا أنه يلتزم تكرار آية أو آيتين مراراً عديدة في السورة الواحدة طلباً للرنة الموسيقية ، فنلاحظ الآن أنه يكرّر اللفظ أو الجملة مرتين أو ثلاثاً سعيًا وراء قوة التأثير :

١ - « بسم : إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق ^(١) »

٢ - « بسم : فلا افتحم العقبة وما أدراك ما العقبة ^(٢) »

٣ - « بسم : كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون ^(٣) »

٤ - « بسم : إنه فكر وقدّر ، فقتل كيف قدّر ثم قتل كيف قدّر ^(٤) »

وهذا السبب الذي دعا القرآن إلى استعمال التكرار والاكتثار منه بنسبة كبيرة هو الذي حدا به إلى استعمال أدوات الاستفهام بمقياس واسع جداً ، فهي تطرد فيه مرة للتنبيه ، وتارة للاستنكار ، وطوراً للاثبات عن طريق النفي . فمن أمثلة الأول قوله تعالى :

« أرايت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدعّ اليتيم ^(٥) »

(١) العلق المكيّة

(٢) البلد

(٣) النبأ

(٤) المدثر

(٥) الماعون المكيّة

ومن أمثلة الثاني قوله :

« بسم : أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ؟ أفلا تعقلون ؟ ^(١) »
وقوله :

« بسم : أقمارونه على ما يرى ؟ ^(٢) »

وقوله بعد آيات قليلة في نفس السورة :

« بسم : أفرأيتم اللات والعزى ؟ ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر
وله الأنتى ؟ »

وقوله في آخر هذه السورة :

« بسم : أفن هذا الحديث تعجبون ؟ وتضحكون ولا تبكون ؟ »

ومن أمثلة الثالث قوله في الكلام عن الانسان :

« بسم : ألم نجعل له عينين ؟ ولساناً وشفتين ؟ وهديناه النجدين ^(٣) ؟ ^(٤) »
وقوله :

« بسم : ألم نجعل الارض مهاداً . والجبال أوتاداً . وخلقناكم
أزواجاً .. الخ ^(٥) »
وقوله :

« بسم : ألم يجعلك يتيماً فأوى ؟ ووجدك ضالاً فهدى ^(٦) ؟ »

(١) البقرة

(٢) النجم

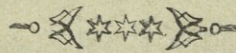
(٣) النجدان : طريقا الخير والشر

(٤) البلد

(٥) النيا

(٦) الضحى

(و) إذا كانت أنواع النثر العربي تنقسم إلى نثر مرسل وآخر مزدوج وثالث مسجوع ، كما ذكرت ، وإذا كان ما أوردت من النصوص القرآنية غير منتحل ولا مكذوب ، وإذا كان ما زعمت وجوده في القرآن من عناصر البلاغة كسلامة اللفظ وانسجام التعبير والاشتغال على المحسنات اليبانية في غير تكلف موجوداً فيه حقاً ، أقول: إذا كان كل ذلك صحيحاً فليس من المجازفة في شيء أن نقرر أن القرآن سفر منشور له قسطه من الحيوية والجمال وحظه من البراعة والقوة .



الفصل الثاني

الخطابة في عصر القرآن

- أ - إنتصار القرآن من الناحية الأدبية .
ب - أثره في خطب القرن الأول للهجرة وكتبه .
ج - الخطابة في عصر الراشدين :
خطبة أبي بكر في وصف الملوك ، خصائصها الفنية . خطبة عمر بعد تشييعه
سعد بن أبي وقاص ، أسلوبها . خطب الامام علي ، الشكوك بنهج البلاغة ،
مناقشتها ، وصف الشيخ محمد عبده ماترك نهج البلاغة في نفسه من الانطباعات
(هامش) ، الشريف الرضي ، سيرته ، ثناء عليّ على عمر بن الخطاب رضي الله
عنهما ، بقية المصادر التي نقل عنها الشريف الرضي ، عشر خطب للامام علي في
العقد الفريد ، مثل منها ، استعراض الصلة الفنية بين خطب الراشدين والقرآن ،
طبيعة علي بن أبي طالب الشعرية وأثرها في خطبه ، خطبته بعد تلاوة « ألهاكم
التكاثر » ، مثل منها ، مميزات الفنية .
د - بقاء الخطابة على عهد بني أمية كما كانت في أيام الراشدين . خطبة للحسن
بن علي ، خطبة لمعاوية بن أبي سفيان ، خطبة لعمر بن العزيز ، خطبة لعبد الله
بن الزبير ، نبذة من خطبة لابي حمزة الأباضي .
هـ - العناصر التي تجمع بين القرآن وخطب القرن الاول للهجرة . أسباب
تأثر العرب بالقرآن في هذا العصر .

(أ) من اليسير جداً أن ندرك أن انتصار الدعوة الاسلامية لم يكن دينياً
وسياسياً فحسب ، وإنما كان أدبياً أيضاً ، وأدبياً إلى حد بعيد ، فليس من شك
في أن تلاوة القرآن باتت أمراً لا بد منه لجمهور الأمة العربية عند غلبة الاسلام

على شبه الجزيرة : يتلوه المسلم المخلص الصادق لأنه يؤمن به ويمجده ويقده ،
ويتلوه المنافق الذي يدين بالاسلام في الظاهر ويعاديه ويكيد له في الباطن لتنطلي
حياته وتجاوز على أنصار الدين الجديد خدعته ، على أنه لا يبعد أن يستحسنه
ويعجب به كثيراً أو قليلاً من الناحية الفنية .

وغني عن البيان أن كتاباً هذا حظه من الانتشار والذيع لا يلبث أن
يستولي على كل عقل وينفذ إلى قرارة كل نفس ويؤثر في كل خيال . وهذا
ماحصل بالفعل ، فقد كان القرآن عظيم التأثير في أذهان العرب وقرأتهم ، شديد
الاستيلاء على عقولهم ومداركهم ، ليس فقط في أيام النبي والراشدين ، بل وفي
أيام بني أمية ، حتى أننا لنستطيع أن نسمي هذا العصر الذي يبدأ باعلان الدعوة
الاسلامية وينتهي بزوال دولة بني أمية في الشام : « عصر القرآن » وما يبان
ذلك ولا إثباته بعسير .

(ب) فأكبر مميزات القرآن كما رأيت في الفصل السابق : قلة الغريب
وشدة الانسجام إلى درجة تستحيل معها العبارة في كثير من الأحيان شعراً
مستقيم الوزن . واستعمال الزخارف البيانية كالحجاز والتشبيه والاستعارة والجناس
والطباق في غير تكلف ولا تصنع ، والتزام السجع في مواطن كثيرة وتطويله
حيناً وتقصيره حيناً آخر ، والاستعاضة عنه بالازدواج أحياناً وإحلال الكلام
المرسل محلها كلما اقتضت ذلك سلامة الأداء .

ونحن واجدو هذا كله بنسب مختلفة طبعاً في خطب الراشدين وكتبهم التي
حفظتها لنا معاجم الادب والتاريخ الجديرة بالثقة كـ (البيان والتبيين) للجاحظ ،
و (تاريخ الأمم والملوك) للطبري ، و (مروج الذهب) للمسعودي ، و (العقد
الفريد) لابن عبد ربه ، وما يجري هذا المجرى من المراجع المهمة . وفي الخطب
والرسائل التي حفظتها لنا هذه المصادر أيضاً عن العهد الأموي . ونعرض الآن

للخطب لخطورتها وغلبتها على القرن الأول للهجرة على أن نبعث عن الرسائل في فصل قادم .

(ج) اقرأ خطبة أبي بكر في وصف فريق من الملوك^(١) :

« إن من الملوك من إذا ملك زهده الله فيما عنده ورغبه فيما في يدي غيره ، وانتقصه شطر أجله ، وأشرب قلبه الاشفاق ، فهو يحسد على القليل ، ويتسخط الكثير ، ويسأم الرخاء وتنقطع عنه لذة البه^(٢) ، لا يستعمل العبرة ولا يسكن إلى الثقة ، فهو كالدرهم القسي^(٣) والسراب الخادع ، جذل الظاهر ، حزين الباطن . فاذا وجبت^(٤) نفسه ونضب عمره وضحا ظله ، حاسبه الله فأشدّ حسابه وأقلّ عفوّه ، ألا إن الفقراء هم المرحومون ، وخير الملوك من آمن بالله ، وحكم بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه تعالى وسلم . وإنكم اليوم على خلافة النبوة ، ومفرق المحجة ، وسترون بعدي ملكاً عضوضاً^(٥) وملكاً عنوداً ، وأمة شعاشاً^(٦) ودماً مفاحاً . فان كانت للباطل نزوة ، ولأهل الحق جولة ، يعفوها الأثر ، ويموت بها البشر ، فالزموا المساجد واستشيروا القرآن والزموا الطاعة ولا تفارقوا الجماعة ، وليكن الأبرام بعد التشاور والصقعة بعد طول التناظر^(٧) .. الخ »

فأنت ترى أن هذه الخطبة القصيرة تحتوي على عدة فقر مسجوعة ، وعلى

(١) خطب ابو بكر (رض) ذات يوم فقال : « ان أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك » فرغم الناس رؤوسهم فقال : « ما لكم ايها الناس انكم لطمانون عجولون » ومضى في الخطبة .

(٢) الباء : التسكاح

(٣) القسي : الرديء الفضة

(٤) وجبت : ماتت . ووجبت الشمس : غابت ، والعين غارت

(٥) ملك عضوض : فيه جور وعسف .

(٦) شعاشاً : متفرقة

(٧) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢١ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر .

جمل أكثر منها مزدوجة ، هذا إلى أنها لم تخل من المحسنات البيانية التي وردت فيها عفواً ، فما أشك أنك قد استملحت تشبيه الملك السعيد في الظاهر الشقي في الباطن (بالدرهم القسي والمرباب الخادع) . كذلك لا أشك في أنك قد استظرفت هذا الطباق « يحسد على القليل ويتسخط الكثير » وهذا الطباق : « جنل الظاهر حزين الباطن » .

وخطب عمر (رض) لا تقلّ عن خطب أبي بكر روعة وجمالاً ، إليك منها هذه الخطبة التي ألقاها بعد تشييعه جيش سعد بن أبي وقاص : -

« إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال ، وصرف لكم الأقوال ، ليحيي بها القلوب ، فإن القلوب مميّنة في صدورهما حتى يحياها الله ، من علم شيئاً فلينتفع به ، وإن للعدل أمارات وتبشير ، فأما الامارات : فالحياء والسخاء ، واليمين واللين ، وأما التبشير : فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمراً باباً ويسراً لكل باب مفتاحاً . فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكّر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق . ولا تصانع في ذلك أحداً ، واكتف بما يكفيك ^(١) من الكفاف ، فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء ، إني بينكم وبين الله ، وليس بيني وبينه أحد ، وإن الله قد أزماني دفع الدعاء عنه ، فأنهاؤا شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع ، فإلى من يبلغناها ، نأخذ له الحق خير متعتم ^(٢) »

في الواقع أن هذه الخطبة تكاد تخلو من الازدواج والسجع ، إلا أنها عامرة بكثير من المزايا الفنية الأخرى : فهي صحيحة اللفظ مطردة الأغراض والمقاصد

(١) في تاريخ الأمم والملوك (يكفيه) .

(٢) تاريخ الأمم والملوك طبعة ليدن الصالحة الأولى المجلد الرابع صفحة ٢٢١٩ .

الطراداً منطقياً واضحاً، منزّهة عن وحشيّ الكلام وحوشيّه ، وهذا هو ما أعجب
 عمر من زهير بن أبي سلمى كما تعلم وما تجده في خطبه كلها . وموقف عمر من
 الزخرفة البيانية في خطبه شبيه بموقف زهير منها في شعره ، فهو لا يكّد في سبيلها
 ذهنه ولا يجهد قريحته ، ولكنّه لا يأبأها إذا جاءت فيض البديهة . ومما جرى
 على لسانه عفواً من هذا القبيل في الخطبة الآف ذكرها هاتان الاستعارتان
 الجميلتان في قوله : « فباب العدل الاعتبار ، ومفتاحه الزهد » . وأحب أخيراً
 أن ألفت نظرك الى هذا التحليل الدقيق والوجيز في وقت واحد للعدل والاعتبار
 والزهد ، فانه من أهم عناصر البيان في هذه الخطبة ومن أسطع الأدلة على أن
 المقصود منها لم يكن (مجرد الأداء) وإنما هو (إثارة الجمال الفني) ومحاولة التأثير
 عن طريقه في نفس القارىء أو السامع .

ولعثمان (رض) خطب قليلة رواها الطبري وغيره من المؤرخين يخيل إليّ
 أنه ليس من الضروري الوقوف عندها والتحدث عنها . وعلى هذا ننقل إلى خطب
 الامام عليّ (ع) التي لا بد لنا من إطالة الوقوف عندها والافاضة في الكلام
 عنها لكثرتها وتنوّع موضوعاتها وعظم خطرهما من الناحية الفنية ^(١) .

(١) قد لا يتخلو من فائدة كبيرة أن نثبت هنا وصف الامام المغفور له الشيخ
 محمد عبده أحد شراح نهج البلاغة ، الانطباعات التي تركها هذا الكتاب في نفسه ،
 قال :-

« كنت كلما انتقلت من موضع الى موضع أحس بتغير المشاهد وتحول المعاهد ،
 فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية
 تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية ، توحى اليها رشادها وتقوم منها
 مرادها وتنفر بها عن مداخل المزال الى جواد الفضل والكمال .
 وطوراً كانت تتكشف لي الجمل عن وجوه بأسرة وأنياب كالشرة وأرواح في أشباه النور
 ومخالب النسر قد تحفزت للوناب ثم انقضت للاختلاب ، فخلبت القلوب عن هواها وأخذت
 الحواطر دون مرماها واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء . . وأحياناً كنت أشهد عقلاً =

سقول : « وما رأيك بالشكوك التي حامت منذ عصور وما زالت تحوم حول (نهج البلاغة) ؟ وأجيب بآني لا أعتمد على هذا الكتاب في اقتطاف المثل التي أختارها لهذا الفصل من خطب الامام علي ، هذا مع العلم بآني أصحح نسبة نهج البلاغة إليه إجمالاً . وأقول إجمالاً لأنه ليس من المتعذر أن يغفل الشريف الرضي عن قبول خطبة أو رسالة أو كلمة مدسوسة على جده إذا كانت هذه من حسن الصيغة وجمال الصورة وسمو الهدف ما يضمن جوازها على أمثاله من أعلام البيان . كما أنه ليس من المتعذر أن يدس أحد النساخ جملة أو أكثر في ثنايا هذا السفر ، وقد دسّت الأحاديث قبل هذا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودسّت بمقياس واسع جداً . وما أشك أنك ستسألني عن الأسباب التي تحملني على أن أقف من نهج البلاغة هذا الموقف . وإليك الجواب :

١ - يزعم المرتابون بنهج البلاغة وفي طليعتهم ابن خلدان^(١) أن الشريف

نورانياً لا يشبه خلقاً جسدياً فصل عن الموكب الألهي واتصل بلروح الانساني ، فخلقه عن غاشيات الطبيعة وسما به الى الملكوت الأعلى ونما به الى مشهد النور الأجل وسكن به الى عمار جانب التقديس بمد استخلاصه من شوائب التلبيس .

وآناء كآني أتهم خطيب الحكمة بنادي بأعلياء الكلمة وأولياء أمر الأمة ، يمرهم مواقع العوالب ويصرهم مواضع الارتباب ويجذرم منالق الاضطراب ويرشدم الى دقائق السياسة ويهديهم طريق الكياسة ويرتقم بهم الى منصات الرئاسة ... »

(شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ج ١ ص ٣ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر) .

(١) الواقع أن الشبهة التي أثارها ابن خلدان لم تتناول نسبة نهج البلاغة الى الامام علي فقط . وإنما تناولت نسبته الى الشريف الرضي أيضاً . فهو يقول في ترجمة الشريف المرتضى ما نصه : « وقد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، هل هو جمعه أم جمع أخيه الرضي . وقد قيل انه ليس من كلام علي ، وإنما الذي جمعه ونسبه اليه هو الذي وضعه ، والله أعلم » (وفيات الأعيان طبعة بولاق ، الجزء الأول ص ٣٣٨)

وواضح أن هذه السمكة لا تعتمد على مصدر ولا تستند الى أساس ، ومما لا شك فيه أنه لو كان ابن خلدان يبرف أحداً يمكن أن تمزى اليه هذه الاقوال لما تردد في ذكره . ولكنه الهوى أعادنا من شره ، ووقانا كيد شيطانه .

الرضي هو الذي صنعه ونسبه إلى جده، ونحن إذا استعرضنا سيرة الشريف الرضي في أوثق المصادر التي عنت به وكتبت عنه كـ (يتيمة الدهر) و (مقاتل الطالبين) و (السكامل في التاريخ) تبين لنا أنه رجل جمّ المروءة محمود الخصال طاهر الذمة شديد التمسك بالدين . ومما يؤيد هذا ويؤكد أنه هذا الرجل ولي رقابة الطالبين وإمارة الحاجّ وولاية دفع المظالم في حياة أبيه الذي طالما اضطلم بأعباء هذه المناصب وأخيه الشريف المرتضى وهو أكبر سنّاً وأكثر فقهاً منه . أفيعهد إليه كل هذه المناصب الدينية الخطيرة مجتمعة ومتفرقة وهو من فساد الذمة بحيث يخلف كتاباً كاملاً وينحله إماماً من أعظم أئمة المسلمين ؟

٢ - على أن الشريف الرضي لو كان من الذين يعشون بالنصوص التاريخية فيزيدون فيها وينقصون منها إرضاء لنزعة من النزعات لحذف من كلام جده خطبته في الثناء على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهي :

« لله بلاد فلان ، فقد قوّم الأود ، وداوى العمى ^(١) ، خلف الفتنة ^(٢) وأقام السنة ، ذهب نقي الثوب قليل العيب ، أصاب خيرها ، وسبق شرها ، أدى إلى الله طاعته واتقاه بحقه ، رحل وتركهم في طرق متشعبة لا يهتدي فيها الضال ولا يستيقن المهتدي ^(٣) . »

٣ - ومع أن الرضي روى عن مصادر ضاع أكثرها ، فلا يزال في حوزتنا عدد لا بأس به من هذه المصادر ، كـ (البيان والتبيين) و (مروج الذهب) و (تاريخ الأمم والملوك) .

(١) العمى : العلة

(٢) لم يدركها ولم تدركه

(٣) نهج البلاغة ج ١ ص ٥٦١-٥٦٢ طبعة مطبعة دار المكتبة العربية بدمشق .

وأنت إذا درست أقوال الامام الموجودة في هذه الكتب وقارنت بينها وبين الخطب والرسائل والحكم الموجودة في نهج البلاغة ، رأيت أنها تحمل على العموم طابعاً واحداً وتمثل أسلوباً واحداً وعبقريّة واحدة .

هذه هي الأسباب التي تحملني على تصحيح نسبة نهج البلاغة إلى الامام علي إجمالاً . أما المثل التي أود إيرادها في هذا الفصل من خطبه فهذه هي مقتبسة من الجزء الثاني من العقد الفريد^(١) ، قال عليه السلام :

« الحمد لله الذي استخلص الحمد لنفسه ، واستوجبه^(٢) على جميع خلقه ، الذي ناصية كل شيء بيده ، ومصير كل شيء إليه ، القوي في سلطانه ، اللطيف في جبروته ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، خالق الخلاق بقدرته ، ومسخّهم بمشيئته ، وفي العهد صادق الوعد ، شديد العقاب جزيل الثواب ، أحمده وأستعينه على ما أنعم به مما لا يعرف كنهه غيره ، وأتوكل عليه توكل المستسلم لقدرته ، المتبرئ من الحول والقوة إليه ، وأشهد شهادة لا يشوبها شك أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، إلهاً واحداً صمداً ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الدّلّ وكبره تكبيراً ، وهو على كل شيء قدير » . ومنها :

(١) لعلي بن ابي طالب (ع) في هذا الكتاب عشر خطب ، عرض في خمس منها للسياسة فتكلم عن رجالها وأحداثها في عصر من سبقه من الخلفاء وفي عصره تلميحاً وتصريحاً واقتصر في الخمس الأخرى على تمجيد الله والثناء على الرسول (ص) ووصف الملائكة والكلام عن الدنيا والموت والبعث وعلى إهداء المواعظ والنصائح الدينية والأخلاقية . ومما هو جدير بالذكر أن كثرة خطب الامام المروية في العقد الفريد وبراعة صاحبة مؤلفه مما يهتم به الشريف الرضي : هما اللذان حملاني على إيراده في المثل والشواهد .

(٢) استوجبه : استحقه .

« وأشهد أن محمداً (ص) صفوته من خلقه ، وأمينه على وحيه ، أرسله بالمعروف آمراً ، وعن المنكر ناهياً ، وإلى الحق داعياً ، على حين قفرة من الرسل ، وضلالة من الناس واختلاف من الأمور ، وتنازع من الألسن ، حتى تتم به الوحي ، وأنذر به أهل الأرض ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله فانها العصمة من كل ضلال ، والسبيل إلى كل نجاة » (١).

وقال من أخرى :

« أما بعد ، فإن الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، وإن المضمار اليوم والسباق غداً ، ألا وإنكم في أيام أمل ، من ورائه أجل ، فمن أخلص في أيام أمله ، قبل حضور أجله ، نفعه عمله ولم يضره أمله ، ومن قصر في أيام أمله ، قبل حضور أجله ، فقد خسر عمله ، وضره أمله ، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها ، ولم أر كالنار نام هاربها ، ألا وإنكم قد أمرتم بالظن ودلتم على الزاد ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل » (٢) . (٣)

وقال يوتخ أصحابه لتواكلهم عن نصرته :—

« أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهن الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم عدوكم ، تقولون في المجالس كيت وكيت ، فإذا جاء القتال

(١) العقد الفريد الجزء الثاني . طبعة المطبعة الجالية بمصر ص ٣٥٢

(٢) مما يستدل به الشاكون في نسبة نهج البلاغة إلى الأمام علي (ع) على اختلافه كله أو أكثره اشتماله على خطب مسجوعة زاعمين أن السجع من سمات النثر العربي في القرن الرابع للهجرة ، إلا أننا إذا تذكرنا ما أسلفنا إيراده من نماذج السجع في القرآن تبيننا ما في هذا السبب الباعث على الشك من قوة ووجاهة ، على أننا قد رويناه هذه الخطبة المسجوعة لعلي (ع) عن غير نهج البلاغة .

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٥٣

فلَمْ حيدي حياد^(١) ما عزّت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم ،
أعليل بأباطيل ، وسألتوني التأخير^(٢) دفاع ذي الذين المطول ، هيهات لا يمنع
الضمم الذليل^(٣) ولا يدرك الحق إلا بالجد . أي دار بعد داركم تمنعون ، ومع
أيّ إمام بعدي تقاتلون . المغرور والله من غرتموه . ومن فاز بكم فاز بالسهم
الأخيب . أصبحت والله لا أصدق قولكم . ولا أطمع في نصرتم . فرق الله
بيني وبينكم . وأعقبني بكم من هو خير لي منكم . وددت^(٤) والله أن لي بكل
عشرة منكم رجلاً من بني فراس بن غنم ، صرف الدينار بالدرهم^(٥)»

والآن ، أرأيت كيف يقدّم هؤلاء الخطباء القرآن فيسجعون كما يسجع في
غير تكلف ، ويكثرون من الازدواج كما يكثرون منه ؟ ويميلون إلى الكلام المرسل
كما استدعته سلامة الأداء كما يميل إليه ؟ أرأيت كيف يذهبون مذهبه وينحون
منحاه في إثارة المألوف على الغريب من الألفاظ ؟ وفي إحكام السبك والعناية
بالانسجام ؟ أرأيت كيف ينهجون سبيله في استعمال المحسنات البيانية ، كلما أتت
عفو البديهة وفيض الخاطر فيأتون بالاستعارات الجميلة والتشايه البليغة
والعبارات المجازية المستطرفة^(٦) في غير تعمل ولا تصنع ؟

وما أرتاب في أنك قد لاحظت أن خطب الامام علي (ع) أميل إلى السجع
وأحفل بالازدواج وأشدّ التماساً للجمال اللفظي ، وسبب ذلك بيّن : فطبيعة علي بن

(١) في العقد الفريد (حياد) فقط ، ولكنها في البيان والتبيين (حيدي حياد) وهو
الصحيح . وهي كلمة يقولها المأرب كأنه يسأل الحرب أن تمنحني عنه .

(٢) لا وجود لهذه الفقرة في نهج البلاغة وهو الأصح .

(٣) أثرت اقتباس هذه الجملة من البيان والتبيين ، مكانها في العقد الفريد (ألا يدغم
الضمم الذليل) .

(٤) في البيان والتبيين (لوددت) .

(٥) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٥٤

(٦) انظر خاصة الخطبة الثانية من خطب الامام علي (ع)

أبي طالب الشعرية كثيراً ما تخلّق به في جوّ الخيال والشعر ، وتسبغ على نصائحه ومواعظه وآرائه في الدين والسياسة والاجتماع ألواناً مختلفة من الجمال تخلق منها صوراً بيانية رائعة .

والآن وقد عرفت أسلوبه الخطابي عن غير طريق نهج البلاغة وتبينت خصائصه ومميزاته بصورة قوية واضحة أيسح لنفسي أن أروي لك طرفاً من خطبة ألقاها بعد تلاوة (ألهاكم التكاثر) تفرد بروايتها نهج البلاغة وقال عنها الشريف الرضي إنها من أجل خطبه ، قال :

« يا له مرأماً أبعد ، وزوراً ما أخفله ، وخطراً ما أفضعه ، لقد استخلوا منهم أي مدّكر وتناوشوهم من مكان بعيد ، أبصار ع آبائهم يفخرون ، أم بعيد الهلكى يتكاثرون ، يرتجمون منهم أجساداً خوت ، وحركات سكنت ، ولأن يكونوا عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً ، ولأن يهبطوا بهم جناب ذلة أحجى من أن يقوموا بهم مقام عزة ، لقد نظروا اليهم بأبصار العشوة وضربوا منهم في غمرة جهالة ، ولو استنطقوا عنهم عرصات تلك الديار الحاوية ، والرُبع الخالية ، لقاتل ذهابوا في الأرض ضلّالاً وذهبتم في أعقابهم جهّالاً ، تطأون في هامهم ، وتستنبتون في أجسامهم ، وترتعون فيما لفظوا ، وتسكنون فيما خرّبوا ، وإعما الأيام بينكم وبينهم بواكي ونوائح عليكم ، أولئك سلف غايتكم ^(١) وفرّاط ^(٢) مناهلكم الذين كانت لهم مقاوم ^(٣) العز وحلبات الفخر ، ملوكا وسوقاً ساكوا في بطون البرزخ سبيلا سلّطت الأرض عليهم فيه ، فأكلت من لحومهم وشربت من دمائهم . فأصبحوا في نجوات قبورهم جماداً لا ينمون وضماراً ^(٤) لا يوجدون ،

(١) السلف هما المتقدمون والغاية : الموت

(٢) فرّاط : جمع فارط وهو متقدم القوم الى الماء

(٣) المقاوم : جمع مقام

(٤) الضمار خلاف العيان

لا يفزعهم ورود الأهوال، ولا يحزنهم تنكّر الأحوال، ولا يحفلون بالرواجف
ولا يأذنون للقواصف ، غيباً لا ينتظرون . وشهوداً لا يحضرون ، وإنما كانوا
جميعاً فشتتوا ، وألفاً فافترقوا ، وما عن طول عهدهم ولا بعد محلمهم عميت أخبارهم
وصمت ديارهم ، ولكنهم سقوا كأساً بدلتهم بالنطق خرساً وبالسّم صمماً
وبالحركات سكوتاً فكانهم في ارتجال الصفة صرعى سبات ، حيران لا يتأّسون،
وأحباء لا يتزاورون ، بليت بينهم عرى التعارف وانقطعت منهم أسباب الأخاء
فكلهم وحيد وهم جميع وبجانب الهجر وهم أخلاء ، لا يتعارفون ليل صباحاً ولا
لنهار مساء ، أي الجديدين ظفّوا فيه كان عليهم سرمداً ... الخ^(١) »

وأنت إذا تدبرت ما سلف إirاده من هذه الخطبة شعرت في الحال بأنها
منقطعة النظير في تحليل عالم الفناء وتصوير ما وراء هذه الحياة .

في الواقع أن الموضوع بعيد كل البعد عن أن يكون جديداً، ولكن الشكل
الممتاز الذي أفرغه به الخطيب خلم عليه من الجلال والرونق ما يثير دهشة الناقد
وإعجابه .

إننا نستطيع أن نقول في وصف هذه الخطبة إنها فصيحة الألفاظ قصيرة
الجل كثيرة المجاز والطباق عامرة بالاستعارات والتشبيه ، على أنها بريئة كل
البراءة من العمل والتكلف، ولكن قد تجتمع هذه العناصر كلها في كلام دون
أن تكسبه هذه الروعة التي نجدها في هذه الخطبة ؛ ذلك هو فيض العبقرية الذي
يقصر عنه النقد ، ولا يحيط به التحليل ، ولقد أصاب (مارتى لافو)
Marty - Lavaux بقوله عند دراسته أسلوب (كورني) ما ملخصه : « إننا
لا نستطيع أن ندرك لدرجة كافية سر جمال المرأة التي تفيض نظراتها وابتساماتها

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٥٤٢-٥٤٥ طبعة مطبعة دار الكتب العربية بمصر .

سحراً، كذلك نحن لا نستطيع أن ندرك لدرجة كافية سر الجمال في أسلوب خطيب عبقرى أو كاتب بارع أو شاعر نابغ .

(د) ومهما يكن من شأن هذه الخطبة فإنها وكل خطب نهج البلاغة تحمل طابع القرآن الذي امتاز به أسلوب الخطابة على عهد الراشدين ، ذلك الطابع الذي تمتاز به خطب الأمويين والمروانيين وخطب خصوصهم من علويين وزبيريين وخوارج ، وبعبارة أخرى خطب صدر الاسلام ودولة بني أمية ، وإليك مثالا على ذلك هذه الخطبة التي ألقاها الحسن بن علي رضي الله عنها عند عقده الصلح مع معاوية . قال :

« أما بعد أيها الناس : فإن الله قد هدى أولكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا ، وكانت لي في رقابكم بيعة ، تحاربون من حاربت وتسلمون من سلمت ، وقد سلمت معاوية وبايعته فبايعوه ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دول ، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وإن أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين ^(١) » .

وهذه الخطبة التي ألقاها معاوية بن أبي سفيان على منبر المدينة عندما قدمها حاجاً في عام الجماعة :

« أيها الناس ، إنا قدمنا عليكم وإنما قدمنا على صديق مستبشر ، أو على عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون (فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) ولست واسعاً كل الناس فإن كانت محمداً فلا بد من مذمة ، فلو ما هونا إذا ذكر غفر ، وإياكم والتي إن أخفيت أو بقت ، وإن ذكرت أو وثقت ^(٢) » .

وهذه الخطبة لعمر بن عبد العزيز ، وهي تعبر أصدق تعبير عن زهد هذا

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٩٣ .

(٢) العقد الفريد الطبعة الأولى بالمطبعة الجاليلة بمصر ج ٢ ص ٣٦١

الخليفة وتقشفه واهتمامه بمصالح رعيته وميله الشديد للمساواة بين الناس :

« ايها الناس . إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدىً ، وإن لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وحرم جنة عرضها السموات والأرض ، واعلموا أن الأمان غداً لمن يخاف اليوم ، وباع قليلاً بكثير وفانياً بياق ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلقها من بعدكم الباقيون حتى يردّوا إلى خير الوارثين ، ثم إنكم في كل يوم تشيّعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبّه وبلغ أجله ، ثم تقيّمونه في صدع من لارض ثم تدعونه غير مؤسّد ولا ممهّد ، قد خلعت الأسباب وفارق الاحباب وواجه الحساب ، مرتهاً بعمله غنياً عما ترك فقيراً إلى ما قدّم ، وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة ، وما أعلم عند أحد منكم أكثر مما عندي فأستغفر الله لي ولكم ، وما تبلغنا حاجة يتسّم لها ما عندنا إلا سدناها ، ولا أحداً منكم إلا وددت أن يده مع يدي ، ولحّتي الذين يلوتني حتى يستوي عيشنا وعيشكم ، وأيم الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقاً عالماً بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة دلّ فيها على طاعته ونهى عن معصيته (١) » .

وهذه الخطبة التي ألقاها عبد الله بن الزبير عندما قدم عليه وفد من العراق أتى على إدارة أخيه مصعب وأطرى سياسته وكياسته ، قال :

« قد جرّبوني ثم جرّبوني من غلوتين ومن المئين
حتى إذا شابوا وشيبوني خلّوا عنائي ثم سيبوني (٢) »

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٦٨ طبعة المطبعة الجمالية بمصر ، البيان والتبيين ج ٢ ص ٦٠ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر .

(٢) الغلو : الغاية ، وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ويقال هي قدر ثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة . وسيبوني : تركوني

أيها الناس . إني قد سألت هذا الوفد من أهل العراق عن عاملهم مصعب بن الزبير ، فأحسنوا الثناء عليه ، وذكروا عنه ما أحب ، ألا إن مصعباً طي^(١) القلوب ، حتى ما تعدل به والأهواء حتى ما تحول عنه ، واستمال اللسان بثنائها ، والقلوب بنصحها ، والنفوس بمحبتها ، فهو المحبوب في خاصته ، المحمود في عامته ، بما أطلق الله به لسانه من الخير ، وبسط يده من البذل^(٢) .

وأخيراً إليك طرفاً من خطبة لأبي حمزة الأباضي أحد كبار خطباء الخوارج استعرض فيها تاريخ المسلمين من بدء الدعوة الإسلامية إلى عهده ، وأبدى رأيه في كل خليفة من الخلفاء الراشدين والأمويين ، وتكلم عن بعض العقائد الراجحة في عصره فندد بها تنديداً شديداً ، وختمها بالثناء على أصحابه واصفاً إياهم بالعبادة والزهادة ، وبالشجاعة والاستماتة في سبيل ثواب الله ورضوانه ، وما أرويه لك منها متعلق بالموضوع الأخير ، قال :

« ... يا أهل الحجاز ، أتهيرونني بأصحابي وترعون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله (ص) إلا شباباً ؟ أما والله إني لعالم بقتابكم فيما بضركم في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ، ما تركت الأخذ فوق أيديكم ، شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غصيبة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء^(٣) عبادة وأطلاح^(٤) سهر ، فنظر الله إليهم في جوف الليل منخنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شقق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلامهم بكلامهم ، كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض أيديهم وركبهم

(١) طي : استمال

(٢) شرح ابن أبي الحديد المجلد ٤ : ص ٩٢ طبعة مطبعة دارالكتب العربية الكبرى بمصر

(٣) أنضاء : جمع نضو وهو الخفيف اللحم من الثوب

(٤) أطلاح : جمع طلم وهو المهزول .

وأثرفهم وجباهم ، واستقلّوا ذلك في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، وأرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتبية بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتبية لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه وتخصبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض وانحطت إليه طير السماء ، فكم من عين في منقار طير طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كفّ زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله^(١) .

(هـ) إذا لم يخطئ ظني فأثلل التي اقتطفناها من خطب الأمويين والعلويين والزبيريين والخوارج تدل دلالة قاطعة على أن الخطابة في عهد بني أمية لم تفقد شيئاً مما كانت تمتاز به في عهد الراشدين ؛ فخطب الصدر الاول ، وخطب الأمويين وخصوصهم كلها جزلة الألفاظ حلوة التعابير ، قليلة الغريب ، جلية المقاصد والأغراض . تجمع بين الرصانة واللفظ والمتانة والانسجام . وكلها على وجه الاجمال عامرة بالسجع في غير تكلف ، حافلة بالازدواج دون أن تنقيد به ، معتدلة في استعمال المحسنات البيانية اعتدالاً تاماً ، لا تأخذ منها إلا ما جادت به البديهة عفواً ، أو جرى على اللسان دون تعمّل ولا تصنّع ، فإذا تذكرنا أن هذه الخصائص الفنية كانت أهم ما ظفرنا به ، عند دراستنا أسلوب القرآن ، تبين لنا بوضوح أن خطباء عصر القرآن على اختلاف طبقاتهم كانوا متأثرين بالقرآن أشد التأثر ، يقلدونه في أساليبه ويحذون حذوه في مختلف نزعاته البيانية ، فضلاً عن أنهم يكثرّون من التمثيل بآياته . وليس في هذا ما يبعث على الاستغراب ؛ فعنايتهم به ودراستهم له وفهمهم إياه بفضل صفاء طبيعتهم وسلامة فطرتهم البدوية ورجوعهم اليه في أمور دينهم ودنياهم ، كل ذلك يجعل تأثيرهم به إلى هذا الحد أمراً طبيعياً .

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١١ ، طبعة مطبعة الفتوح بمصر

الفصل الثالث

الكتابة الإنشائية في عصر الفرائه

أ - الاجماع على أن عبد الحميد بن يحيى أستاذ هذه الصناعة الأكبر، ترجمة عبد الحميد (هامش) . خصائصها الفنية المزعومة على عهده ، مناقشتها .

ب - فضل الراشدين ولا سيما عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب (رض) على صناعة الانشاء . رسالة عمر إلى معاوية في القضاء . رسالته إلى أبي موسى الأشعري في السياسة والادارة . رسالته إلى سعد بن أبي وقاص في تدبير الجيوش . أسلوب عمر الانشائي . رسالة علي إلى معاوية في طلب البيعة . رسالة أخرى من علي إلى معاوية في الجدل والمناظرة . كتابه إلى محمد بن أبي بكر بعد وفاة الأشتر . قطعة من وصية كتب بها إلى ابنه الحسن .

ج - قيمة هذه العهود والرسائل الفنية . العناصر التي تجمع بينها وبين القرآن .

د - عود إلى عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، خصائصه الحقيقية كما تمثلها رسالته إلى ولي العهد ، مثل من هذه الرسالة ، ما ينسب إلى عبد الحميد من الآثار ، خلوها من طابعه الخاص ، التجانس في رسائل علي وعمر وخطبهما ، فقدانه في آثار عبد الحميد ، شهرته : أسبابها ، بطلانها ، مكان علي وعمر من صناعة الانشاء .

(أ) يكاد يجمع مؤرخو آداب اللغة العربية في هذا العصر على أن عبد الحميد بن يحيى الكاتب^(١) إمام صناعة الانشاء في عصر صدر الاسلام ودولة بني أمية ،

(١) هو مولى فارسي لبني عمرو بن لؤي بن غالب ، يقال انه ولد في الشام ، الا أن تاريخ ولادته ونشأته مجهول . والمعروف من أمره أنه احترف تعليم الصبيان مدة من الزمن ، ثم تقلبت به الأحوال حتى صار كاتباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ويظهر أنه كان أمين سره وموضع ثقته . ومن هنا كانت شهرته . وقد صحت سيده مدة خلافته =

وعلى أنه خرج بهذه الصناعة من سذاجة البداوة إلى تفنن الحضارة ، ووضع لها أصولاً وقواعد يرجع إليها حملة الأقلام في إنشاء الرسائل الاخوانية والسلطانية ، ولذلك فانهم — أعني مؤرخي الأدب — يقتصرون على إثبات ترجمته وإيراد مثل من رسائله عند الكلام عن الكتابة الانشائية في هذا العصر ، ويكاد هؤلاء المؤرخون يجمعون كذلك على أن الكتابة الانشائية مدينة لعبد الحميد هذا بما يأتي :

- ١ - إطالة التحميدات في صدور الكتب .
- ٢ - الأسهاب في الرسائل السلطانية .
- ٣ - تنويع الخطاب تبعاً لحال المخاطب .
- ٤ - الإيجاز والاطناب مراعاة لمقتضى الحال .
- ٥ - التفنن في البدء والختام مطابقة للغرض .
- ٦ - تخير الألفاظ الفصيحة المألوفة .

== وخضر المارك التي دارت بينه وبين بني العباس . ويروى ان هذا قال له في يوم من أيام محنته ان القوم سيحتاجونك لأدبك ، فلو أظهرت الغدر بي والولاء لهم لنفعني ذلك في نفسي أو حربي ، فأبى وأنشد :

أسر وفاء ثم أظهر غدره فن لي بمنذر يوسم الناس ظاهره
وبقي مع مروان الى ان قتل . فقيل انه قتل معه ، وقيل بل اختفى وتنقل من مكان الى آخر حتى ظفر به عمال بني العباس في الجزيرة فمذبوه وقتلوه سنة ١٣٢ هـ .
وقد سئل عما يمكنه من البلاغة فأجاب : « حفظ كلام الأصيل » (رسائل البلغاء ص ١٦)
ومعنى هذا ان امامة الانشاء في صدر الاسلام ودولة بني امية ايسر لعبد الحميد كما يظن معظم المؤرخين والنقاد وانما هي للاصلح كما يقول عبد الحميد نفسه ، اي لعلي بن ابي طالب (ع)
وان عبد الحميد لم يمد من تلاميذه لا أكثر ولا اقل . على اني اؤكد ان هذا التلميذ لم يحسن تقليد استاذه في كثير من الأحيان

(١) (الوسيط) طبعة مطبعة المعارف ص (١١٥) . « تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات (ص ٦٥) الطبعة الثانية سنة ١٩١٤ (الفصل) ج ١ ص ١٦٣ طبعة مطبعة مهر سنة ١٩٣٤ .

ويخيل إليّ أن إطالة التحميدات في صدور الرسائل والافاضة في الكلام ليستا من الخصائص الفنية التي يمكن أن يتميز بها كاتبها ، فقد يكون الكلام مصدراً بحمد الله والثناء عليه ، وقد يكون مسهباً كل الاسهاب ثم لا تكون له قيمة فنية البتة ، على أن عبد الحميد لم يبتكر تصدير الكلام بالتحميدات المطولة أو المختصرة ابتكاراً ، وإنما اقتبسه من خطب عليّ بن أبي طالب (ع) ، ونظرة واحدة الى خطب الامام عليّ المثبتة في الجزء الثاني من العقد الفريد فضلاً عما هو موجود منها في نهج البلاغة وفي غيره تكفي لاثبات هذه الحقيقة الواضحة .

أما إثارة الأطناب أو الإيجاز تبعاً لمقتضى الحال ، فإنه من أبسط آداب الكلام فضلاً عن أنه لا يمكن أن يعتبر خاصية فنية لأسلوب من الأساليب . وكتب النبي (ص) كلها أو أكثرها موجزة إيجازاً تاماً تبعاً لمقتضى الحال ، ولم يكسبها هذا الإيجاز برأي أحد من النقاد قيمة فنية . ولعمر بن الخطاب (رض) وصية مطولة كتبها إلى الخليفة من بعده لم تكسبها الأطالة شيئاً من الجمال الفني .

وما يصح في تطويل الكلام واختصاره تبعاً لمقتضى الحال ، يصح في تنوع الخطاب موافقة لحال المخاطب ، فهذا التنوع في مخاطبة لا يمكن أن يعتبر عنصراً فنياً ذا قيمة . وأنت ترى أننا إذا عظمنا علماً أو أدبياً أو أيّ إنسان ذي منزلة إجتماعية كبيرة لمخاطبناه مخاطبة الجمع لا نضيف إلى ثروة اللغة البيانية شيئاً . على أن تنوع الخطاب موافقة لحال المخاطب ليس بالجديد في اللغة العربية ، ولك أن ترجع إلى ما ذكرنا من خطب عليّ بن أبي طالب (ع) في الفصل السابق لترى أنه يخاطب الناس بلهجة الناصح الشفوق في خطبة ، وبلهجة الناقد الساخط المتبرّم في أخرى ، وسترى هذا التنوع في الخطاب تبعاً لحال المخاطب ظاهراً كل الظهور فيما سنورد من كتبه إلى أوليائه وإلى أعدائه ، وليس هذا مما يمتاز به عليّ بن أبي طالب في خطبه وكتبه ، بل إنه شائع في خطب الراشدين ورسائلهم وفي كلام

غيرهم من أعلام البيان في القرن الأول للهجرة . ولم يأت عبد الحميد في افتتاح رسائله ولا في ختامها بشيء يستحق الذكر ، فانه يبدأها غالباً بـ (أما بعد) وينهيها بـ (السلام) ، وإذا حدث له أن أنهى بعض رسائله بصورة أخرى فانه مقدّم في ذلك لأبي بكر (رض) ^(١) واعملي (ع) الذي طالما ختم كتبه إلى معاوية بغير السلام .

أما تحيّر الألفاظ الفصيحة المألوفة وتركيبها تركيباً متيناً منسجماً فسنعرض لنصيب عبد الحميد منها عند الكلام عن حظه من الانشاء في نهاية هذا الفصل .

(ب) والغريب أن أكثر مؤرخي آدابنا لا يجهلون أن لتوابع الصدر الأول وأعلامه كالراشدين وكثير من ولاتهم وقوادهم رسائل بليغة خليقة بالعبارة والدرس ^(٢) إلا أنهم يكتفون بالإشارة إليها ولا يكلفون أنفسهم مشقة البحث عنها والعناية بها . وعندي أن ذلك عمل أقل ما يقال فيه إنه أفضى إلى جهل كثير

(١) انظر عهد أبي بكر الذي كتبه إلى أمراء خيوشه الذين نديهم لقتال أهل الردة في تاريخ الطبري طبعة لندن السلسلة الأولى المجلد الرابع ص (١٨٨٤) وبعض رسائل الامام علي القادّم ذكرها في هذا الفصل .

(٢) أقول أكثر مؤرخي آدابنا ولا أقول كلهم ، لأن ثلّة منهم في مقدمتهم الدكتور طه حسين يرون أن هذه الرسائل مكتوبة بلغة التخاطب ، وانها غير خليقة بالدرس ، واليك ما يقوله الدكتور طه حسين بهذا الشأن :

« ولكن هذه الرسائل التي كانت تكتب ، مختصرة لا يقصد منها الا مجرد الأداء ، في غير تفنن او اثاره لجمال في خاص . ومن هنا كانت هذه الرسائل قصيرة ، جملها صغيرة توشك ان تكون رموزاً ، ليس فيها هذا التفصيل او المحاولات الفنية التي نجدها عند الشعراء من حيث الألفاظ » (من حديث الشعر والنثر ص ٣٣ الطبعة الأولى سنة ١٩٣٦ م)

والواقع ان كتب النبي (ص) قصيرة مقتضبة ، الا ان هذا لا ينطبق على الكثرة الكبرى من كتب الراشدين .

من الحقائق الأدبية والتاريخية وإلى اقتراض أمور غير صحيحة وتقريرها على أنها حقائق ثابتة .

إن صناعة الأنشاء التي تمتاز بجودة المعنى وفصاحة اللفظ وجمال التأليف وبراعة الأسلوب وهي الصفات الحقيقية التي تمتاز بها صناعة الأنشاء في كل زمان وفي كل مكان وفي كل لسان أيضاً ، أقول إن هذه الصناعة موجودة منذ بداية القرن الأول للهجرة ، وأعلامها من رجال الصدر الأول كثيرون . إلا أننا قد لا نخطئ إذا لاحظنا أن علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أطولهم باعاً وأكثرهم إنتاجاً وأجودهم آثاراً .

ومع أننا لا نطمح أن ندرس هنا رسائل هذين الخلفين دراسة كافية أو قريبة من السكافية لأن ذلك يتطلب وضع سفر ضخم ، فالتنازل بها إلى المأمة تفي بدحض المزاعم القائلة إن عبد الحميد بن يحيى السكاك شيخ صناعة الأنشاء في عصر صدر الإسلام ودولة بني أمية .

فأما رسائل عمر بن الخطاب فهي كثيرة ومتنوعة بعضها في القضاء وبعضها في إدارة الشؤون السياسية والإدارية وبعضها في تدبير الجيوش . منها ما هو موجز إيجازاً تاماً ، ومنها ما هو مطول مستفيض ، إلا أن الجمال الفني شائع فيها على السواء ، إليك منها هذه الرسالة التي كتبها إلى معاوية في القضاء :

« أما بعد فاني كتبت إليك بكتاب في القضاء لم آلك ونفسي فيه خيراً . إزم خمس خصال يسلم لك دينك وتأخذ فيه ^(١) بأفضل حظك : إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبيئة العادلة واليمين القاطعة ، وأدن الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه ، وتهمد الغريب فانك إن لم تهمله ترك حقه ورجع إلى أهله ، وإنما ضيع

(١) هكذا في البيان والتهيين طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر وربما كان الصواب «منه» .

حقه من لم يرفق به . وآس بينهم في لحظك وطرفك وعليك بالصلح بين الناس
 ما لم يستبين لك فصل القضاء^(١) .

وهذه الرسالة التي كتبها إلى أبي موسى الأشعري في تدبير الشؤون السياسية
 والإدارية :

« أما بعد فإن للناس نفرة عن سلطانهم فاحذر أن تدركني وإياك عمياه
 مجهولة ، وضغائن محمولة ، وأهواء متبعة ، ودنيا مؤثرة . أقم الحدود ولو ساعة من
 النهار وأخف الفساد واجعلهم يدأ يدأ ورجلاً رجلاً^(٢) وإذا كانت بين القبائل
 نائرة^(٣) فنادوا يا آل فلان ، فإنما تلك نخوة من الشيطان ، فاضربهم بالسيف حتى
 يغيثوا إلى أمر الله ، وتسكون دعواتهم إلى الله والأسلام . واستدم النعمة بالشكر
 والطاعة بالتألف والمقدرة ، والنصرة بالتواضع والمحبة للناس . وبلغني أن ضبة
 تنادي يا آل ضبة والله ما علمت ساق الله بها خيراً قط ، ولا صرف بها شراً .
 فإذا جاءك كتابي هذا فأنهمكم عقوبة حتى يتفرقوا إن لم يفقهوا ، والصق بغيلان
 بن خراشة من بينهم ، وعد مرضى المسلمين واشهد جنازتهم ، وياشر أمورهم
 وافتح بابك لهم ، فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً . وقد بلغ
 أمير المؤمنين أنه فشت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك
 ليس للمسلمين مثلاً ، فإياك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة ههما في السمن والسمن
 حتفها ، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته » وأشقى الناس من يشقى به
 الناس والسلام^(٤) »

(١) البيان والتبيين (ج ٢ ص ٧٥) طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر ،

(٢) أي اقرن بعضهم إلى بعض

(٣) النائرة : الهياج

(٤) المقدم الفريد (ج ١ ص ٤٦) طبعة المطبعة الجمالية بمصر . البيان والتبيين

(ج ٢ ص ١٥٥) طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر ،

ولعل أطول رسائله الحربية وأجمعها تختلف الوصايا وشتى النصائح هذه الرسالة التي كتب بها إلى سعد بن أبي وقاص (بطل القادسية) عندما ندبه لغزو مملكة فارس ، وهذه هي :

« أما بعد فاني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى السكينة في الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون لمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فان استوتينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا تنصر عليهم بفضلنا لم تغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظاً من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله ، وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شرّ منا ، قلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم شرّ منهم كما سلط على بني إسرائيل (لما عملوا بمساخط الله) كفار الجوس ، فحاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً . واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، وأسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم ، وتروّق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم (والسفر لم ينقص قوتهم) فانهم سائرون إلى عدو مقيم ، حامي الأنفس والكرام^(١) ، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ، ويرمّون^(٢) أسلحتهم وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها

(١) الكرام : من كل شيء طرفه ، واسم يجمع الخيل .

(٢) رمه ، برمه : أصاحه

من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا يرزأ^(١) أحد من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة
وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتوآؤهم خيراً ،
ولا تستنصروا على أهل الحرب اظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو
فأذك^(٢) العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب
أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك
خبره وإن صدقك في بعضه ، والغاش عين عليك وليس عيناً لك ، وليكن منك
عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع
السرايا أمدادهم ومرافقهم وتبغ الطلائع عوراتهم ، وتنق للطلائع أهل الرأي والبأس
من أصحابك ، وتخبرهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من
رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلال ، ولا تخص بها أحداً
بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حايت به أهل خاصتك ، ولا تبعثن طليعة
ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أوضيعة ونكابة ، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك
أقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم المناجزة
مالم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها
كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك ، ثم أذك^(٣) أحراسك على عسكرك وتيقظ
من البيات جهدك ، ولا تؤت بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنه لترهب به
عدو الله وعدوك ، والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم ،
والله المستعان . » ^(٣)

(١) رزأه ماله : أصاب منه شيئاً

(٢) أذكى عليه العيون : أرسل عليه الطلائع

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٦٧ طبعة المطبعة الجاليلة بمصر .

وبعد ، ألا ترى أن عمر (رض) كتب رسائله هذه بطريقة فنية فآثر لفظاً على آخر وجلة على سواها وتجنب ما يمجج السمع ويأباه الذوق السليم تجنباً دقيقاً ؟ ألا ترى أنه يعمد إلى الإيجاز مرة والأطناب تارة تبعاً لمقتضى الحال ؟ ألا ترى أنه ينجح إلى الخيال أحياناً فيشبه العامل النهمك بجمع المال بـ « البهيمة هما في السمن والسمن حننها » ؟ وما يأتيه أفراد الجيش من آثام ومنكرات بالجنود المحاربة لهم ؟! غير أنه يرى أن الأولى أشد ضرراً وأعظم خطراً عليه من الثانية . وأخيراً ألا ترى أنه يصطنع في رسائله هذه أسلوباً قوياً سمحاً قوامه فصاحة اللفظ وشدة الأسر وسلامة الأداء وقلة المبالاة بالزخرف البياني إلا ما جاء منه عفواً ؟!

إذا كنت ترى هذا كله في رسائل عمر وهو ما لا يخامرني فيه شك فلنحاول أن نقيمه في رسائل علي بن أبي طالب التي آن لي أن أقتطف لك مثلاً منها . قال في رسالة كتب بها إلى معاوية بعد وقعة الجمل :

« سلام عليك ، أما بعد ، فإن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت في الشام ، لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضا ، وإن خرج عن أمرهم خارج ردوه إلى ما خرج عنه ، فإن أبي قاتلوه على اتّباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصله جهنم وساءت مصيراً . وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتهما وكان نقضهما كردهما فجاهدتهما بعدما أعذرت إليهما حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحب الأمور إليّ قبولك العافية ، وقد أكرمت في قلة عثمان فإن أنت رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ثم حاكت القوم إليّ حملتك وإياهم على كتاب الله . وأما تلك التي تريدها فهي خدعة الصبي عن اللبن . ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك

لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان . . . الخ» (١)

وكتب إليه :

« أما بعد فقد أتانا كتابك ، كتاب امرئ ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبعه ، زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خفري لعثمان ، ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلالة ولا ليضر بهم بالعمى ، وما أمرت فلزمتني خطيئة الأمر ، ولا قتلت فأخاف على نفسي قصاص القاتل . وأما قولك إن أهل الشام حكام أهل الحجاز فهات رجلاً من قريش الشام يُقبل في الشورى أو تحلّ له الخلافة ، فإن سميت كذّ بك المهاجرون والأَنْصار ، ونحن نأتيك به من قريش الحجاز . وأما قولك إُدفع إليّ قتلة عثمان فما أنت وذلك وههنا بنو عثمان وهم أولى بذلك منك ، فإن زعمت أنك أقوي على طلب دم عثمان منهم فارجع إلى البيعة التي لزمتهك وحاكم القوم إليّ . وأما تمييزك بين أهل الشام والبصرة وبينك وبين طلحة والزبير فلعمري فما الأمر (٢) هناك إلا واحد لأنها بيعة عامة ، لا يتأتى فيها النظر ولا يستأنف فيها الخيار ، وأما قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدي في الاسلام ، فلو استطعت دفعته لدفعته » (٣).

وكتب إلى محمد بن أبي بكر بعد وفاة الأشتر يقرّه على عمله بمصر ويسرّي عنه ما علق بخاطره . بسبب إرسال الأشتر إلى مصر لتسلم زمام الحكم بها بدلاً منه .

(١) العقد الفريد (ج ٣ ص ١٠٦) طبعة المطبعة الجاللية بمصر

(٢) هكذا في العقد الفريد ، وربما كانت (ما الأمر) .

(٣) العقد الفريد (ج ٣ ص ١٠٧) طبعة المطبعة الجاللية بمصر

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر . سلام عليك . أما بعد ، فقد بلغني موجدتك من تسريحي الأشر إلى عملاك وإني لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهاد ، ولا ازدياداً مني لك في الجدد ، ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لو كنت ما هو أبسر عليك في المؤونة وأعجب إليك ولاية منه . إن الرجل الذي وليته مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً ، وقد استكمل أيامه ولاقي حمامه ، ونحن عنه راضون ، فرضي الله عنه وضاعف له الثواب ، وأحسن له المآب ، إصبر لهدوك وشمرك للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه ، يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك ، أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلا برحمته ، والسلام عليك ^(١) . »

فواضح أن هذه الكتب الثلاثة تشاطر رسائل عمر السالف ذكرها فصاحة اللفظ ودمايته وجمال التعبير وبساطته ودقته وانسيجانه وإن كانت أميل منها إلى السجع والازدواج وأشد استعمالاً للمحسنات البيانية . وقد لاحظنا مثل هذا عند الكلام عن خطب علي ، والمصدر واحد وهو طبيعة علي بن أبي طالب الشعرية . وكما أبحث لنفسي أن أروي لك مثلاً من خطب علي الممتازة التي تفرّد بروايتها نهج البلاغة بعد أن أطلعتك على أسلوبه الخطابي عن غير طريق هذا الكتاب أيسح لنفسي الآن كذلك أن أروي لك مثلاً من رسائله الممتازة التي تفرّد بروايتها نهج البلاغة أيضاً ، بعد أن أطلعتك على أسلوبه الكتابي عن غير طريق نهج البلاغة . قال في وصية كتب بها إلى ابنه الحسن :

« إحمل نفسك من أخيك عند صرمة على الصلة ، وعند صدوده على اللطف والمقاربة ، وعند جموده على البذل ، وعند تباعده على الدنو ، وعند شدته على

(١) تاريخ الأمم والملوك طبعة ليدن السلسلة الأولى المجلد السادس (ص ٣٣٩٥)

اللين ، وعند جرمه^(١) على العذر ، حتى كأنك له عبد ، وكأنه ذو نعمة عليك ، إياك أن تضع ذلك في غير موضعه ، أو أن تفعله بغير أهله . لا تتخذنَّ عدوَّ صديقك صديقاً فتعادي صديقك ، واحض أخاك النصيحة حسنة كانت أم قبيحة ، وتجرّع الغيظ فاني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ، ولا ألد مغبة ، ولن لمن غالطك فانه يوشك أن يلين لك ، وخذ على عدوك بالفضل فانه أحلى الظفرين . وإن أردت قطعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها إن بدا له ذلك يوماً ما ، ومن ظن بك خيراً فصدّق ظنه . ولا تضعين حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه فانه ليس لك بأخ من أضعت له حقه . ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك ، ولا ترغبن فيمن زهد فيك ، ولا يكونن أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته ، ولا تكونن على الأساءة أقوى منك على الاحسان ، ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك فانه يسعى في مضرته ونفعك ، وليس جزاء من سرّك أن تسوّه . واعلم يا بني أن الرزق رزقان ، رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فان أنت لم تأته أتاك . ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى ، إن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، وإن جزعت على ما تفاتت من يديك فاجزع على كل مالم يصل إليك ، إستدل على مالم يكن بما قد كان ، ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة ، إلا إذا بالغت في إيلاّمه ، فان العاقل يتعظ بالآداب ، والبهايم لا تتعظ إلا بالضرب .. الخ^(٢)»

(ج) أظن أنه لا نزاع في أن اليهود والوصايا والكتب التي أثبتناها هنا ، والتي اقتطفنا مثلاً منها من أفضل ما كتب في اللغة العربية ، ليس فقط في عصر القرآن بل وفي كل عصر من العصور الاسلامية ، فليس من شك في أنها من أسمى مثل البلاغة الصحيحة العالية التي تستمد روعتها من سمو الفكر وصفاء الشعور

(١) الجرم هنا : الذنب صغيراً كان ام كبيراً .

(٢) شرح ابن أبي الحديد المجلد الرابع طبعة مطبعة دار الكتب الكبرى ص ٣٩ = ٤٣

وفصاحة الألفاظ وجمال الأداء ، ومن الاقتصار على القدر المعقول من المحسنات البيانية . وهذه العناصر الأخيرة - أعني فصاحة المفردات وجمال تركيبها والاكتفاء من الزخارف البيانية بالقدر الذي يسمح به الطبع ولا يتكلفه الذهن - هي التي تجمع بين رسائل الراشدين وعهودهم وبين القرآن ، كما جمعت بينه وبين خطبهم .

(د) والآن لنخرج على عبد الحميد لنلمّ به إمامة قصيرة تتبين فيها خصائص فنه ومزايا إنشائه . وعندني أنه مطيل إلى درجة الاملال ، يطرق الموضوع ويبدى رأيه فيه ، ثم يعود إليه في الرسالة نفسها فيكرّر ما قاله تكررًا يدعو إلى السأم ولا يفضي إلى فائدة مطلقًا . وهو شديد التسكّف ، كثير التعمّل ، يخونه الطبع ولا تؤاياه الصنعة في كثير من الأحيان . وهالك البرهان على ذلك من (رسالته الكبرى) التي كتبها بالنيابة عن مروان بن محمد إلى وليّ عهده عندما نذبه لحرب الضحّاك بن قيس الذي خرج بالجزيرة سنة تسع وعشرين ومائة للهجرة ، قال : « أما بعد ، فإن أمير المؤمنين عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدوّ الله الجلف الجافي الأعرابي المتسكّم في حيرة الجمالة وظلم الفتنة ومهاوي الهلكة ورعاة الذين عاثوا في الأرض فساداً وانتهكوا حرمة استخفافاً وبدلوا نعم الله كفرًا واستحلوا دماء أهل سلمه جهلاً أحب أن يعهد إليك في لطائف أمورك وعوامّ شؤونك ودخائل أحوالك ومضطر تنقّلك^(١) عهداً يحمّلك فيه أدبه ويشرّع لك عظمته . وإن كنت والحمد لله من دين الله وخلافته بحيث اصطنعت الله لولاية العهد مخصصاً^(٢) لك بذلك دون لحتك وبني أيك .

(١) رغبة في لفت الأنظار بسهولة إلى مواطن الشذوذ والمعجمة في هذه الرسالة سأضع تحت كل جملة مثل هذه خطأ يجلب لها الانتباه .

(٢) الصحيح : خاصاً أياك

ولولا ما أمر الله به دالاً عليه بتقدمة المعرفة لمن كانوا أولي سابقة في الدين
وخصّص في العلم لاعتمد أمير المؤمنين منك على اصطناع الله إياك بما يراك أهله
في محلك من أمير المؤمنين وسبقك إلى رغائب أخلاقه وانزاعك محمود شيمه
واسقلائك على تشابه تدبيره .

ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم ولقّنوه إلهاماً من تلقائهم ولم
يتعلموا شيئاً من عند غيرهم لنحلناهم علم الغيب ووضعناهم في منزلة خالقهم المستأثر
بعلم الغيب عنهم بوحدا نيته وفردانيته في إلهيته واحتجاجاً منهم لتعقب في حكمه
وتثبت في سلطانه وتنفيذ إرادته على سابق مشيئته . ولكن العالم المؤمن للخير
التحصوص بالفضل المحبوب بمزية العلم أدركه معاداً عليه بلطف بحته وإذلال كنفه
وصحة فهمه وهجر سأمته . وقد تقدم أمير المؤمنين إليك أخذاً بالحجة عليك مؤدياً
حق الله الواجب عليه في إرشادك وقضاء حقاك وما ينظر المغني الوالد الشفيق
لولده . وأمير المؤمنين يرجو أن ينزّهك الله عن كل شيء قبيح يهش له طمع
وأن يعصمك من كل مكروه حاق بأحد وأن يحصنك من كل آفة استولت على
أمرىء في دين أو خلق وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل يعودده ويريه من آثار
نعمة سامية بك إلى ذروة الشرف ومنجحة لك ببسطة الكرم لائحة بك في أزهر
معالي الأدب . والله أسخلف عليك وأساءله حياطتك وأن يعصمك من زيف
الهوى ويحضرك دواعي التوفيق معاناً على الإرشاد فيه فانه لا يعين على الإرشاد
ولا يوفق إلا هو .

إعلم أن للحكمة مسالك تفضي مضائق أوائلها بمن أمها سالكاً وركب
خبارها قاصداً إلى سعة عاقبتها وأمن سرحها وشرف عزها وأنها لا تعاف
بسخف الخلفة ولا تنسى بتفريط الغفلة ولا يتعدى فيها بأمن حد .. الخ (١) !!

(١) رسائل البلقاء (ص ١٣٩) طبع مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر سنة ١٩١٣

يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ هَذَا (الانزعاج لمحمود الشيم) وذلك (الاستيلاء على تشابه
التدبير) مع الاستئثار (بالوحدانية والفردانية في الأهمية) إلى غير ذلك مما أشرت
إليه إشارة صامتة، مظاهر عجيبة صريحة وإن شئت فقل فظيعة لا تقبل الجدل. أما
التكرار بلا فائدة فإنه ظاهر فيما اقتبست من هذه الرسالة كل الظهور، ومع ذلك
أحب أن آتي بمثل أخرى من هذا العهد للبرهنة على ولع عبد الحميد الغريب
بالتكرار: قال ينصح وليّ العهد بعدم الأصغاء إلى أقوال السعاة والوشاة:

«واعلم أن أقواماً سيسعون اليك بالسعاية ويأتونك من قبل النصيحة
ويستميلونك باظهار الشفقة ويستدعونك باظهار الاغراء والشبهة ويوطئوك عشوة
الحيرة ليجعلوك لهم ذريعة لـ استئصال العامة بموضعهم منك في القبول منهم
والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة أو أسرعوا بك في أمره إلى الظنة، فلا يصلن
إلى مشافهتك ساعٍ بشبهة ولا معروف بتهمة ولا منسوب إلى بدعة فيعرضنك
لابتداع في دينك. ويحمّلك على رعيّتك مالا حقيقة فيه ويحمّلك على أعراض
قوم لا علم لك بدخلهم إلا بما أقدم به عليهم ساعياً وأظهر لك منهم متنصحاً.»^(١)

وبعد سرد نصائح كثيرة مختلفة وعظات عديدة متنوعة يعود عبد الحميد إلى
هذا الموضوع فيوصي وليّ العهد بما يأتي: «وامنع أهل بطانتك وخاص خدمك
وعامة رعيّتك من استلحاح أعراض الناس عندك بالغيبة والتقرب إليك بالسعاية
والاغراء من بعض ببعض والتميمة إليك بشيء من أحوالهم المستترة عندك أو
التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة. فانه أبلغ سحواً إلى مثال
الشرف وأعون لك على محمود الذكر وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي،

(١) رسائل البلاط (ص ١٤٤) طبع مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر

وشرف الهمة وقوة التدبير» (١)

ومن أمثلة هذر عبد الحميد - استغفر الله - بل ميله الشديد إلى الابانة والايضاح نصيحته المتكررة لتلميذه بالتماس الظفر عن طريق المكيدة ؛ فهو يقول له في ذلك :

« اعلم أن الظفر ظفران أحدهما أعمّ منفعة وأبلغها في حسن الذكر قالة وأحوط سلامة وأتمه عافية وأعوذه عاقبة وأحسن في الامور مورداً وأصححه في الرواية حزماً وأسهله عند العامة مصدراً ما نيل بسلامة الجنود وحسن الحيلة ولطف المكيدة وعين النقيبة بغير أخطار الجيوش في وقدة جمرة الحرب ومنازلة الفرسان في معترك الموت .. الخ » (٢)

وبعد أن يطر ولي العهد المسكين وابلاً من النصائح الجافّة يعود إلى هذا الموضوع فيقول :

« إعلم أن أحسن مكيدتك في العامة أثراً وأبعدها صوتاً في حسن القالة ما نلت الظفر فيه بحسن الروية وحزم التدبير ولطف الحيلة ، فلتكن روبيتك في ذلك وحرصك على إصابته لا بالقتال وأخطار التلف » (٣) .

إن هذه النبذ التي اقتبسناها من أطول رسائل عبد الحميد وأجمعها لأحسن كلامه تدل دلالة قاطعة على أننا لم نظلمه عندما نعتناه بجفاف الطبع وثقل الأسلوب وردامة اللغة . وفي صبح الأعشى وغيره من المصادر التي عانيت بعبد الحميد رسالة يزعم الرواة أنه كتبها إلى زملائه في الكتابة يوصيهم فيها بما يصاح من أحوالهم ويرفع من شأنهم لا أشك في أنها منجولة صنعها أحد كتاب الفرس في مصدر

(١) رسائل البلاغة (ص ٤٦ ، ١) طبع مطبعة دار الكتب المصرية الكبرى بدمر سنة ١٩١٢

(٢) المصدر نفسه (ص ١٥٠) .

(٣) المصدر نفسه (ص ١٩٣) .

الدولة العباسية ونحلها عبد الحميد ، وذلك لأنها تحمل طابعاً غير طابعه . وتمثل أسلوباً غير أسلوبه .

إن أسلوب عبد الحميد كما تمثله لنا رسالة وليّ العهد أسلوب رجل أجنبي لم تثبت قدمه بعد في اللغة التي يكتب بها ، يحفظ الألفاظ ولكنه لا يحسن استعمالها كما أنه لا يحسن تأليفها ويقلد فحول الخطباء والكتاب ولكنه لا يحسن تقليدهم . وليس في هذا ما يبعث على الاستغراب فإن الرجل من أوائل المستعربين ، ولم يتعلم اللغة لأنه يدرك سر جمالها ويتذوق طرائف آدابها وإنما تعلمها طلباً للرزق ، ومن الثابت أنه احترف تعليم الصبيان مدة من الزمن .

أما رسالة الكتاب فانها تمثل أسلوب رجل حسن الامام باللغة مطبوع على التكلم بها قد ورثها ونشأ في بيئة تتكلمها . وأنا أقتطف لك مثلاً من هذه الرسالة لتبين مبلغ الفرق بينها وبين رسالة وليّ العهد من حيث اللغة والأسلوب . قال كاتب الرسالة :

« أما بعد ، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ، فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً ، وإن كانوا في الحقيقة سواء ، وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم ، وأبواب أرزاقهم ، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات ، أهل الأدب ، والمروءة والعلم والرواية ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها ، وبصنائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمر بلادهم ، لا يستغني الملك عنكم ، ولا يوجد كافٍ إلا منكم ، فوقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يعطشون . فامتكم الله بما

خصّكم من فضل صناعتم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم»^(١)
وقال :

« ثم أجيّدوا الخط فانه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها
ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأجاديثها وسيرها ، فان ذلك معين لكم على
ما تسمو إليه هممكم . ولا تضيعوا النظر في الحساب فانه قوام كتاب الخراج
وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها ، وسفساف الامور ومحقرها^(٢) ، فانها
مذلة للرقاب مفسدة للكتّاب . »^(٣)

أقترى أن لغة هذه الرسالة نفس اللغة التي استخدمت في رسالة وليّ العهد؟
وأسلوبها ، نفس الأسلوب الذي اصطنع في تلك الرسالة ؟ ! أليس من المعقول
أن نفترض أن كاتباً فارسياً وضع هذه الرسالة وحملها على عبد الحميد إرضاء لعصبيته
وتنويهاً بأثر بني قومه في لغة الضاد ؟ ! وليست (رسالة الكتّاب) وحدها مضافة
لعبد الحميد بل إن هناك رسالة أخرى زعموا أنه كتبها إلى والٍ متمرد لا أشك
في أنها منحولة أيضاً ، لأنها لا تتفق وما نعرف من آثار عبد الحميد في شيء ،
إليك مثلاً منها :

« أما بعد ! بلغني كتابك تذكر أنك تحمل الرد على الجرد ، فسيرد عليك
جنود الله المقرّبون وأولياؤه الغالبون ، ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٨٥ طبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٣١ هـ ١٩٣٠ م
ورسائل البلغاء ص ٧٢ طبعة مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر سنة ١٩٣١ هـ
١٩١٣ م .

(٢) الواقع ان الكتّاب لم يكن بحاجة لهذه الجملة بعد أن أوصى الكتّاب أن يرغبوا
بأنفسهم عن المطامع (سنيّها ودنيّها) على أن (محقر) كلمة نائية .

(٣) صبح الأعشى ج ١ ص ٨٦ ورسائل البلغاء ص ١٧٤

السكران ، على الفحول ، كأنها الوعول ، تخوض الوحول ، طوال السبال تختضب
بالجريال ، رجال هم الرجال ، بين راح وناشب ، ليس معهم إلا كلب محارب ،
ولا ينكلون عن الأصحاب . قد ضروا بضرب الهام واعتادوا السكر والافدام ،
ليسوا بذوي هينة ولا إحجام .. الخ .. الخ»^(١)

المعروف أن عبد الحميد صاحب ترسل لا يحفل بالسجع ولا يتقيد بالازدواج
فأين مكان الترسل من هذه الرسالة ؟ ! إنك إذا تأملت رسائل عمر بن الخطاب
التي أوردتها في هذا الفصل رأيت أنها متجانسة كل التجانس ، مقشاة كل
القشابة ، ومثل هذا يقال عن رسائل علي بن أبي طالب التي تقدم ذكرها أو التي
رويت لك شيئاً منها بل إنك تستطيع أن تذهب إلى أبعد من ذلك فتقرر أن
كتب كل من هذين الخليفين وخطبه تشابه تشابهاً كلياً وتتجانس تجانساً كبيراً ،
فروع التفكير في الجميع واحد ، واللغة واحدة ، والأسلوب واحد . وقد سألت
نفسى وأنا أدرس رسائل هذين الخليفين وخطبهما ، ترى ، ماذا يكون الجواب
لو أن باحثاً افترض أن هذه الخطب وتلك الرسائل منحولة منحولة على الرجلين ؟ !
فأجبت : إنها إن كانت كذلك فقد وضعت وضعاً محكماً فتشابهت وتجانست وانسجم
بعضها مع بعض ، ومثلت إلى حد لا بأس به أسلوب القرآن الذي كان مسيطراً
على ذلك العصر . وبذلك أصبح قبولها على أنها من آثار هذين الخليفين أمراً
معقولاً إلى الغاية .

هذا هو مبلغ الانسجام في رسائل علي وعمر وخطبهما ، فهل تحسّ انسجاماً
كهذا أو قريباً منه في آثار عبد الحميد أو في الآثار المروية لعبد الحميد ؟ ! إلا
تناقض هذه الآثار تناقض الأبيض والأسود وتباين تباين المستقيم والمعوج ؟ !
وإذا كانت كذلك ، وهي كذلك من غير شك ، فهل من الصواب أن نتخذ

من عبد الحميد إماماً لصناعة الأنشاء في عصر من أرقى عصور الأدب العربي وأجأها شأنًا ؟ ألسنا نظلم الأدب في هذا ظلمًا فاحشًا ونسيء إلى العلم إساءة لا تغفر ؟ !

وهنا لابدّ لك من السؤال عن السبب الذي قامت عليه شهرة عبد الحميد ، أهو علوّ مركزه السياسي ؟ أم الدعاية ؟ أم تمصّب الفرس بعضهم لبعض ؟ وعندني أن هذه الأسباب كلها تهيأت لعبد الحميد . فقد كان عظيم دولة مروان بن محمد وأمين سرّه وموضع ثقته ، وهذا وحده كافٍ لحلّ الناس على تماقه والتزلف إليه إلى أبعد حدّ مستطاع . وقد رأينا كيف سبق شوقي أقرانه بفضل مركزه في بلاط مصر مع أن بينهم من هو خير منه بكثير . وكان فارسيّاً ولم يفعل متعصبوا الفرس في صدر الدولة العباسية وسائر عصورها عن التّطيل والتّزوير له ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .

ويتبيّن من كل ذلك أن شهرة الرجل لم تقم على أساس صحيح و (أن الكتابة لم تبدأ به) (كما أنها لم تختم بابن العميد) وأن زعامة الأنشاء في عصر القرآن إن كانت لأحد فإما هي لعلي بن أبي طالب ثم لعمر بن الخطاب من بعده .



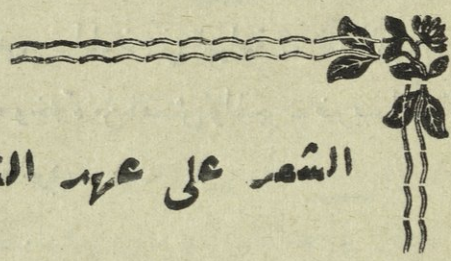
الباب الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل في خلقه
مناجاة لكل ذي شأن

والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله

والله اعلم بالصواب



الشعر على عهد النبي والراشدين

الحمد لله الذي جعل في خلقه
مناجاة لكل ذي شأن
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله
والله اعلم بالصواب

هال الشعر منه فجر الدعوة الإسلامية الى مقتل علي بن أبي طالب

— 0 —

أ : مناوئته - أسبابها .

ب : مؤازرته - دواعيها .

ج : خصائصه - التحدث عن الدين - الخوض في السياسة - قلة المديح وغلبة الاعتدال عليه - قلة الهجاء وخلوه من الفحش والهجر - ضرب الأمثال .

د : مكان المخضرمين من الأدب العربي .

ه : عبث الزواة بشعر المخضرمين .

(أ) قلت لك عند الإشارة إلى النثر الجاهلي إنه قد ضاع بسبب عجز الذاكرة عن حفظه ، وأقول لك الآن إن أكثر الشعر الجاهلي قد ضاع أيضاً ولنفس السبب ؛ إلا أن بقية لا بأس بها بقيت لنا منه كان لها الأثر الأول في توجيه عقول شعرائنا وقرائهم إلى عهد غير بعيد . وما أريد أن أحدثك عما لهذه البقية من خصائص ومميزات وعمما لها من قيمة أدبية واجتماعية فذلك شيء فعلته في (عبث الشعر الجاهلي) . ولكنني محدثك عما لقي الشعر من كساد ورواج ، وتثييط وتشجيع في أيام النبي والراشدين : فقد مرت به في تلك الفترة من الزمن أدوار مختلفة وأطوار متباينة ، رأى فيها الإدبار والاقبال وعرف المناوئة القويّة والمؤازرة القويّة كذلك .

فقد حمل الإسلام في أوائل عهده على الشعراء حملة عنيفة ، وصفهم فيها بالكذب والغواية ومخالفة الحقيقة فيما يصفون ويصورون : « بسم : والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ^(١) » ولهذا الحملة العنيفة على الشعر وأهله أسباب عدة : أحدها أنه - أي الشعر - لسان العصبية القبلية التي مزقت شمل العرب وخلقت منهم مجموعة قبائل يغزو بعضها بعضاً ويقتل بعضها بعضاً . وليس من شك في أن القضاء على هذه العصبية وتوحيد كلمة العرب وتكوين أمة كبيرة منهم تدافع عن الحق والعدل في مقدمة الأغراض التي رمى إليها الإسلام . ثانيها : أن المغامرات الغرامية ومعاورة الخمر والفخر بالأنساب وما إلى ذلك هي المنايع التي تمد الشعر بمعين الخيال والاحساس والعاطفة الذي لا ينضب ، وقد حرّم الإسلام هذا كله وعاقب على بعضه كشرب الخمر عقوبة صارمة . ثالثها : أن قريشاً وصفت النبي بأنه شاعر ، والقرآن بأنه شعر . وقد ردّ القرآن على هذا بقوله : « بسم : وما علمناه الشعر وما ينبغي له ^(٢) » . وعلى هذا ضرب الإسلام على أيدي الشعراء وغضّ من شأن الشعر وحطّ من قدره .

(ب) ولكن الأحوال ما لبثت أن دعت إلى تغيير موقف الإسلام من الشعر في شيء غير قليل من التحفظ . فقد شنّ شعراء قريش وفي مقدمتهم عبد الله بن الزبير وعمر بن العاص وأبو سفيان بن الحارث ، على النبي وأصحابه حرباً شعواء عن طريق الهجاء آذت النبي وبلغت منه . ولم يكن بدّ من الأجابة على هذه الحملة بمثلها ، وحرّض النبي أصحابه على الدفاع عنه : « ما يمنع القوم الذين

(١) القرآن الكريم (الشعراء)

(٢) القرآن الكريم (يس)

نصروا رسول الله (ص) بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم^(١) » ؟ .
 فطوع للقيام بهذا العمل الخطير ثلاثة نفر من الأنصار ، هم كعب بن مالك
 وعبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت . وكان الأخير أكبرهم شأنًا وأشيعهم
 ذكرًا وأسيرهم شعراً . وبلغ من تشجيع النبي لهذه الحركة أن قال لحسان ، وهو
 يشير إلى قريش : « أهجم وجبريل معك^(٢) » .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن النبي أمر حسان أن يلقي أبا بكر ،
 وهو نسيابة قريش ، ليدلّه على عوراتها . ومضت هذه الحملة في طريقها فأذت
 قريشًا وبلغت منها . ثم مرت الأيام وانتهى ذلك النضال الأدبي والمادي الذي
 كان دائرًا بين النبي وقريش بظفره عليه السلام واستيلائه على مكة ودخول
 قريش في دينه . ولم تبق من حاجة لتشجيع الشعر والتحريض على نظمه دفاعاً عن
 النبي وأصحابه . ولكنه - أي الشعر - بقي في المكان الذي وضعه به النبي عندما
 قال لحسان : « أهجم وجبريل معك » ومات النبي (ص) وشغل خلفاؤه عن
 الشعر وما يجري مجراه لأمر خطيرة ، أهمها : قمع حركة الردّة، وفتح فارس وبلاد
 الروم . ولكن الشعر ظل محافظاً على ما له من المنزلة في نفوس القوم ، وفي حادثة
 الحطيئة مع الزبرقان بن بدر وبغيض بن قريع دلالة قاطعة على صحة ما نقول . فقد
 عرض الزبرقان على الحطيئة أن يعوله ويضمن له كامل رزقه تحبباً له والتماساً لمديحه .
 وعرض عليه بغيض ضيافة أوفى وأتم للغرض نفسه^(٣) . ورفع الحطيئة بني أنف
 الناقة من منزلتهم الخاملة إلى مكانة مرموقة بين العرب ببیت واحد من الشعر
 هو قوله :

(١) الأغاني ج ٤ ص ٤ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٢) (المصدر نفسه) ص ٤

(٣) الأغاني ج ٢ ص ٥٠ — ٥٢ طبعة مطبعة التقدم بمصر

قوم هم الرأى والأذئاب غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا^(١)
 وصحيح أن الخلفاء الراشدين لم يتخذوا الشعراء ليسجلوا مآثرهم ويخلدوا
 موافقهم ولكنهم كانوا يروون الشعر ويتذوقونه وينقدونه . ومع أن عمر أشدهم
 على الشعر وأهله فقد روي عنه أنه قال : « رَوِّا أولادكم ما سار من المثل
 وحسن من الشعر »^(٢).

وصفوة القول أن الاسلام أعرض عن الشعر وناوأه في أول عهده ، ولكنه
 ما لبث أن أقبل عليه فأخذ بضبعه ورفع من شأنه . ولئن كان النبي (ص) قد
 قال : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً »^(٣) . لقد
 قال أيضاً : « إن من الشعر لحكمة »^(٤)

(ج) وأبرز خصائص الشعر في هذا العهد التحدث عن الدين والخوض
 في السياسة وقلة المديح وغلبة الاعتدال عليه وقلة الهجاء كذلك وخلوه من
 الفحش والهجر وضرب الأمثال وإيراد الحكم والمواعظ ، فقد فتح حسان بن
 ثابت شاعر النبي (ص) باب الكلام عن الوحي وروح القدس والإيمان بالله
 ورسله وكتبه والجهاد في سبيله وبذل النفس والنفيس ابتغاء مرضاته وتبعه في
 ذلك شعراء كثيرون ، ربما كان أهمهم عبد الله بن رواحة الذي كان يعيب على
 مشركي قريش في هجائه لهم كفرهم بالله ورسوله فكان هجاؤه لذلك أهون
 هجاء عليهم في أيام شرهم فلما أسلموا كان هجاؤه أثقل هجاء عليهم وأشدّه
 وقعاً في نفوسهم .

(١) الأغاني ج ٢ ص ٥٠ طبعة مطبعة التقدم بمصر

(٢) الأدب العربي وتاريخه ج ١ ص ٩٧ : الطبعة الثانية . طبعة مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

(٣) عمدة ابن رشيقي . ج ١ ص ١٢ طبعة مطبعة السعادة بمصر

(٤) تاج العروس مادة (حكم) . وعمدة ابن رشيقي ج ١ ص ٩ طبعة مطبعة السعادة .

ولم تكن السياسة أقل شأنًا من الدين في الشعر . فقد كان الناس جميعاً يفكرون في السياسة ويتحدثون عنها ، و كان لكل حزب من الأحزاب شاعره بل شعراؤه ، كما كان لكل حزب من الأحزاب زعماءه وقواده . وكان هؤلاء الشعراء يدافعون عن الأحزاب التي ينتمون إليها دفاعاً صادقاً ويؤيدون سياستها تأييداً حاراً شأنهم في ذلك شأن الصحف التي تنطق بألسنة الأحزاب المتنازعة في هذا العصر . وأنت إذا تصفحت (تاريخ الامم والملوك) و (الكامل) في التاريخ و « مروج الذهب » وغيرها من الكتب التي عنيت بتاريخ هذه الفترة وجدتتها حافلة بهذا الشعر السياسي الذي يمثل كل رأي من الآراء وكل غرض من الأغراض ، ولا سيما في أيام الفتن والحروب الأهلية التي بدأت على عهد عثمان وانتهت بمقتل علي بن أبي طالب .

وقد قل المديح في هذا العصر لسبيين ، أحدها : رغبة الخلفاء والقواد والولاء عن المديح لأنهم لم يكونوا طلاب ثناء وإطراء وإنما كانوا طلاب أجر وثواب . وثانيها : فرض الأرزاق في بيت المال لاكثر الشعراء ، ومن بين هؤلاء حسان وليد والأغلب العجلي وغيرهم كثير . فمن أجل هذا وذاك قل المتكسبون بالمديح بين الشعراء كما قل الراغبون فيه من سراة الناس . وقد غلب الاعتدال على هذا الضرب من الشعر لسبيين كذلك : أحدها : تمسّي القوم على الفطرة ، ومعلوم أن هذه تكثره المبالغة وتمقت الغلو والاغراق . وثانيها : جريهم على ألوف العادة في مدائح العصر الجاهلي ، فقد كان الخطيئة ، أكبر شعراء المديح في هذا العصر ، تلميذ زهير بن أبي سلمى . وزهير - كما تعلم - معتدل في مديحه كل الاعتدال فلا ينتظر والحالة هذه أن يكون الخطيئة صاحب غلو وإسراف في مديحه الناس . ولك أن تعتبر هذين السبيين إذا شئت سبياً واحداً لأن اعتدال زهير وغيره من الشعراء المتكسبين بالمديح ناشى عن رجوعهم إلى الفطرة .

وكما قلّ المديح في هذا العصر وغلب عليه الاعتدال كذلك قلّ الهجاء وخلا من الفحش والهجر خلواً تاماً ، فقد قال عليه السلام « المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه »^(١) ومعنى هذا أن الشاعر المسلم لا يمكن أن يتورط في هجاء مسلم دون أن يعرض نفسه لعقوبة صارمة ، وأنت تعلم أن هجاء الخطيئة للزبرقان بن بدر كان عفيفاً كل العفة نزيهاً كل النزاهة ، ومع ذلك أراد عمر أن يقطع لسانه لولا أن الشاعر قطع على نفسه عهداً ألا يعود إلى هذا مرة أخرى . أما الشعر الحكيم فقد كان موجوداً في العصر الجاهلي ولكنه قليل جداً . فلما جاء القرآن والحديث وفيهما ما فيهما من العظات والحكم والأمثال تأثر بها الشعراء فأكثرُوا من ضرب الأمثال والامتيان بالحكم الرائعة . وفي شعر أبي ذؤيب الهذلي ومعن بن أوس وحسان بن ثابت وكعب بن زهير خير شاهد على ذلك .

د - ولكن مهما يكن من غلبة هذه الخصائص على الشعر في عصر النبي والراشدين ، فإنه لم يكن من القوة والجزالة ، أو قل من صدق التصوير وبلاغة التعبير بحيث يضارع المطولات السبع وما يجري مجراها من بليغ الشعر الجاهلي كباثية النابغة الذبياني التي مطلعها « كليني له ثم يا أميمة ناصب ... الخ » ولامية الأعشى التي مطلعها « ودّع هريرة إن الركب مرتحل » ، بل إني أذهب إلى أبعد من ذلك ، فأزعم أن المخضرمين^(٢) دون الاسلاميين^(٣) ودون الموالدين^(٤)

(١) الأدب العربي وتاريخه ج ٢ ص ٣٧ الطبعة الثانية .

(٢) المخضرم : من الشعراء وغيرهم بفتح الراء وكسرهما من نشأ في عصر وأدرك آخره ، على أن يكون قد تأثر بالعصرين .

(٣) الشعراء الاسلاميون هم الذين ولدوا بعد ظهور الاسلام وماتوا قبل قيام الدولة العباسية أي قبل اختلاط العرب بالفرس وغيرهم من الأعاجم .

(٤) يسمى مولداً كل شاعر ولد في الفترة التي تبدأ بقيام الدولة العباسية وتنتهي بالعصر الحديث .

أيضاً . فليس بينهم شاعر كعمر بن أبي ربيعة أو كثير عزة ، بل ولا كأحد أفراد المثلث الأموي . أما تخلفهم عن أبي نؤاس وأبي تمام والبحري وأضرابهم من كبار الشعراء العباسيين ، فهذا مالا يحتاج إلى بيان . ولتخلف المخضرمين عن سبقهم ومن جاء بعدهم من الشعراء سبيان ، أحدهما : أن الإسلام حرّم أكثر الأعمال والملابس التي يوجد فيها الشعر وتنشط قرائح الشعراء كشرب الخمر ومغازلة المرأة والتودد إليها بصورة غير مشروعة وإثارة الضغائن والأحقاد والتحريض على إراقة الدماء في سبيل أخذ الثار وما إلى ذلك . وثانيهما : غلبة الشيخوخة على هذا الجيل من الشعراء ، فقد أسلم حسان وعمره ستون سنة فيما يذكر الرواة ، وأسلم الخطيئة أو استسلم وهو في نحو هذه السن ، ولم يكن كعب بن زهير شاباً عندما قال : « بانت سعاد .. » أما الخنساء ، فقد كانت في حرب القادسية أي في سنة ١٤ للهجرة أم أربعة أولاد كلهم جندي محارب . ومعنى هذا أن الرعيل الأول من الشعراء المخضرمين كان مؤلفاً من أفراد شاخوا وهرموا أو بعدوا عن عصر الشباب على أقل تقدير . وأنت تعلم أن العقل القوي في الجسم الفتي ، وأن انحطاط قوى العقل نتيجة لازمة لانحطاط قوى الجسم . (هـ) وكما عبث الرواة بالشعر الجاهلي فخذفوا منه وأضافوا إليه عملاً باهواهم وتبعاً لشهواتهم وأغراضهم ، عبثوا كذلك بشعر المخضرمين ، فزادوا فيه وأنقصوا منه ونحووا أصحابه ما لم يخطر لهم على بال . ولعل عبثهم بشعر الخنساء وحسان كان أبعد مدى وأبلغ أثراً منه في شعر أي مخضرم آخر . وما أريد أن أتعجل الكلام في هذا الموضوع ، فأنا عائد إليه مرة بعد مرة في أثناء التحدث عن شعراء هذا العهد .



مدرسة زهير بنه أبي سلمى - شعراؤها

الخطيئة

أ - سيرته ، اسمه ونسبه ، كنيته ولقبه ، عمره ، ضعة مولده ، موقف أولاد الأقدم وأولاد أوس منه ، إسلامه ، استعاضته بالشعر عن كل ماخسر من أدبي ومادي ، خشية الناس إياه ، مثل من أخباره الدالة على هذه الخشية ، خيره مع آل المقلد ، ما جرى له مع أهل المدينة في سنة قحط ، ما حدث له مع عتبة بن النعمان العجلي ، قصته مع الزبرقان بن بدر وبغيض بن قريع ، وفاؤه للأول منها (هامش).

ب - موقف الرواة منه ، استنكارهم هجاءه أمه ، تلفيقهم كلاماً زعموا أنه وصيته .

ج - وفاته .

د - شعره ، تمثيله مذهب أستاذه زهير ، خصائص هذا المذهب .

هـ - عبث الرواة بآثاره ، مثل من جيد الشعر المحمول عليه ورديته ، مناقشة هذه المثل .

و - أهمية ما يصح له من الشعر ، مديحه ، أصالته وجزالته ، مثل منه ، هجاءه صرامته ونزاهته ، مثل منه .

ز - خاتمة .



أشرت في مقدمة هذا الكتاب إلى أبي أدرس فيه الشعر من حيث هو

مثل لأهم النزعات والمذاهب الأدبية والسياسية والاجتماعية ، وعلى هذا أدرس الآن مذهب زهير بن أبي سلمى ومذهب حسان بن ثابت شاعر النبي (ص) بدراسة كبار شعرائها لأنها أهم المذاهب الشعرية التي عرفها تاريخ الأدب العربي في هذا العصر . وأبدأ بأولها لأنه أكبرهما شأنًا وأعظمهما أثرًا في تاريخ الأدب العربي ، وأكبر شعراء هذا المذهب من المخضرمين شاعران اثنان هما الخطيئة وكعب بن زهير ، فأحدثك حديث الخطيئة لأنه أشعر من كعب وإن كان قد التمس تقريض كعب مقدمًا إياه على نفسه في خبر معروف .



أ - وهو جرجول بن أوس بن مالك العبسي ، وكنيته أبو مليكة ، والخطيئة لقب غلب عليه ، قيل إنه لقب به لقصر قامته وقربه من الأرض وقيل لسبب غير هذا^(١) . وهو من المعمرين عمّر نحواً من ستين سنة في الجاهلية ، ومثلها أو ما يقرب منها في الاسلام . وفي الروائع البيروتية (عدد ٢٩) بحث ضاف في تأريخ مولد الرجل ووفاته ومقدار عمره يرجع اليه من أراد . وهو ابن أمة مملوكة لزوجته أوس بن مالك المتقدم ذكره جاءت به منه ، إلا أنها خشيت غضب سيدها إن هي نسبته إلى زوجها فنسبته إلى أخيها ، وهو رجل يقال له الأفقم (والفقم هو أن تدخل الاسنان العليا في الفم وتخرج السفلى) وساعد على قبول هذا الادعاء كون المولود ذميم الحلقة كالأفقم الذي نسب إليه .

ولكن ما كاد المترجم يطالب أولاد الأفقم بحصته من ميراث أبيهم حتى رفضوه وأبوا أن يعطوه شيئاً^(٢) . وكان قد فعل مثل ذلك مع ولد أوس بن مالك

(١) انظر الأغاني ج ٢ ص ٤١ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٢) في رواية أنهم أعطوه نخلات مميت (نخلات أم مليكة) نسبة إلى زوجته ، إلا أنه

طالبهم بميراثه من الأفقم كما لا فضر بوه وطرده .

العبيسي فقالوا له لا نعطيك جزءاً من ميراث أئبتنا ، ولكننا نواسيك إذا أقت معنا ، فرفض ذلك . والرواة مختلفون في تاريخ إسلام الخطيئة ، فمنهم من يرى أنه أسلم في أيام النبي ، وحمجة هؤلاء أنه قال عندما ارتدّ بعد وفاة النبي (ص) :

أطعن رسول الله إذ كان حاضراً فيا لهفتنا ما بال دين أبي بكر
أيورثها بكراً إذا مات بعده فتلك لعمر الله قاصمة الظهر

ومنهم من يرى أنه أسلم بعد وفاة النبي ، ولعل ابن قتيبة وحده هو الذي يرى هذا ، ودليله عليه أن أحداً لم يرو أن المترجم وفد على النبي فيمن وفد عليه من مسلمي الأعراب . ومهما يكن من شيء فإن الرواة مجمعون على أنه رقيق الدين مرأى ، يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، واعتنق الإسلام أملاً بجر مغنم أو دفع مغرم ، وليس هذا مستبعداً ، فإن إلخافه في السؤال وإمعانه في الهجاء مما يدل على أنه كان قليل التأثير بالإسلام .

ولكن لأن كان الخطيئة لم يؤت شرفاً في نسب ولا سعة في نسب ولا منزلة في دين ترفعه في عيون الناس وتجيئه إلى نفوسهم ، لقد أوتي سلاطة في اللسان وصرامة في الهجاء ملئت منها الصدور خوفاً وإشفاقاً ، فكان لذلك مخشي الجانب مقضي الحاجة .

وأنت إذا استعرضت أخباره رأيت أن الناس كانوا يبادرون إلى قضاء حوائجه ويبالغون في كسب رضاه خشية هجائه اللاذع الذي كان يتحاشاه كل من يريد أن يأمن على عرضه .

روي أنه نزل بآل المقداد - وهم رهط من بني اليربوع - فسألوه أن يأمرهم بما يحب أن يفعلوا في سبيل مرضاته ليأتروا به وأن ينهائم عما لا ينبغي أن يفعلوه لينتهوا عنه . فقال لهم : « لا تكثرُوا زيارتي فتملوني ولا تقطعوا فتوحشوني

ولا تجعلوا فداء بيتي مجلساً لكم ولا تسمعوا بناتي غناء شبانكم . . . » فنفذوا
رغباته هذه تنفيذاً حملاً على شكرهم بقوله من أبيات :

جاورت آل مُقَدِّرٍ فَحَمِدَتْهُمْ إِذْ لَيْسَ كُلُّ أَخِي جَوَارٍ يُحَمِّدُ^(١)

وروي أنه قدم المدينة في سنة جذب فجمع له أشrafها أربعمئة دينار
وقدموها له مع قائمة بأسماء الأسر التي استركت فيها اتقاء لشره وخوفاً من
لاذع هجائه^(٢). وروي أنه دخل على عتبية بن النعمان العجلي فسأله معونته فقال له :

« ما أنا على عمل فأعطيك مدده ولا في مالي فضل عن قومي . » فخرج من
عنده . وقال لعتبية بعض من حضره من قومه : - « لقد عرضتنا ونفسك للشر . »
قال : « وكيف ؟ » قالوا : هذا الخطيئة ! فأرسل إليه من يستدعيه . فلما حضر
قال له : - « لمَ كنتمنا نفاسك ؟ إجلس ، فلك عندنا ما يسرك ، فجلس . فقال
له : « من أشعر الناس ؟ » قال : « الذي يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يَفِرُّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّمَّ يَشْتَمُ

فقال له عتبية : - « هذا أول أفاعيك . » وأكرم وفادته وأحسن صلته^(٣).
على أن قصة الخطيئة مع الزبرقان بن بدر وبغيض بن قريع وهي أشهر ما يروي
عنه لا تعني في مجموعها سوى ظفر الشاعر بما كانت تتوق نفسه إليه من ذبوع الصيت
وبعد الأثر في نفوس الناس ، وإلا فما الذي يحمل الزبرقان بن بدر على أن يشتري
بتسره ولبنة مديح الخطيئة ؟ وما الذي يحمل خصمه وابن عمه بغيض بن قريع على
منافسته في ذلك ؟ وهناك سبب آخر سوى الرغبة في الحصول على المديح الدائم

(١) الأغاني ج ٢ ص ٤٤ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٢) المصدر نفسه (ص ٤٤)

(٣) المصدر نفسه (ص ٤٥)

ب - وقد أذان الرواة وفي مقدمتهم الأصمعي الخطيئة فوصفوه بالطمع والجشع والبخل ودناءة النفس وكثرة الشر وقلة الخير وبعيوب أخرى كثيرة . وما أريد أن أبرئه من أية رذيلة من هذه الرذائل ؛ ولكنني أريد أن أقول إن هؤلاء الناس نسوا أنه ليس في مقدور أي رجل يولد مولد الخطيئة وينشأ نشأته أن يكون أي إنسان آخر سواه . وكما شدد الرواة التكبير على الخطيئة في أمر أخلاقه ، شددوا التكبير عليه كذلك في هجائه أمه . وفاتهم أنه هجا أمه كانت مصدر شقائه وسبب بلائه ومحنته . وقد لفق الرواة وصية زعموا أن الخطيئة أدلى بها ساعة وفاته . ولكنك لا تكاد تقف على نصوص هذه الوصية المختلفة في كتابي الشعر والشعراء والأغاني حتى تجزم بأنها مختلفة منحولة لكنها ربما احتوت على كلمات فاه بها الشاعر في بعض مطارحاته الأدبية منها هذه الكلمة : « ويل للشعر من رواية السوء » ومنها هذان البيتان :

الشعر صعب وطويل سأمه	إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمه	يريد أن يعر به فيعجمه

ج - وتوفي المترجم في أيام معاوية بن أبي سفيان بدليل أنه مدح سعيد بن العاص في أيام ولايته على المدينة ، ولكن الرواة لم يحددوا تاريخ وفاته ولم على وجه التقريب .

(١) مما بلغت النظر في قصة الزبرقان والخطيئة أن الأخير لم ياب دعوة بغيض الى جواره على رواية الأغاني ، الا بعد أن أساءت امرأة الزبرقان معاملته اساءة ظاهرة وأنه لم ياب كذلك دعوة بغيض الى هجاء الزبرقان الا بعد أن أوعز هذا الى دثار بن شيبان أحد شعراء النمر بن قاسط بأن يهجو بغيضاً فهجاه بأبيات قال فيها :

ألم أك جار شماس بن لأي فأسلمني وقد نزل البلاء

وهذا دليل على وفاة الخطيئة وعرفاه الجميل اذا لم أخطئ .

د - شعره : - قلت لك في صدر هذا الحديث إن الخطيئة خير من يمثل مذهب زهير في صناعة الشعر . وأقول لك الآن : إن هذا المذهب يقوم على توخي الحقيقة والابتعاد عن الغلو والاسراف من ناحية الموضوع وعلى فصاحة اللفظ ومتانة السبك وتحاشي فضول الكلام واجتناب وحشيه وحوشيه إلى اعتدال في اصطناع المحسنات البيانية من ناحية اللغة والأسلوب ، وعلى شيء آخر لعده أهم عنصر في هذا المذهب ، وهو : نظم الشعر بأناة وروية . فزهير لا يقول الشعر فيض البديهة وعفو الخاطر ، ولكنه يحكمه ويهذب ويقلب النظر في أعطافه ولا يذيعه في الناس حتى يطمئن إلى أنه قد بلغ فيه الغاية وظفر بالقصد ، ولأمر ما سمي « صاحب الحوليات » وعد في طليعة « عبيد الشعر » . والخطيئة راوية زهير وتلميذه ، وقد عرف مذهبه هذا كل المعرفة وتأثر به كل التأثر واصطنعه في كل ما عالج من ضروب الشعر فكان صورة صادقة من أستاذه ومثلاً حياً من مثقفه ومخرجه ، وإنك لتقرأه أحياناً فيخيل لك أنك تقرأ زهيراً لما بينهما من وثاقة الصلة وتقارب خصائص الفن .

هـ - ولكني ، وأنا أحدثك عن الخطيئة ، مضطر إلى أن أحذرك مما حمل عليه من الشعر . فقد حمل عليه الشيء الكثير من جيده ، وحمل عليه الشيء الكثير من رديئه أيضاً . فما حمل عليه من جيده هذه القصيدة القصصية النفيسة وهي :

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل

بيداء لم يعرف بها ساكن رسماً^(١)

أخي جفوة فيه من الانس وحشة

يرى البؤس فيها ، من شرارسته ، نعمي

(١) عاصب البطن : شاد عصاية على بطنه من الجوع .

تفرّد في شعب عجوزاً ، إزاءها
 ثلاثة أشباح تخالهم بها^(١)
 حفاة عراة ما اغتدوا خبز ملة
 ولا عرفوا للبرّ مذ خلقوا طما
 رأى شبعا وسط الظلام فراعته
 فلما بدا ضيفاً تصوّر واهتها
 فقال ابنه لما رآه بحيرة :
 « أيا أبت اذبحني ويسّر له طما ،
 ولا تعتذر بالعدم ، حلّ الذي طرا
 يظن لنا مالا فيوسعنا ذما ! »
 غروى قليلاً ، ثم أحجم برهة ،
 وإن هو لم يدبج فتاه فقد همّ^(٢)
 وقال : « هيا رباه ، ضيف ولا قرى ! »
 بحقك لا تحرمه تاليلة الاحما !
 فيينا هم ، عنّت على البعد عانة
 قد انتظمت من خلف مسحاها نظا^(٣)
 ظماء تريد الماء ، فانساب نحوها
 ألا إنه منها إلى ذمها أظما !

(١) الشعب : الطريق في الجبل . « وعجوز » منصوب بنزع الخافض تقديره بعجوز .
 والبهيم : جمع بهمة وهي فرخ الضأن والمعز شبههم بها لصفراء أجسامهم .

(٢) روى : تروى وتفكر .

(٣) العانة : هنا القطيع من حمر الوحش . والمسجل الحمار الوحشي .

فأمهلها حتى تروّت عطاشها ،
 فأرسل فيها من كنانته سهماً
 فحرت نحوص ذات جحش فتية
 قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شهماً (١)
 فيا بشره إذ جرها نحو أهله !

ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى !
 فباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم
 فلم يغرموا غرمًا وقد غنموا غنماً
 وبات أبوم من بشاشته أباً

لضيفهم والأم من بشرها أما
 فأكبر الظن أن هذه القصيدة من صنع راوية عربي الأصل نظمها ردّاً
 على قصيدة منحولة من شأنها أن تسيء إلى سمعة العرب ، وقد تكون هذه القصيدة
 الشعبية لامية خلف الأحمر التي نحلها الشنفرى وسماها لامية العرب ؛ لأنها تصف
 العرب بالصوصية وقتل النساء والأطفال وأكل التراب وما إلى ذلك من الصفات
 التي يحلو لخلف الأحمر أن يخلعها على العرب . ثم إن القصيدة - أعني الميمية المحمولة
 على الخطيئة - من سعة الخيال ودقة التصور وتسلسل المعاني والاغراض ودماثة
 اللغة بحيث يصعب صدورها عن مثله .

ومما حمل عليه من رديئه - أي الشعر - هذه الأبيات التي زعموا أنه هجا
 بها زوج أمه وهي :

لحياك الله ، ثم لحاك حقاً
 فنعم الشيخ أنت لدى الخازي
 أباً ولحاك من غم وخال
 وبئس الشيخ أنت لدى المعالي

جمعت اللؤم لا حياك ربي وأبواب السفاهة والضلال
فما أشك في أن الخطيئة أشعر بكثير من أن يقول هذا الشطر السخيف
الركيك « جمعت اللؤم لا حياك ربي » وما أشك كذلك في أنه بعيد كل البعد
عن أن يعرف « للسفاهة والضلال أبواباً » . وأنت تعلم أن (التبويب) لم يعرف
إلا عند وضع الكتب في أيام الدولة العباسية ، لأنهم احتاجوا إذ ذاك إلى تصنيف
المعلومات وتمييز بعضها من بعض وتيسير فهمها على القارئ والدارسين . وهناك
قصيدتان ، إحداها لامية والأخرى عينية زعموا أنه أرسلها إلى عمر ، الأولى في
أيام حبسه والثانية بعد الإفراج عنه ، لا يخامرني أدنى شك في أنها محمولتان عليه
حلاً ، ومدسوستان في شعره دساً ، وفي أنهما من صنع راوية ماجن لا دين له
ولا ذمة .

و — ولكن وجود هذا الشعر المنحول جيداً كان أم رديئاً في ديوان
الخطيئة لا بغض من شأنه ولا يحط من قدره . ففيه من نفائس الشعر وغرره
ما يجعله أهلاً للتمحيص والدرس . وهذا الديوان مشتمل على أكثر ضروب
الشعر من مديح وهجاء ورناء وفخر ووصف وحكم . ولكنني قد لا أظلم الخطيئة
إذا اقتصرنا على ضربين من شعره هما المديح والهجاء لأنني أظن أنهما خير ما ترك
من منظوم الكلام إذا استثنينا حكماً قليلة جداً لا يمكن أن تؤلف باباً في هذا
الديوان لقلتها . فأما مديحه فانه من الأهمية بمكان لأنه لا ينحل ممدوحه فضائل
غيره ولا يبالغ في تصوير فضائله ، وإنما يستعرض ما عنده من حميد الخصال
وشريف الفعال ويتمثله ثم يصوره في حلق وبراعة وصدق وأمانة . وما أظن
أنك تنكر عليه الغلو أو الاسراف في المدح إذا قال لك عن سعيد بن العاص
وهو من كبار الأمويين وعامل معاوية على المدينة إنه قليل الأكل فكه الطبع لا تمتد
يده إلى زاد خبيث . وما أظن أنك تنكر عليه شيئاً إذا قل لك عن بغيض بن

قريع وهو من أعيان تميم إنه كثير الكسب للعالم كثير الانفاق له ، وإنه حسن
الاستقبال للضيفان ، يلقاهم بوجه يلمع فيه البشر لمعان الفرند في السيف . وما أظن أنك
تمكر عليه شيئاً كذلك إذا قال لك عن آل شماس وهم من سرارة تميم : إنهم ذوو
همم عالية وشمائل طيبة وأخلاق نبيلة وأنساب عريقة في المجد والشرف . ومعنى
هذا أن مديحه على جانب كبير من الصدق والأصالة ، هذا فضلاً عما يمتاز به من
جزالة في اللفظ ومتانة في السبك وصفاء في الديباجة .

ولم يبق لي الآن سوى أن أنشدك مثلاً من هذا المديح :

إسمع قوله في آل شماس :

وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا	أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنيا
وإن أنعموا لا كدروها ولا كدّوا	وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها
من الدهر ردّوا فضل أحلامكم ردّوا	وإن قال مولاهم على جلّ حادث
بني لهم آباؤهم وبني الجسد	مطاعين في الهيبة مكاشيف للدجى

وقوله بمدح بغيضاً :

ومن يؤت أثمان المحامد يُحمَد	تزور امرءاً يؤتي على الحمد ماله
ويلعلم أن البخل غير مُخلد	يرى البخل لا يبقى على المرء ماله
تهلل فاهتز اهتزاز المنهد	كسوب ومتلاف إذا ما سأله
تجد خير نارٍ عندها خير موقد	متى تأتته تعشو إلى ضوء ناره

وقوله في آل عدي :

صفائح بصرى علّقت بالعواتق	وفتيان صدق من عدي عليهم
ولم يسكوا فوق القلوب الخوافق	إذا ما دُعوا لم يسألوا من دعاهم
وشدوا على أوساطهم بالمناطق	وظاروا إلى الجرد العتاق فألجوا

أولئك آباء الغريب وغائة الصريح ومأوى الرملين الدرادق^(١)
 أحلوا حياض المجد فوق جباههم مكن النواصي من وجوه السوابق
 وأما هجاؤه ، فانه قاس كل القسوة شديد كل الشدة ، إلا أنه على جانب
 كبير من النزاهة والعفة لا يسيء إلى سمعة امرأة ولا يفحش في سب رجل ،
 وإنما يقتصر على ذكر الخلال الذميمة التي قد توجد حتى عند أفاضل الناس كالخلل
 والجن وما إليهما . وبعد فما ظنك بهجاء تردد عمر في اعتباره ذماً ورأى أن يحمله
 إلى حسان بن ثابت بصفته شاعراً ليقول كلمته فيه ؟ وما أريد أن أطيل الكلام
 عن هجاء الرجل فحسي أن أورد لك مثلاً من سيدنيته الشهيرة التي تقدمت لها
 الإشارة ، وهما ما أريد إبراده :

والله يا معشر لاموا امرءاً جُنُباً	في آل لأي وشماس بأ كياس ^(٢)
ما كان ذنبٌ بغيضٌ لا أباً لكم	في بائس جاء يحدو آخر الناس
لقد مريتكم لو أن درنتكم	يوماً يجيء بها مسحي وإبسا ^(٣)
وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم	كيما يكون لكم متحي وإمرا ^(٤)
لما بدا لي منكم غيب أنفسكم	ولم يكن لجراحي فيكم آسي
أزمت يأساً مريحاً من نوالكم	ولن ترى طارداً للجر كالياس
جار لقوم أطالوا هون منزله	وغادروه مقيماً بين أرماس
ملّوا قراه وهرته كلابهم	وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها	واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي

(١) الدرادق : الصغار .

(٢) الجنب : الغريب .

(٣) مريتكم : مرى الناقة مسخ ضرعها . والابساس : دناء الناقة ببس بس لتسكن
 ويدربنها .

(٤) المتح : الاستسقاء ، والامراس إعادة المرساة وهي الحبل إلى مجراها .

سيرني أمامَ فإنْ أكثرينْ حصيَّ والأكرمينْ أباً من آل شماس
من يفعل الخيرَ لا يعدمْ جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس



ولك أن تقيس بقية القصيدة على هذا ، وواضح أن قصيدة الخطيئة لا تشتمل على معنى قبيح ولا لفظ بذيء ، واسكنها غضت من شأن الزيرقان وحطت من كرامته إلى حد حمله على أن يشكو الشاعر إلى الخليفة .

يقول الاستاذ الزيات في كلامه على شعر الخطيئة « ولولا خساسة طبعه ، ودناءة طمعه ، وقبح تبدّله ، لما فضله في المخضرمين أحد . (١) » ويرى الاسكندراني رحمه الله رأيَه في هذا الشأن فيقول : « لولا ما وصم به الخطيئة من خسة النفس ودناءة الخلق وجهالة النسب ورقة الدين والغدر والبخل الشديد والاساءة إلى من أحسن إليه وسؤاله الرعاع والسوقة طمعاً في جمع المال من أي سبيل ، لكان باجاده في كل ضرب من ضروب الشعر شاعر المخضرمين على الاطلاق (٢) » .

ويخيل إليّ أن الرجل شاعر المخضرمين على الاطلاق وأن أخلاقه لا تؤثر كثيراً ولا قليلاً في مكانه من الشعر ، لأن الشعر شيء والأخلاق شيء آخر . هذا إلى أني أرى فيما ينسب إلى المترجم من صفات ذميمة وأخلاق منحطة شيئاً قد لا يكون قليلاً من الغلوّ والاسراف .



(١) تاريخ الأدب العربي ص ١٠١-١٠٢ الطبعة الثانية بمطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٩١٤

(٢) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ، ص ١٢٩ الطبعة الأولى بمطبعة المعارف بمصر

كعب بن زهير

— ٥ —

أ - تأريخه في الجاهلية . مولده ونسبه . نشأته وتعليمه . مزاعم الرواة في هذا الشأن . تفنيدها . أ كذوبة أخرى للرواة بصدد نبوغ كعب . دحضها . خبره مع زيد الخيل . رفضه .

ب - تأريخه في الاسلام . قدوم أخيه بجير على النبي بموافقته . إسلام بجير . نقمة كعب عليه . هجاؤه النبي وأصحابه . إهدار النبي دمه . عدم مبالاته بذلك بادىء بدء . خشيته النبي بعد استيلائه على مكة . التماسه حماية القبائل وفشله في ذلك . التجاؤه إلى النبي . حصوله على عفوه . موقف المهاجرين والأنصار منه . ضيعة تاريخ وفاته . نظرة في حادثة البردة (هامش) .

ج - شعره . ديوانه . ما أضيف إليه من الشعر . مثل منه . مناقشة بعض هذه المثل .

د - ما يصح من شعره . تمثيله مذهب أبيه . مثل منه .

ه - خاتمة .



أما كعب بن زهير، فإنه ثاني شعراء المذهب الزهيري أو الأوسي في الاسلام، وهو ثاني شعراء هذا المذهب، ليس فقط من حيث الاجادة، بل ومن حيث الحكمة أيضاً، فإن ما يعزو إليه الرواة من الشعر قليل جداً وأكثر هذا القليل منحول . وولم الرواة بهذا الشاعر عجيب، فإنهم نسجوا حوله طائفة من الأساطير

كادت تخيله شخصية خرافية لولا « بانت سعاد .. » التي لا يتطرق إليها الشك .
ومع ذلك سنحاول أن نقول كلمتنا فيه .

*
* *

(أ) ولد كعب بديار غطفان في نجد حيث كان بقم أبوه وتأريخ ولادته مجهول ، وهو أكبر أولاد زهير وهم بحير وسالم وهو . وقد نشأ في حجر أبيه وتعهده هذا بالتدريب والتثقيف حتي صار شاعراً مقدماً . بيد أن الرواة يزعمون أن أباه كان يمنعه من قرض الشعر في أيام حدثه خشية أن يقول مالا خير فيه فيروى عنه ، وأنه كان يشدد في هذا المنع إلى درجة الضرب والحبس وأنه لم يسمح له بمعالجة الشعر إلا بعد أن امتحنه امتحاناً شاقاً عسيراً ثبت فيه نبوغه وظهرت شاعريته . وعندي أن هذا الخبر مكذوب ، فمألاً شك فيه أن زهيراً يعرف أن الشعر ملكة مستحكمة في يده ، فهو كبير شعراء مضر وأبوه ربيعة شاعر ، وخاله بشامة بن الغدير شاعر وأخته سلمى والخنساء شاعرتان . ومن الطبيعي أن يكون ابنه كعب شاعراً . وإذا كان هذا يقول الرديء من الشعر في بدء نشأته فلا بد أنه سيقول الجيد منه . وعليه فلا محل لهذا المنع الذي ينتهي إلى الضرب والحبس . ومثل هذا الخبر في مكانه من الكذب والافتعال ما يتناقضه الرواة من أن زهيراً قال ذات يوم :

تزيد الأرض إمامت خفّاً
ونحي ما حيلت بها ثقيلاً
.....
نزلت بمستقر العرض منها

ثم أكدى - أي عجز عن إتمام البيت - فمر به النابغة الذبياني ، فقال له :
أجز يا أبا أمامة ! فقال : أجز ماذا ؟ فأنشده زهير ما تقدم ، فأكدى النابغة في دوره . ومرة كعب ، وهو صغير فقال له أبوه : أجز يا بني . قال : أجز ماذا ؟
فأنشده أبوه البيت والشرط ، فقال على الفور : « ومنع جانبيها أن يزولا » .

هذا الخبر مختلق أيضاً ، لأن مثل هذه المبالغة لم يكن معروفاً في الشعر الجاهلي ،
ولأن قافية البيت الأول يجب أن تكون مؤنثة لأنها صفة للأرض التي يقول
صدر البيت إنها تزيد خفة إذا مات الممدوح . و « صاحب الحوليات » أحق
وأدقّ صناعة من أن تتطرق إلى شعره قافية كهذه . وقد أعطى الرواة هذه
المساجلة الشعرية صوراً وأشكالاً عديدة ذكرها صاحب الروائع كلها . وكلها دون
أدنى ريب هذر لا نصيب له من الصحة .

وقل مثل هذا عن خبر كعب مع زيد الخيل لأن ما فيه من الشعر منحول
ظاهر التكلف . ومن الأمثلة على ذلك هذا البيت السخيف :

ألا بكرت عرسي بليل تلومني وأقرب بأحلام النساء إلى الردي

أو : « وأكثر أحلام النساء إلى الردي .. »

وهذا البيت الذي لا معنى له مطلقاً :

وإن تغضبوا أو تدر كوالي بدمّة لعمر كم أو مثل سعيكم كفي

وفي القطعة أمثلة أخرى لهذا الكلام الملفق الذي إن دلّ على شيء ، فإنما
يدل على الافتعال والأسفاف معاً . أما أبيات زيد الخيل فسخبك دليلاً على
افتعالها هذا البيت :

فلولا زهير أن أ كدّر نعمة لفادعت كعباً ما بقيت وما بقي

إذ الصحيح « بقي » كرضي ولقي . وليس من المعقول أن شاعراً فصيحاً
كزيد الخيل يقع في مثل هذا الغلط الفظيع .

(ب) ومع أن تاريخ كعب في الاسلام لم يخل من افتعال كثير ، فإنه أقرب
إلى الصحة مما سبقت الإشارة إليه من أخباره . فالرواة مجمعون تقريباً على أنه
تذاكر ذات يوم هو وأخوه بجير في أمر النبي صلى الله عليه وسلم بينما كانا يرعيان

غنماً لها . فقال كعب لأخيه : إلق بالرجل لتعرف خبره وحقيقة ما يدعو إليه
لتعلمني إياه . ولحق بحجر بالنبي ، فلما شهد مجلسه وسمع كلامه تأثر به فاعتق
الاسلام . وبلغ خبر اسلام بحجر أخاه كعباً فغضب أشد الغضب وأخذ يهجو النبي
والمسلمين هجاء مراراً . وساء النبي هجاؤه فأهدر دمه . وكان اسلام بحجر في السنة
السابعة للهجرة . ولم يكن الاسلام قد بلغ أوج قوته إذ ذاك ، فلم يلتفت كعب إلى
إباحة النبي دمه ، وظل يهجو وأصحابه أفظع هجاء . فلما فتحت مكة ودخل
معظم سكان شبه الجزيرة في الاسلام شعر كعب بالخطر الذي يهدده فلجأ إلى
مزيته ، وهي عشيرة أمه ، يسألها أن تحجره على النبي فرفضته . والتمس هذا عند
غيرها ، فلم يكن نصيبه إلا الرفض . عندئذ عول على التماس صفح النبي عن طريق
الدخول في الاسلام . وينبغي أن نلاحظ أن أخاه بحجراً هو الذي أشار عليه
بذلك . وكان هذا قد عرف بالاختبار صفح النبي عن خصومه القدماء عند اعتناقهم
الاسلام وتنصلهم مما سلف منهم . وقدم كعب المدينة متخفياً فنزل عند صديق له
من جهينة وقيل عند أبي بكر وقيل عند علي بن أبي طالب^(١) ، ومثل بين يدي
النبي فأعلن إسلامه والتمس مغفرته . وكان النبي عند حسن ظنه ، فأمنه وصفح
عنه ، وكان المسلمون يتميزون عليه غيظاً بسبب إيلاهم بقوارص هجائه ،
وأراد بعضهم قتله فمنعه النبي . وهنا أنشد المترجم بين يدي النبي لاميته المشهورة
التي سأروي لك شيئاً منها عما قريب . وكانت هذه القصيدة في مدح النبي
والمهاجرين ، فعاتب الرسول كعباً على خلو قصيدته من مدح الأنصار ، وقال
المهاجرون : ما مدحنا من هجا الأنصار ، فكفر كعب عن هذا بنظم قصيدة في
مدح الأنصار سأروي لك بعضها .

(١) أنظر العدد (٣٢) من الروائع ص ٨٢ - ٨٣ طبعة المطبعة الكاثوليكية ببيروت

وبهذا ينتهي تاريخ كعب في الاسلام على وجه التقريب ، لأننا لا نعرف
عن حياته في الاسلام شيئاً سوى ما تقدم .

ومما يؤسف له أننا نجهل تاريخ وفاته كما نجهل تاريخ مولده ، وليس للفرض
القائل إنه توفي سنة اثنتين وأربعين للهجرة ما يبرره أو يرجحه ، لأنه ليس
في قضية شراء البردة (١) - إذا صحت هذه بدورها - ما يسمح بترجيح ذلك
الفرض ، إذ السائد عند مؤرخي البردة أن معاوية اشتراها من أولاد كعب لا من
كعب نفسه .



(حج) شعره : للمترجم ديوان شعر صغير يحتوي على نحو من ثلاثين قصيدة
ومقطوعة ذكره الحاج « خليفة » في (كشف الظنون) (٢) . وظفر المستشرق
(كرنكو) Krenkow بنسخة منه فدرسه وعزم على نشره في سنة ١٩١٠ ،
ولكن موانع حالت بينه وبين تحقيق هذه الفكرة . ومما يكن من شيء فإن
ما وصلنا من شعر كعب قليل جداً لسوء الحظ ، فهو عبارة عن « بانث سعاد .. »
توضع قصائد ومقطوعات نظمت في أغراض متفرقة . غير أنه إلى جانب هذه
القصائد وتلك المقطوعات قصائد ومقطوعات أخرى كلها أو أكثرها مكذوب
نعمتل . فمن ذلك هذه النونية التي زعموا أن كعباً رثى بها ربيعة بن مكرم والتي
أروي لك منها قولهم :

(١) البردة كساء من صوف مخطط ، زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب فور شماغه « بانث
سعاد » وأن معاوية اشتراها من ولد كعب فتداولها خلفاء بني أمية من بعده ، ثم
انتقلت إلى خلفاء بني العباس الذين كانوا يلبسونها في الأعياد . وقد لفت الأستاذ
عقود البستاني في العدد (٣٢) من الروائع الأنظار إلى أن المؤرخين لم يلهجوا بهذه
القصة إلا في القرن الثالث للهجرة .

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتّاب والفنون طبعة (Flügel) ليبسك سنة ١٨٣٥
المجلد الثالث ص ٣٠٣ - ٣٠٤

بان الشباب ، وكل إلفٍ بائن ظعن الشباب مع الخليل الظاعن
 قالت أميمة : ما لجسمك شاحباً ؟ وأراك ذا بثٍ ولست بدائن ؟
 غصّي ملامك ، إن بي من لومكم داءٌ أظنّ مماطلي أو فاتني
 وهذه الميمية التي زعموا أنه ردّها على المزرد بن ضرار والتي أقتطف لك
 منها هذين البيتين :

تعيّرني عزاً قديماً وسادةً كراماً بنواني المجد في باذخ الشمم
 هم الأصل مني حيث كنت وإنتي من الزينيين المضيفين لاسكرم
 فما أظن أن الاسفاف يبلغ بكعب أن يقول مثل هذا الكلام الركيك المفكك
 الذي يصعب تأويل أكثره وحمله على وجه صحيح ، وما هكذا يتحدث فحول
 الشعراء ولا سيما إذا كانوا ممن يحكك الشعر ولا يذيعه في الناس إلا بعد تهذيبه
 وتنقيحه من أمثال كعب وأبيه .

ومن قبيل الأمثلة السالف ذكرها أبيات تتناقلها كتب الأدب على أنها من
 الشعر الجيد ، وأنا أزعم أنها ليست من الجودة في شيء وليست من الصحة في
 شيء كذلك ، وهي :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدر
 يسعى الفتى لأمرٍ ليس يدر كها والنفس واجسدة والهَمّ منتشر
 والمرء ما عاش ممدود له أمل لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثر
 فليس من شك في أن البيت الأول غير صحيح لاستعماله كلمة « أعجب »
 بدلاً من « لمعجبت » وهي الكلمة التي يقتضي المقام استعمالها . وليس من
 شك في أن البيت الثالث لا يمكن أن يصدر عن شاعرٍ له وزن لأن معناه غير
 مستقيم . فقد أراد الشاعر أن يجعل الأمل لازماً للإنسان مدة حياته لزوم الأثر

للعين فقال في عجز البيت « لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثر » وكان الصواب أن يقول « لا ينتهي الأثر حتى تنتهي العين » لأنه ناشئ عنها لازم لها ، وانتهاء الأثر بانتهاء العين زعم غير صحيح ، فإن الأرض مלאى بالآثار الباقية بعد زوال الأعيان التي أنشأت هذه الآثار .

(د) : أما ما يصح من شعر كعب فانه صورة صادقة من شعر أبيه يمثل في توخي الحقيقة وتجنب الغلو والاسراف . ويمثله في عرض وقائع التاريخ عرضاً صحيحاً وتصويرها تصويراً صادقاً ، ويمثله كذلك في تخير ألفاظه وتنخل قوافيه ورصانة أسلوبه وحكمة أمثاله . استمع إليه يصف الأنصار في قصيدة :

من سرّه كرم الحياة فلا يزل	في مقنّب ^(١) من صالحى الأنصار
الناظرين بأعين محمّرة	كالجر غير كليلة الأبصار
والذائدين الناس عن أديانهم	بالمشرفى وبالقنا الخطار
يتطهّرون كأنه نسك لهم	بدماء من علقوا من الكفار
صدموا الكتبية يوم بدر صدمة	ذات لوقعتها رقاب نزار

واستمع إليه يصف المهاجرين في « بانث سعاد ... » بعد وصفه النبي (ص) :

في فتية من قريش قال قائلهم ^(٢)	بطن مكة، لما أسلموا : « زولوا »
زالوا، فما زال أنكس ولا كشف	عند اللقاء ، ولا ميل معازيل ^(٣)

(١) المقنّب : من ثلاثين الى أربعين فارساً

(٢) يجمع شراح « بانث سعاد » على أن هذا القائل هو عمر بن الخطاب (رض)

(٣) أنكس : جمع تكس وهو الجبان أو الضعيف ، وكشف : جمع آشف وهو من لا يحمل ترساً . ميل : جمع أميل ، وهو من لا يثبت على السرج ، أي من لا يحسن الفروسية . معازيل : جمع معزال ، وهو من لا سلاح له .

شمم العرائن أبطال ، لبوسهم من نسج داود، في الهيّجاء سرائيل^(١)
لا يفرخون إذا نالت رماحهم قوماً ، وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا
واستمع إليه يعظ جاهلاً ويرشده سواء السبيل :

إن كنت لا ترهبُ ذي لما تعرفُ من صفحي عن الجاهل
فاخش سكوتي ، إذ أنا منصت فيك لمسموع خفي القائل
فالسامعُ الذم شريك به ومطعمُ المأكول كالأكل
مقالةُ سوء إلى أهلنا أسرع من منحدر سائل
ومن دعا الناس إلى ذمه ذمّوه بالحق وبالباطل
فلا تهيجُ إن كنت ذا إربة^(٢) حرب أخي التجربة العاقل

فما أشك أنك تجد في المثال الأول صورة حية من شجاعة الأنصار
وبسالتهم ومن دفاعهم عن النبي ونضالهم في سبيل الاسلام الذي آمنوا به وأصدق
الايمان وأخلصوا له أشد الاخلاص وتحمسوا لمثله ومبادئه حماسة منقطعة النظير ،
وما أشك أنك تجد في المثال الثاني صورة حية كذلك من تفاني المهاجرين في
سبيل الدعوة الحمديّة وتركهم ديارهم وأبناءهم وأموالهم إلى ديار لم يعرفوها
وأرض لم يطأوها ليأرسوا شعائر دينهم بحريّة وطمأنينة وليعملوا على نشره بكل
ما أوتوا من قوة . وما أشك أنك تجد في المثال الثالث حكمة الرجل العاقل
الخبير بالحياة والناس الذي يترفع عن الطعن في الخصوم ، ولكنه يحذر خصمه

(١) العرائن : طرف الأنف ، وشممه : ارتفاعه ، ووصف الرجل بشمم العرائن كناية عن
وصفه بعلو الهمة وإباء الضم . المراد بنسج داود : الدروع ، لأن العرب تنسج صدها
إلى داود (ع س)

(٢) الإربة : الدهاء .

إصغاه إلى ما يقال فيه مما لا يسره ، ويعلمه أن الناس سراع إلى أكل لحوم
بعضهم بالغبية ، وأنه من رضي منهم لنفسه أن يذمّ ذمّوه بما كان منه وما لم يكن .
وما أشك أنك تجد في هذه المثل جميعاً من متانة اللغة وجمال الأسلوب وصفاء
الديباجة ما يمثل مذهب زهير في صناعة القريض ويميز طريقته وأسلوبه .

(٥) : في الواقع أن ما يصحّ لنا من شعر كعب قليل جداً ، ولكنّه

يمثل بلا ريب خيالاً قوياً وقريحة خصبة وفناً متقناً رفيعاً .



حسان بن ثابت الانصاري

٥

- أ - حياته : اسمه ونسبه وكنيته . مكانته من قومه . صلاته بالمنافرة . صلاته بالفحاسة . دفاعه عن النبي وحظوته عنده . وفاته .
- ب - أخلاقه : جبنه وميله إلى الادعاء .
- ج - شعره : خاصته . طائفة من مختاراته .
- د - قدرته على الارتجال . مثل من شعره المرتجل . نقده .
- ه - الخلاصة .

كان الخطيئة وكعب شاعرين بدويين، يتحلمان مدرسة شعرية بدوية هي مدرسة زهير أو مدرسة أوس أستاذة . أما حسان بن ثابت الذي أريد أن أحدثك عنه الآن فإنه شاعر حضري يمثل مدرسة شعرية حضرية ، شعراؤها فيما يقول المبرد ستة ، وهم : حسان وابنه عبد الرحمن وحفيده سعيد بن عبد الرحمن ، ووالده ثابت ، وجده المنذر ، وحرام والد المنذر . وليس ثمة شك في أن حسان أشعر الستة . ومن المفيد أن نلاحظ أن مدرسة زهير تمتاز بالرصانة والقوة بينما تمتاز مدرسة حسان باللين والسهولة ، وأن مدرسة زهير تصنع الشعر صنعا وتحكمه وتنقحه وتطيل النظر فيه ، أما مدرسة حسان فإنها تقول عفواً ، وترنجله ارتجالاً وتعرضه على الناس غير منقح ولا مهذب . وأفرغ الآن للكلام عن حياة حسان وأخلاقه وشعره فأقول لك :

- (أ) : هو حسان بن ثابت بن المنذر الانصاري الخزرجي . كان يكتب في الجاهلية
- به (أبي الوليد) ثم كتب في الاسلام به (أبي عبد الرحمن) . ولد في الجاهلية وعمر

فيها نحواً من ستين سنة . فلما هاجر النبي (ص) إلى المدينة ، أسلم فيمن أسلم من الأنصار . وكان لسانَ عشيرته الخزرج وشاعرَها المقدّم في مفاخراتها ومساجلاتها مع الأوس . وكان يَفِدُّ في أيام جاهليته على ملوك المناذرة في الحيرة والغساسنة في بادية الشام ، فيمدحهم ويأخذ جوائزهم . ولكن يظهر أنه لم يكن كبير الصلة بالمناذرة لغلبة النابغة الذبياني على هؤلاء . ويحدثنا الرواة أن حسان وفدّ على النعمان بن المنذر فلقي حاجبه عصاماً الذي يقول فيه النابغة :

[نفس عصام سودتْ عصاماً وعلمته الكرو والاقداما... الخ]

فزوده هذا بعدة نصائح انتفع بها في مقابلة النعمان . فلما خرج من عنده قال له الخاحب « بقيت عليّ واحدة لم أوصك بها : قد بلغني أن النابغة الذبياني قديم عليه ، وإذا قدم فليس لأحدٍ منه حظ سواه ، فاستأذن حينئذٍ وانصرف مكرماً خيراً من أن تنصرف مجفوّاً^(١) . » ومع أن الغساسنة كانوا ينزلون نابغة بني ذبيان المنزلة التي تليق به ويقدرّون شعره حق قدره وهو القائل فيهم بائنه الخالدة التي مطلعها [كليني لهم يا أئمة ناصب] استطاع حسان أن ينفذ إلى قلوبهم ويستأثر بقسط غير قليل من عطفهم ولعل صلة النسب التي تربطه بهم كانت أكبر سببٍ في حظوته عندهم . فغير خاف أنه وهم يلتصمون جميعاً إلى أصول يمنية قحطانية . ويحدثنا الرواة أن عمرو بن الحرث الغساني قال لحسان عندما دخل عليه للمرة الأولى وعنده النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة « يا ابن الفريعة قد عرفت عيصك^(٢) ونسبك في غسان فارجع ، فاني باعث إليك بصلة سنية ولا أحتاج إلى الشعر ، فاني أخاف عليك هذين السبعين : النابغة وعلقمة ، أن

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٦٥ مطبعة التقدم بمصر .

(٢) العيص : العرق .

يفضحك وفضحتك فضيحتي^(١)» ومن هنا يتبين أن الغساسنة كانوا يحسبون
 لصلة النسب التي تربط حسان بهم حسابها ويعتدون بها اعتداداً غير قليل . وقد
 استمر عطفهم عليه بعد إسلامه . وما هدية جبلة بن الأيهم إليه بعد فراره إلى
 القسطنطينية إلا دليل صادق على استمرار هذا العطف .

ولئن كان حسان شاعر الغساسنة ولسان الخزر ج في الجاهلية فانه شاعر
 النبي الأول في الاسلام^(٢) . وقد بلغ من حظوته عند النبي (ص) أن قال له وهو
 يشير إلى مشركي قريش : « أهـجـهـم وجبريل معك^(٣) » وقال له وهو يسمع
 هجاءه إياهم : « إن هذا لأشد عليهم من وقع النبل . »^(٤) ولم يشهد حسان موقفاً
 مع النبي ، لأن جنبه كان يحول بينه وبين ذلك . إلا أن نصره إياه بلسانه قام
 مقام نصره إياه بسيفه . وكان النبي (ص) يجري عليه العطاء من بيت مال
 المسلمين ويفرض له في الغنائم كما لو كان مقاتلاً . وفعل الخلفاء بعده فعله معه فعاش
 مكفي المؤونة مطمئن البال إلى أن مات سنة (٥٤) للهجرة وقد بلغ العشرين بعد
 المئة فيما يزعم الرواة .

(ب) أخلاقه : أبرز ما في أخلاق حسان جنبه ، فمن المعلوم أنه لم يشهد مع
 النبي موقفاً ما . وقصة إحتجابه عن قتل الجاسوس اليهودي وعن سلبه أيضاً بعد
 أن قتله صفية بنت عبد المطلب من الشهرة بمكان . ومع ذلك كان يحب أن
 يوهم نفسه أنه شجاع شديد البأس عظيم البطش !! [روي أنه كان يخضب شاربه

(١) الأغاني ج ١٤ ص ٣ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٢) وصفت حسان بأنه شاعر النبي الأول لأن عبد الله بن رواحة وكمب بن مالك الأنصاريين
 كانا يشاركانه في هجو مشركي قريش والدفاع عن النبي والمسلمين . ولكنه كان أقدر
 الثلاثة على أداء هذه المهمة كما قدمت .

(٣) الأغاني ج ٤ ص ٤ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ٦

وَعَنْقَرَتَهُ^(١) بِالْحَنَاءِ ، وَلَا يَخْضِبُ سَائِرَ لَحْيَتِهِ . فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ :
« يَا أَبَتِ ، لِمَ تَفْعَلُ هَذَا ؟ » فَأَجَابَ : « لَا كُونَ كَأَنِّي أَسَدٌ وَالْغُيُورُ فِي دَمٍ » !^(٢)
أَمَّا فَخْرُهُ بِشَجَاعَتِهِ الْمَوْهُومَةِ فِي شَعْرِهِ فَأَنَّهُ كَثِيرٌ جَدًّا سَأَذْكَرُ مِثْلًا مِنْهُ فِي مَكَانٍ
آخَرَ مِنْ هَذَا الْفَصْلِ . وَهُوَ إِلَى هَذَا مُعْجَبٌ بِشَعْرِهِ كُلِّ الْأَعْجَابِ . رَوَى أَنَّهُ
أَنشَدَ النَّابِغَةَ فِي سَوْقِ عَكَازٍ وَكَانَتْ الْخَنَسَاءُ وَالْأَعْشَى فِي جُمْلَةٍ مِنْ أُنْشُدَهُ . فَقَالَ
النَّابِغَةُ لِلْخَنَسَاءِ : لَوْلَا أَنَّ أَبَا بَصِيرٍ - يَعْنِي الْأَعْشَى - أُنْشَدَنِي ، لَفَضَلْتُكَ عَلَى جَمِيعٍ
مِنْ حَضَرِ الْمَوْسِمِ مِنَ الشُّعْرَاءِ . فَغَضِبَ حَسَانٌ لَذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا وَقَالَ لِلنَّابِغَةِ :
« وَاللَّهِ إِنِّي لِأَشْعُرُ مِنْهَا وَمِنْكَ »^(٣) . وَعِنْدَمَا حَرَضَ النَّبِيُّ (ص) الْأَنْصَارَ عَلَى
الدِّفَاعِ عَنْهُ بِالْسِّنْتِهِمْ قَالَ حَسَانٌ : « أَنَا لَهَا » ، ثُمَّ أَخَذَ بِطَرْفِ لِسَانِهِ وَقَالَ :
« وَاللَّهِ مَا يَسِرُّنِي بِهِ مَقُولُ بَيْنَ بَصْرَى وَصَنْعَاءِ »^(٤) . وَكَانَ يَخْرُجُ لِسَانَهُ وَيَقُولُ :
« وَاللَّهِ لَوْ وَضَعْتُهُ عَلَى شَعْرِ حَلْقَةٍ أَوْ عَلَى صَخْرٍ لَفَلَقَهُ ! »^(٥) . مَعَ أَنَّهُ لَا مِجَالَ
لِلرَّيْبِ فِي أَنَّهُ بَعِيدٌ كُلُّ الْبَعْدِ عَنْ أَنْ يَضَارَعَ نَابِغَةَ بَنِي ذُبْيَانَ وَزُهَيْرِ بْنِ أَبِي سَلَمَى ،
وَعَنْ أَنْ يَضَارَعَ الْأَعْشَى أَيْضًا سَعَةً خِيَالٍ وَدَقَّةَ إِحْسَاسٍ وَقُوَّةَ عَارِضَةٍ .

ج - شعره : حَسَانٌ دَيَّانٌ شَعْرٌ مُتَوَسِّطٌ الْحِجْمِ طَبَعٌ مَرَارًا بِمَصْرٍ وَأُورُوبَا
وَأَنْتِ إِذَا تَصَفَّحْتَ هَذَا الدِّيَّانَ رَأَيْتَ أَنَّ الرِّوَاةَ لَمْ يَكُونُوا شَدِيدِي الْخَطَأِ فِي
اعْتِقَادِهِمْ أَنَّ اللَّيْنَ غَالِبٌ عَلَى شَعْرِ صَاحِبِهِ . وَقَدْ عَلِلَ النِّقَادُ الْقَدَمَاءُ وَالْمُحَدِّثُونَ
الْمُحِبُّونَ لِحَسَانٍ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ بِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ - فَقَالُوا مَا مَوَادُّهُ : إِنْ حَسَانٌ شَاعِرٌ

(١) الْعَنْقَرَةُ : شَعِيرَاتُ بَيْنِ الشَّفَةِ السُّفْلَى وَالذَّقْنِ .

(٢) الْأَغَانِي ج ٤ ص ٣ طَبْعَةُ مَطْبَعَةِ التَّقْدِيمِ بِمِصْرٍ .

(٣) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ ج ٨ ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(٤) » » ج ٤ ص ٤

(٥) الشُّعْرُ وَالشُّعْرَاءُ لِابْنِ قَتَيْبَةَ ص ٦١ طَبْعَةُ مَطْبَعَةِ التَّقْدِيمِ بِمِصْرٍ .

حضرى تذوق النعيم وعرف الترف . وقد لان شعره بسبب لين عيشه الهادىء
الهائىء . وقالوا : « إن الشعر نكمد يقوى فى الشر ويضعف فى الخير . » والاسلام
كله خير وبركة ومن أجل ذلك لان فيه شعر حسان وضعف . وقالوا : إنه نظم
شعره فى مدح الرسول وهجاء المشركين وفيما يجري مجراها من الأغراض
الاسلامية المختلفة وهو شيخ هرم ؛ وانحطاط قوى الجسم يستدعي بالضرورة
انحطاط قوى العقل . وأخيراً قالوا : إنه رجل مكذوب عليه وإن هناك قصائد
ومقطوعات تُروى له مع أنها لا تصح عنه ! . ودافع هو عن نفسه وقد قيل له :
« لقد لان شعرك يا أبا الحسام » - وكان يكتفى بذلك أحياناً - فقال : « إن
الاسلام يحجز عن الكذب ، والشعر يزينه الكذب . » ^(١) ونضيف نحن إلى
هذه الملاحظات العديدة ملاحظة متواضعة . وهي أن طبيعة حسان فى حد ذاتها لم
تكن من الخصب والقوة بالدرجة التى يتمناها له أنصاره ومحبه . ولسنا نقول إنه
غير مجيد ، ولكننا نقول إنه يجيد فى القليل وبس فى الكثير . وقد بسف مع
الاقبال أيضاً . ولك أن ترجع إلى ديوانه لتتحقق ما فى هذا الزعم من الوجاهة
والقوة . إلا أن هذا لا يمنع من القول بأن له غوراً مختارة سما فيها خياله ولطف
أسلوبه وجادت لغته إلى حد بعيد . منها قوله فى مذهبه : -

لعمرك أليك الخير يا شعث ^(٢) مانبا	علي لساني فى الخطوب ولا يدي
لساني وسيفي صارمان كلاهما	ويبلغ مالا يبلغ السيف منودي
وإن أك ذا مال قليل أجذب به	وإن يهتصر عودي على الجهد محمد

(١) الفصل ج ١ ص ١٠٩ - ١١٠ مطبعة مصر سنة ١٣٥٢ ١٩٣٤ م

(٢) شعث : مرخم شماء . وهي إحدى زوجتي حسان اللتين طالما تفتى باحبيهما وهما عمرة
وشماء

أَكْثَرُ أَهْلِي مِنْ عِيَالٍ سِوَاهُمْ وَأَطْلُوِي عَلَى الْمَاءِ الْقَرَّاحِ الْمُبَرَّدِ
وَإِنِّي لَمُعْطٍ مَا وَجَدْتُ وَقَاتِلْ لِمَوْقِدِ نَارِي لَيْلَةَ الرِّيحِ أَوْقِدِ
وَقَوْلُهُ فِي أُخْرَى :

لَنَا حَاضِرٌ فَعِمَ ^(١) وَبَادِرٌ كَأَنَّهُ شَمَارِيخُ رَضْوَى عِزَّةٍ وَتَسْكُرُ مَا
مَتَى مَا تَزِنَا مِنْ مَعْدٍ بِعَصْبَةٍ وَغَسَّانَ نَمْنَمٍ حَوْضَنَا أَنْ يُهْدِمَا
بِكُلِّ فِتْنَى عَارَى الْأَشْجَمِ ^(٢) لَاحَهُ قِرَاعِ السَّكَاةِ يَرْشَحُ الْمُسْكُ وَالْدَمَا

نُسُودُ ذَا الْمَالِ الْقَلِيلِ إِذَا بَدَتْ مُرُوءَتُهُ فِينَا وَإِنْ كَلَنْ مَعْدِمَا
وَإِنَّا لَنَقَرِّي الضَّيْفَ إِنْ جَاءَ طَارِقًا مِنْ الشَّحْمِ مَا أَمْسَى صَحِيحًا مُسَلِّمًا

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَا وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا
أَبَى فَعَلْنَا الْمَعْرُوفَ أَنْ نَنْطِقَ الْخَنَا وَقَاتِلْنَا بِالْعُرْفِ إِلَّا تَكَلَّمَا

وَقَوْلُهُ فِي قَصِيدَةٍ يَهْجُو بِهَا الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ أَحَدَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَبِعَبِيرِهِ
فِرَارُهُ يَوْمَ بَدْرَ :

إِنْ كُنْتَ كَاذِبَةً الَّذِي حَدَّثَنِي فَنَجُوتِ مَنْجَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ
تَرَكِ الْأُحْبَةَ أَنْ يَقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طَمْرَةٍ وَلِجَامٍ
وَقَوْلُهُ مِنْ أَيْتَاتِ :

أَصَوْتُ عَوْضِي بِمَالِي لَا أَدْنَسُهُ لَا بَارِكَ اللَّهُ بَعْدَ الْعَرَضِ فِي الْمَالِ
أَحْتَالُ الْمَالِ إِنْ أَوْدَى فَأَجْمَعُهُ وَلَسْتُ لِلْعَرَضِ إِنْ أَوْدَى بِمَحْتَالِ

(١) فَعِمَ : مَمْلَىءٌ

(٢) الْأَشْجَمُ : أَصُولُ الْأَصَابِيغِ مُفْرَدُهَا أَشْجَمٌ

ولامية حسان في آل جفنة وهزيتة التي يرد بها على أبي سفيان بن الحارث
دفاعاً عن النبي ويهجو مشركي قريش مشهورتان جداً ، ومع ذلك أحب أن أروي
لك أنفس ما فيها على سبيل الأنصاف لحسان ، قال في الأولى :

لله درّ عصابة نادمهم يوماً بجلق في الزمان الأول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم الفضل
يفشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول
وقال في الثانية يخاطب قريشاً :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء^(١)
يبارين الأسنة مصفيات على أكتافها الأسل الظاء^(٢)
تظلّ جيادنا متمطرات^(٣) تلطمهن بالخر النساء^(٤)
فاما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
والا فاصبروا لجلاد يوم يعين الله فيه من يشاء

(د) ومما ينبغي التنويه به في هذا المقام قدرة حسان على الارتجال . روي أن
وفد تميم قدم على النبي (ص) فقال له متكلموه : إننا جئنا لنفاخركم . وقد جئنا
بشاعرنا وخطيبنا ، فقام خطيبهم وتسكلم فقام ثابت بن قيس بن شماس وأجابه ،
وقام الزبرقان بن بدر وقال :

(١) كداء : اسم نفية في جبل بقرب مكة دخل منها الزبير يوم الفتح

(٢) مصفيات : مائلات برؤوسهن الى فرسانهن كمن يستمع الى شيء . الأسل : الرماح

(٣) متمطرات : يسبق بعضها بعضاً

(٤) ضرب النساء وجوه الخيل بخمورهن عادة بدوية تشير الى طلب المغلوب صفح الغالب .

نحن الملوك فلاحيّ يقاربنا
تلك المكارم حزناتها مقارعة
كم قد نشدنا من الأحياء كلهم
ونحمر السكوم عبطاً في منازلنا
وننصر الناس تأتينا سراتهم
فنهض حسان ورد عليه بايات هذا أهمها :

إن الذوائب من فخر وإخوتهم
يرضى بها كل من كانت سريره
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
سجية تلك منهم غير محدثة
لا يرقع الناس ما أوهت أكتفهم
إن كان في الناس سباقون بعدهم
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم
يسمون للحرب تبدو وهي كالخلة
لا يفرحون إذا نالوا عدوهم

خذ منهم ما أتوا عفواً وإن منعوا

أكرم بقوم رسول الله قائدهم
أهدى لهم مدحي قلب يؤازره

إذا تفرقت الأهواء والشيعة
فيما أراد لسان حائك صنع^(٣)

(١) ربيع الغنيمة : ما يأخذه الرئيس منها في الجاهلية

(٢) السكوم : جمع كوما وهو الناقة العظيمة السنم . عبط : جمع عبيط وهو الطري السمين

(٣) الأغاني ج ٤ ص ٧-٩ طبعة مطبعة التقدم بمصر . وللقصة بقية أهميتها لأنني لم أستحسن فيها شعر حسان .

في بعض هذه الأبيات لين ظاهر ، لا أشك في أنك تحسه في طائفة منها ، وفي بعضها فضول لا مبرر له سوى النزول على حجم الوزن والقافية . من ذلك قول حسان في البيت الثاني : « وبالأمر الذي شرعوا » ، إذ المعنى تام بدون هذه الجملة ، ولك أن ترجع إلى البيتين الأول والثاني لتتأكد أن الجملة زائدة . ومنها قوله في البيت الخامس : « عند الرقاع » فمن الواضح أن مراعاة الوزن وحدها هي التي دعت إلى استعمال هاتين الكلمتين . وقوله في البيت السابع « ولا يزري بهم طمع » ففي قوله « لا يطمعون » غنى عن قوله : « ولا يزري بهم طمع » ولكن في القطعة أبيات حسنة منها : « قوم إذا حاربوا البيت » ومنها : « لا يفرحون . . البيت » ومنها : « خذ منهم . . البيت » . فإذا أضفت إلى ذلك أن الأبيات قيلت ارتجالاً في موقف مساجلة ومباهلة تبين لك أنها ثمرة بديهة حاضرة وتناجُ قريحة سمحة . ومن الإطالة التي لا طائل تحتها أن نكرر هنا ما أشار إليه الاسكندر بن بايجاز في « المفصل » وشرحه البستاني بأسهاب في كتابه : « أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام » من إدخال حسان ألفاظاً جديدة في الشعر ، هي الألفاظ الإسلامية ، ومن ابتداعه عنصراً جديداً هو المديح السياسي الذي نما وتطور حتى كان له شأنه في أيام بني أمية .

هـ - والخلاصة : أن الدور الذي لعبه حسان في الدفاع عن النبي (ص) والدود عن أعراض المسلمين ، والغرر العديدة المتناثرة في قصائده ومقطوعاته وقدرته الحسنة على الارتجال كل ذلك خليق أن يحمل مؤرخي الأدب العربي ونقادهم على العناية به والاهتمام بأشعاره وأخباره .



الخنساء

أ - سيرتها : اسمها ولقبها ونسبها . مولدها ونشأتها . خطبة دريد بن الصمة إياها . رفضها له . أزواجها وأولادها . علاقتها بأخوها صخر ومعاوية . مقتلها . حزنها عليها . ما دار بينها وبين عائشة بصدد حزنها على أخيها صخر . ما قيل عن اجتماعها بالنابغة الذبياني في سوق عكاظ . إسلامها . مقتل أولادها في حرب القادسية . عطف عمر بن الخطاب عليها . وفاتها .
ب - شعرها : ديوانها . شيوع الانتحال فيه . مثل من الشعر المحمول عليها .
قد هذه المثل .

ج - ما يصح لها من الشعر . سماته . مثل منه .

د - خاتمة .



(أ) وهذه شاعرة لا تنتمي إلى مدرسة ذات طريقة معروفة في قرص الشعر كمدرسة زهير بن أبي سلمى أو حسان بن ثابت ؛ ولكنها تؤلف بمفردها مدرسة مهمة هي مدرسة الشعر العاطفي ، ذلك لأنها اختصت بالثناء والثناء الصادق . وأنت تعلم أن هذا الضرب من الشعر ترجمان العواطف وديوان المشاعر والانفعالات ، وشاعرتنا هذه هي الخنساء بنت عمرو بن الحرث بن الشريد من سليم إحدى قبائل مضر . ولدت في الجاهلية ، ومن العبث أن نحاول معرفة تاريخ ميلادها لأن أحدًا لم يُعن بهذا في حينه ولا في العصور الإسلامية الأولى .

واسمها تماضر ، والخنساء لقب غالب عليها ، وهو مشتق من الخنس الذي هو

« تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة ، وهي صفة مستحبة أكثر ما تكون في الظباء وبقر الوحش . » وكانت شاعرتنا رائعة الأدب بارعة الجمال :
 رآها دريد بن الصمة الشاعر الفارس المشهور « تهناً بعيراً » أي تطلبه بالقطران
 وهي متبذلة ، فأحبها ، وقال فيها :

حيوا تماضر واربعوا صهي	وقفوا فان وقوفكم حسبي
أخناسُ قد هام الفؤاد بكم	وأصابه تبل ^(١) من الحب
ما إن رأيتُ ولا سمعت به	كاليوم طالي ^(٢) أينق جرب
متبذلاً تبدو محاسنه	يضع الهناء مواضع النقب ^(*)

ثم خطبها و كان شيخاً ، فردته لشيخوخته وآثرت الحياة مع أحد فتيان قومها على الحياة معه . وشق ذلك على العاشق الشيخ فهبها الفتاة بأبيات أجابته بمثلها وأنت تجد الجميع في الجزء الثالث عشر من الأغاني إذا شئت . ويزعم بعض شراح ديوان الشاعرة أنها تزوجت أربع مرات ، ولكن الظاهر أنها لم تزوج سوى مرتين . وزوجها الأول هو عبد العزيز أو عبدالله بن عبد العزيز من بني خفاف ، أما زوجها الثاني فهو مرداس بن أبي عامر السلمي ، وقد رزقت من زوجها الأول ولداً واحداً على ما يظهر ، هو عبدالله المعروف بأبي شجرة وهو فارس شاعر ، أما أولادها الأربعة الآخرون وهم يزيد ، ومعاوية ، وعمر ، وسراقة ، وابنتها عمرة التي شهدت زواجها وهي عجوز مسنة في أيام معاوية ، فكلهم من زوجها الثاني .

و كان لها أخوان يقال إنها كانا من أجمل فتيان زمانها هما صخر ومعاوية .

(١) في الشعر والشعراء طبعة مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٢ . للهجرة ص ٧٣ « خبل »

(٢) في الشعر والشعراء « هانيء »

(*) الأغاني ج ١٣ ص ١٣٠ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

وكانت تحبها حباً جماً وقد قتلا في حروب قبيلة ذكرها صاحب الأغاني بتفصيل في الجزء الثالث عشر من كتابه ، فخرنت عليها حزناً شديداً . وكانت أشد ما تكون حزناً على صخر لأنه كان يحبها ويكبر أخلاقها ويواسيها في ماله كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

روي أن الحنساء دخلت على عائشة أم المؤمنين (رض) وعليها صدر من شعر ، فقالت لها عائشة : « أخناس ؟ » فقالت : « لييك يا أماء » قالت : « أتلبسين الصدر وقد نهى عنه في الاسلام ؟ ! » فقالت : « لم أعلم بنهيه » قالت : « ما الذي بلغ بك ما أرى ؟ ! » قالت : « موت أخي صخر » ثم وصفت لها ما كانت تلقى عنده من عطف ورعاية ، وشرحت السبب الذي حدا بها لاتخاذ هذا الصدر ، فقالت : « إن لصداري سبباً ، وذلك أن زوجي - ويقول صاحب الروائع : ولعلها تريد زوجها الأول عبدالعزيز - كان رجلاً متلافاً للاموال ، يقامر بالقداح فأتلف فيها ماله حتى بقينا على غير شيء . فأراد أن يسافر ، فقلت له : أقم وأنا آتي أخي صخرأ فأسأله . فأتيته وشكوت إليه حالنا وقلة ذات يدينا فشاطرني ماله ، فانطلق زوجي فقامر به فقمر حتى لم يبق لنا شيء . فعدت إليه في العام المقبل أشكو إليه حالنا فعاد لي بمثل ذلك ، فأتلفه زوجي ، فلما كان في الثالثة أو الرابعة خلت بصخر امرأته فعذلته ثم قالت : إن زوجها مقامر وهذا ما لا يقوم له شيء . فان كان لابد من صلتها فأعطاها أخس ماله ، فلما هومتلف والخيار فيه والشرار سيان . فأجابها بقوله :

والله لا أمنعها خيارها وهي حصان قد كفتني عارها
ولو هالكت خرقت خمارها وجعلت من شعر صدرها

ثم شطر ماله فأعطاني أفضل شطريه ، فلما هلك اتخذت هذا الصدر ، والله

لا أخلف ظنه ولا أكذب قوله ما حيت^(١)

والمعروف أن الخنساء لقيت النابغة الذبياني في سوق عكاظ وأنشدته بعض قصائدها ففضلها على جميع من حضر الموسم من الشعراء عدا أعشى بكر . ولكننا نرفض هذه الرواية رفضاً باتاً لأنها تقول إن النابغة فضلها على من أنشده من الشعراء لقولها :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
ونحن نكر أن يكون هذا البيت للخنساء لما فيه من ذكر الامامة والتنويه بالهداة من الناس . ومن الثابت الذي لا نزاع فيه أن الجاهلية لم تكن تعرف إماماً ولا مأموماً وإنما ذلك من صنع الاسلام . أما الهداية فليست مما تصف به شاعرة جاهلية أخاها . إن الخنساء تصف صخرأ بالشجاعة والجرأة وغزارة الجود . ولكنها لا تصفه مطلقاً بأنه رجل هداية وورع وقوى وصلاح . أضف إلى ذلك أن في القصيدة أبحاثاً أخرى كثيرة سأتكلم عنها في مكان آخر من هذا الفصل تدل على أنها مفتعلة منقولة .

وقدمت الخنساء على النبي (ص) في وفد سليم فأسلمت في جملة من أسلم من قومها . وكان النبي (ص) يستحسن شعرها ويكبر مواهبها . وحضرت الشاعرة حرب القادسية سنة (١٤) للهجرة ومعها أولادها يزيد ومعاوية وعمرو وسراقة، فحرضتهم على القتال أجمل تحريض ، وكان أولادها عند حسن ظنهم بهم فقاتلوا حتى قتلوا . ولم يفزعها خبر قتلهم ، بل اكتفت أن عقببت عليه بقولها :
« الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته »^(٢)

(١) أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء ص ٢٠ — ٢١ طبعة المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١ — ٢٢ .

وفي هذا ما فيه من الدلالة على رباطة جأش الشاعرة وقوة إيمانها . وعرف لها الخليفة عمر هذا فأجرى عليها أرزاق أولادها الأربعة مدة حياته .

وتوفيت الشاعرة بالبادية في خلافة معاوية ، ولا سبيل إلى معرفة تاريخ وفاتها بالضبط ، كما أنه لا سبيل إلى معرفة تاريخ ولادتها بصورة من الصور .

(ب) شعرها : للخنساء ديوان غني به الشراح القدماء وطبع مراراً عديدة في بيروت ومصر وأوروبا ، ولكنك لا تمن النظر في هذا الديوان حتى تدرك أنه يحتوي على قصائد ومقطوعات كثيرة لا يكاد يصح منها شيء . فليس من شك أن الرائية التي مطلعها :

قذى بعينك أم بالعين عوّار أم ذرّفت إذ خلت من أهلها الدار
والتي زعموا أنها حدت بالنابغة الذبياني إلى تفضيل الخنساء على كل من حضر الموسم من الشعراء ، مكذوبة منحولة ، ليس فقط لاشتغالها على البيت الذي تقدم تقدمه في أثناء الكلام عن حياة الخنساء وهو : « وإن صخرأ لتأتم الهداة به ... الخ » بل لاشتغالها على كلام بالغ منتهى السخف مثل هذا البيت :

كأن دمعي لذكره إذا خطرت فيض يسيل على الخدين مدرار
فمن الواضح أن كل ما في هذا البيت هو تشبيه دمعة تفيض بدمعة تفيض . ولاشتغالها على كلام متكافئ كل التكلف مثل هذه الأبيات :

وما عجول على بوّ تطيف به لها حنينان إصغار وإكبار^(١)
ترتع مارتعت حتى إذا أدّكرت فأنما هي إقبال وإدبار
لاتسمن الدهر في أرض وإن ربعت فأنما هي تخان وتسجار^(٢)

(١) العجول : التي يموت ولدها وهو صغير : البو : ولد الناقة يؤخذ جلده إذا هلك فيحشى ويدن من أمه فترأّمه وتدر عليه .

(٢) ربعت : أصابها مطر الربيع . التسجار : الحنين الممتد الطويل .

يوماً بأوجد مني يوم فارقي صخر وللدهر إحلاء وإمرار
فما أظنك توافق على أن شاعرة بدوية ثاكلة تعمل رويتها في إعداد هذه
المطابقات المتعاقبة . ثم ما معنى الاصغار والا كبار في الحنين ؟ ! . أهنالك حنين
صغير وحنين كبير ؟ ! .. لهذا التعبير المفتعل نظير في الأدب العربي ؟ ! .. وليس من
شك في أن الالامية التي مطلعها :

ألا ما لعيني ! ألا مالها ! وقد أخضل الدمع سربالها
مفتعلة مكذوبة كذلك ، لأنها تشتمل على إبطاء لا نظير له في القريض
العربي ، وهو تكرر قافية واحدة في ستة أبيات تبدأ بالبيت الخامس وتنتهي
بالبيت الحادي عشر ، هذا فضلاً عن تكرر هذه القافية وهي كلمة « لها » خمس
مرات أخرى في القصيدة ، ولأنها تشتمل على كلام إسلامي لا غبار عليه مثل
هذين البيتين :

فخر الشوامخ من قتله وزلزلت الأرض زلزالها
وزال السكواكب من فقده وجلت الشمس أجلاها^(١)
ولأنها تشتمل على كلام لا معنى له مطلقاً مثل هذا البيت :
فنفسي الفداء له من فقيد (أبت أن تزايل إعواها)
وهذا البيت :

ويوماً تراه على لذة وعيش رخي^(٢) (فقد نالها)
فما لا شك فيه أن معنى البيت الأول ينتهي باتهاء الصدر ولا محل لتأويل
العجز بوجه من الوجوه وأن معنى البيت الثاني ينتهي بجملة « عيش
ورخي » و « فقد نالها » جملة زائدة غير مفهومة . وفي الامكان إعطاء أمثلة أخرى

(١) ينبغي أن يلاحظ أن هذين البيتين ، علاوة على أنهما إسلاميان من حيث لفظهما
وخيالهما ، سخيفان إلى درجة لا يمكن معها صدورها عن شاعرة كالحنساء .

كثيرة من الشعر المفتعل المحمول على الخنساء . ولكننا نكتفي بما تقدم رغبة في الإيجاز .

(ج) ولكن أليس لصاحبة الترجمة شعر يمكن قبوله وإقراره على أنه من صنع شاعرة شهدت العصر الجاهلي وبرزت فيه وشهدت صدر الاسلام وبرزت فيه كذلك ؟!

بلى ، إن لها لطائفة من القصائد والمقطوعات لا يكاد يتطرق إليها الشك . وتمتاز هذه القصائد وتلك المقطوعات بسمات عديدة ، هي قوة العاطفة ودقة الوصف وجلالة التعبير وصفاء الديباجة . مثال ذلك هذه الأبيات التي أقتطفها لك من سينيتها الشهيرة التي ترثي بها أخاها صخرأ .

يذكرني طلوع الشمس صخرأ	وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي	على إخوانهم لقتلت نفسي
ولكن لا أزال أرى عجولاً	وباكية تنوح ليوم نحس
أراها والهدأ تبكي أخاها	عشية رزئه أو غبّ أمس
وما يبكين مثل أخي ولكن	أعزّي النفس عنه بالتأسي
فلا والله لا أنساك حتى	أفارق مهجتي ويشق رمسي
فقد ودعت يوم فراق صخر	، أبي حسان ، لذاتي وأنسي
فيا لهفي عليه ولهف أمي	أصبح في الضريع وفيه يمسي ؟!

وهذه الأبيات التي تصف بها مسابقة بين أبيها وأخيها صخر :

جاري أباه فأقبلا وها	يتعاوران بملاءة الفخر ^(١)
حتى إذا نزت القلوب وقد	لزّت هناك العذر بالعذر ^(٢)

(١) الملاءة : الربطة ، يتعاورانها : يتجاذبانها . والمراد بملاءة الفخر غبار الحلبة .

(٢) العذر : جمع عذار ، وهو هنا ما سال على خد الفرس من اللجام . ولزّت العذر : احتك بعضها ببعض .

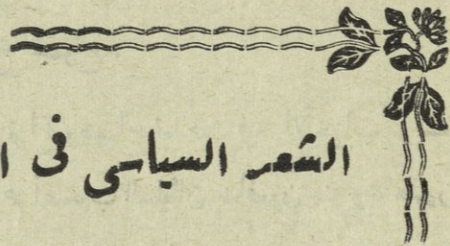
وعلا هتاف الناس: «أيهما؟» قال المجيب هناك: «لا أدري!»
 برزت صفيحة وجه والده ومضى على غلوائه يجري
 أولى ، فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكبر
 وهما كأنها ، وقد برزا ، صقران قد حطا على وكر

فما أشك في أنك تحس في المثال الأول حرارة الألم ومראה الشكل وجيشان
 الزفير وهملان الدموع السخينة ، وما أشك كذلك في أن المثال الثاني يرسم لك
 صورة صادقة حلبة يتبارى فيها فارسان سباقان لا يكاد أحدهما يسبق الآخر
 ويزدحم حولها جمهور كبير من المتفرجين تشخص أبصارهم وتشرئب أعناقهم
 نحو المتسابقين وتعلو أصواتهم بالهتاف كلما تقدم أحدهما نحو الغاية . وللشاعرة
 صفحات أخرى عديدة من هذا القليل ولكن فيما سبق كفاية .

(د) على أن ما يصح من شعر اخفساء لا ينبغي أن يهمننا من حيث هو
 شعر فقط ، بل ومن حيث هو شعر امرأة ، لأنه يعطينا فكرة صحيحة نافعة عن
 تقدم المرأة العربية في نهاية العصر الجاهلي وبداية القرن الأول للهجرة ، وعن الدور
 الذي كانت تلعبه إذ ذاك على مسرح الحياة العقلية .



الباب الثالث



الشعر السياسي في العصر الأموي

أنتقل بك الآن إلى العصر الأموي، وهو عبارة عن الفترة التي تبدأ بتنازل الحسن بن علي سنة إحدى وأربعين للهجرة عن الخلافة لمعاوية وتنتهي بانتزاع العباسيين مقاليد الملك والخلافة من أيدي بني أمية سنة اثنين وثلاثين ومئة للهجرة . وقد قلت لك إني أقسم شعر هذا العصر أقساماً ثلاثة ، هي : الشعر السياسي ، والشعر العاطفي ، والشعر التقليدي . فأحدثك الآن عن كل قسم من هذه الأقسام على حدة ، وأبدأ بالشعر السياسي لأنه أكبر هذه الأقسام شأنًا وأبعدها أثرًا في الحياة العقلية وأشدها صلة بتاريخ المجموع .

كان العصر الأموي عصر نزاع وصراع تعددت فيه الأحزاب وتشعبت الفرق ، فكان الأمويون ، وهم أصحاب السلطان يدافعون عنه ويجاهدون في سبيل استبقائه فيهم واستخلاصه لهم . وكان العلويون وهم أبناء النبي وآله الأقربون ، وكانوا يرون أنهم ورثة خلافته وحكام أمته الشرعيون لأنهم أمس الناس به رحماً وأصلحهم للقيام على تنفيذ سننه وتأييد مبادئه وتعاليمه . وكان الزيريون، وهم آل الزبير بن العوام حواري رسول الله (ص) وابن عمته وأحد رجال الشورى الستة الذين اختارهم عمر لينتخبوا خليفة للمسلمين من بينهم ، وكانوا يذهبون إلى أن الخلافة يجب أن تبقى في قريش عامة وفي أيدي الألفاء منها خاصة ، وكانوا يرون بالطبع أنهم أهل هذه الكفاءة . وكان الخوارج وهم فئة من جيش الامام علي (ع) كانت تعتقد أنه إمام حق ولكنها انشقت عليه بعد التحكيم لأنها اتهمته بالتقصير في أداء واجباته من حيث هو إمام للمسلمين وذلك بقبوله التحكيم في أدق مسألة دينية ألا وهي مسألة الخلافة . وكان لكل

حزب من هذه الأحزاب خطباء وشعراء يعبرون عن آرائه ويدعون إلى اعتناق مبادئه وتعاليمه .

وقد حدثتك فيما سبق عن خطباء هذه الأحزاب ، وسأحدثك الآن عن شعرائها . ولكنني سأكتفي بدراسة كبير شعراء كل حزب لا رغبة في الإيجاز ولكن هذا هو كل ما يقتضيه المقام فيما أحسب . ثم إني لا أريد أن أدرس في هذا المكان شاعراً من شعراء بني أمية ، ذلك لأن الشعراء الذين مدحهم وانقطعوا لهم كأعشى ربيعة ونصيب وأبي العباس الأنعم لم يكونوا شعراء مبادئ . وإنما كانوا مداحين متكسبين ، ومدحهم لبني أمية أو ما وصلنا منه لا يقاس بمدح جرير والفرزدق والأخطل لهم نوعاً ولا كمّاً . وأنا ملّم بمدح هؤلاء الشعراء الثلاثة ومدح كثير عزة أيضاً لابيت الأموي في باب آخر من هذا الكتاب ومتحدث عنه ، ولذلك أرى أن أكتفي بدرس هذا القسم من مدح بني أمية .

أما الآن ، فموضوعنا حياة شاعر الخوارج الأكر : عمران بن حطان وشعره .



شعراء الخوارج عمران بن حطان

—o—

(أ) نشأته وحياته . وفاته .

(ب) شعره : مميزاته . مثل منه .

*
* *

(أ) أطول شعراء الخوارج باعاً وأجودهم شعراً على قلة ما روي له من الشعر
عمران بن حطان ، وهو من سدوس . نشأ في البصرة ورحل إلى الحجاز ، وأخذ
الفقه والحديث عن عائشة وابن عباس وابن عمر وأبي موسى الأشعري . وكان
فقيهاً ثبثاً ومحدثاً ثقة . وقضى معظم أيام حياته على مذهب الجماعة ، إلا أنه تزوج
امراًة خارجية تمت إليه بصلة القربى رغبةً منه في أن يردّها إلى مذهب الجماعة ،
فانعكست الآية وحملته هي على الخروج من مذهبه والدخول في مذهب الشراة^(١) .
وكان عند اعتناقه هذا المذهب شيعاً ، فاكتمى بالدعوة إلى التشري ، ولم يخرج
بالسيف طلباً لاصلاح ما فسد من أمور الناس كما هو شأن الخوارج في الغالب .
فولاه القعدة من الصفرية زعامتهم لمكانه من الفقه والحديث والخطابة والشعر
وغير ذلك من مؤهلات الزعامة عندهم . « والقعدة الصفرية فرقة من الخوارج
تجيز القعود عن الجهاد في سبيل الله إذا لم يكن هذا ميسوراً ، زعيمها ومؤسس

(١) الشراة : هم الخوارج سموا أنفسهم بهذا الاسم لزعمتهم أنهم « شروا أنفسهم ابتغاء

مرضاة الله . »

مذهبها زياد بن الأصفر . وضاق الحجاج ذرعاً بخارجية عمران فطارده وجدّ في مطاردته ، ورأى عمران أن لا أمل له بالبقاء هادئاً مطمئناً في بلد يسيطر عليه الحجاج . فترك العراق إلى سورية ، وصار يتنقل في مدنها وقرائها مستتراً وراء الأسماء والانساب المستعارة، ولكن الحجاج تتبعه وهو في سورية فكتب إلى عبد الملك بن مروان يعلمه خبره ويصف له صورته فاهتم عبد الملك بالأمر وأهدر دم عمران . وحدث أن نزل هذا على روح بن زنباع الجذامي وكان هذا رجلاً كريم الطبع رضي الخلق ، فاطمأن عمران لجواره وأقام في كنفه سنة كاملة مدعيّاً أنه أزدي ، وكان روح من مقرّبي عبد الملك وسمّاره ، فوصف له فقه جاره الأزدي وزهده وورعه وعلمه وأدبه . وعرفه عبد الملك ، فقال لروح : هذا هو عمران بن حطان ، فأنتي به . وأبلغ روح جاره رغبة سيده فظاھر بالسرور وقال له : لقد كنت أريد أن أطلب منك هذا، ولكن الحياء منعي منه ، فاذهب ، وأنا آتٍ بالآثر . وذهب روح إلى عبد الملك ، وذكر له سرور جاره بمقابلته واستعداده للحاق به في الحال ، فقال له عبد الملك : سوف لا تجده في مكانه إذا رجعت فقد فانتك . وصدقت فراسة عبد الملك ، فتدّ أسرع عمران إلى الهرب وترك لروح أيباتاً يعتذر فيها عن مفارقتها إياه ، سأرويهما في مكان آخر من هذا الفصل . واتجه إلى الجزيرة ، فنزل على زفر بن الحارث السكلابي في قرقيسيا وانتسب له أوزاعياً ، فأكرمه زفر وأحسن جواره . وحدث أن رجلاً من أهل الشام ، كان قد رأى عمران عند روح ، قدم على زفر . فلما رأى عمران سلّم عليه وهشّ له . فقال له زفر : أتعرفه ؟ قال : « نعم ، هذا شيخ من الأزد » . فقال زفر لعمران : « يوماً أوزاعياً ، ويوماً أزدياً ؟ ! إن كنت عاثلاً أغنيئك وإن كنت خائفاً آويناك . » فأجابه عمران : « إن الله هو المغني . » ورحل عنه . وله في هذا أيبات أولها :

إن التي أصبحت بعبي بها زفر عيّت عياء على روح بن زنباع

وفي الأبيات ثناء طيب على عشرة روح وجواره . وقصد الشاعر عمان ، وهناك وجد قوماً يرون رأيه ويذهبون مذهبه . فكشف النقاب عن حقيقة وحسنت حاله بعض الشيء . ولكن ما لبث الحجاج أن علم بمكانه ، فجد في مطاردته ، وعاد إلى الاختفاء ، فأتى قرية من قرى الكوفة اسمها روذميسان ، قضى فيها آخر أيام حياته بين جماعة من الأزدهم عشرتهم وأثنى عليهم في أبيات ساروي بعضها لك في المختار من شعره . وكانت وفاته عام ٨٤ للهجرة وقيل ٨٩ والأول أصح .

(ب) شعره : ما بلغنا من شعر عمران قابل جداً ، وليس من المستبعد أن يكون من المقلين لأنه صاحب فقه وحديث وورع ، وهذا كله مما يدعو للانصراف عن الشعر ويحد من الإقبال عليه . ولكن الذي يغلب على ظننا هو أن أكثر شعره قد ضاع أو أُلِفَ عمداً لمخالفته مذهب الجماعة وطعنه على أئمة المسلمين وفي مقدمتهم عثمان وعلي . إلا أن ما بقي من شعره يمثل مذهبه في قرض الشعر تمثيلاً تاماً ، كما أنه يصور شاعريته تصويراً صادقاً ، إذ تمتاز هذه البقية الباقية من شعره بالصدق وأصالة التفكير من جهة ، وبالمثانة وجزالة التعبير من جهة أخرى فقد كان عمران يتوخى الصدق ويؤثر تقرير الحقيقة في شعره ويمقت الكذب أشد المقت ، وكان هذا معروفاً عنه ، حتى لقد انتقدت زوجته قوله :

« وكذلك مجزأة بن ثور » كان أشجع من أسامه »

وقالت له : كيف تفضل رجلاً على أسد من حيث الشجاعة وشدة البأس وأنت تؤثر الصدق ولا تقول غير الحق ؟ ! فقال لها : إن مجزأة فتح بلدة ، والأسد لا يفتح بلدة . ويروى أنه وقف على الفرزدق وهو ينشد في جمع من الناس ، فقال له :

أيها المادح العباد ليعطى إن لله ما بأيدي العباد

فاسأل الله ما طلبت إليهم
 لا تقل في الجواد ما ليس فيه
 وارح فضل المتسم العواد
 وتسم البخیل باسم الجواد
 ويروی أن هذه الأیات للسید الحیري قالها لبشار ، ولكنها منسجمة
 ورأي عمران في الشعر ومتفقة ونزعته فيه كل الاتفاق . وفيما يلي طائفة يسيرة
 من شعره تحس فيها صدقه وتلمس إخلاصه . قال في زوجته حمزة :

يا حمز إني على ما كان من خلقي
 الله يعلم أنني لم أقبل كذباً
 مثنٍ بخالات صدقٍ كلها فيك
 فيما علمت وأني لا أزكيك
 وقال في رداع روح :

يا روح كم من أخي مثوى نزلت به
 حتى إذا خفته فارقت منزله
 قد كنت ضيفك حولاً لا تروني
 حتى أردت بي العظمى فأدر كني
 فاعذر أخاك ابن زنباع فإن له
 يوماً يمان إذا لاقيت ذا يمن
 لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية
 لكن أبت ذاك آيات مطهرة
 قد ظن ظنك من لحم وعصان
 من بعد ما قيل عمران بن حطان
 فيه الطوارق من إنس ومن جان
 ما أدرك الناس من خوف ابن مروان
 في الحادثات هنات ذات ألوان
 وإن لقيت معدياً فعديني
 كنت التقدم في سرّي وإعلاني
 عند التلاوة في طه وعمران
 وقال يثني على مضيفيه الذين لفظ أنفاسه الأخيرة عندهم من الأزد :

نزلنا بحمد الله في خير منزل
 نزلنا بقوم يجمع الله شملهم
 من الأزد، إن الأزد أكرم أسرة
 فأصبحت فيهم آمناً لا كعشر
 أم الحي فحطان ؟ فتلكم سفاهة ،
 نسربنا فيه من الانس والخفر
 وليس لهم عود سوى المجد يعتصر
 يمانية طابوا إذا نسب البشر
 أتوني فقالوا : من ربيعة أو مضر ،
 كما قال لي روح وصاحبه زفر

وما منهم إلا يسرّ بنسبة
فنحن بنو الاسلام والله ربنا
تقربني منه وإن كان ذا نعر
وأولى عباد الله بالله من شكر^(١)

* *

فليس من شك في أن المثال الأول يدل على تخرج عمران وتحفظه حتى في
إطراء زوجته ، وليس من شك كذلك في أن المثالين الثاني والثالث يصوران
أصدق تصوير حياته القلقة المضطربة التي قضاها خلال تسعة أعوام متنقلا من حي
إلى حي ومن مصر إلى آخر . هذا إلى أن المثال الثالث يشير بوضوح إلى قول
عمران بالغناء الفروق بين الناس وبأن المساواة هي المبدأ الذي يجب أن يسود
في الأرض :

« فنحن بنو الاسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر »



(١) بين الأغاني وكامل المبرد خلاف في رواية المثالين الثاني والثالث وقد اخترت من
رواية الكتّابين ما بدلي أنه الصواب . ومما تحسن الإشارة إليه هنا أن بيت عمران
« فنحن بنو الاسلام ... البيت » مأخوذ من قوله تعالى : « ان اكرمكم عند الله
اتقاكم . »

شعراء آل الزبير

عبيد الله بن قيس الرقيات

— 0 —

(أ) تناقض أخباره . ما يستنتج منها على العموم .

(ب) شعره . مثل منه .

* *

(أ) أما آل الزبير فأكبر من دعا لهم ودافع عنهم ونوّه بدولتهم من الشعراء عبيد الله بن قيس الرقيات، وهو شاعر قرشي مقدم، عرف بالرقيات لأنه تغزل بثلاث نسوة تدعى كل منهن رقية . ومن الغريب أن كتب الأدب لا تشير إلى مولده ولا وفاته بشيء . وقد عبث الرواة بأخباره عبثاً شديداً وعبثوا بشعره عبثاً شديداً كذلك ، ولك أن تقرأ هذه الأخبار المتناقضة التي رواها أبو الفرج الاصبهاني في الجزء الرابع من الأغاني والتي تتعلق باختفائه بعد قتل مصعب والتجائه لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وشفاعة هذا له عند عبد الملك بن مروان وعفو الأخير عنه لتبيين مبلغ ماحل الرواة عليه من أكاذيب وأساطير . أما عبثهم بشعره فيكفي للدلالة عليه هذه الهمزية التي مطلعها : « أفقرت بعد عبد شمس كداء ... الخ » فإن هذه القصيدة أموية شديدة الميل إلى بني أمية في أولها ، زبيرية شديدة الميل إلى آل الزبير في مكان آخر منها ، علوية شديدة الميل إلى آل علي في مكان آخر . وهاك مثلاً من القصيدة يمثل كل منها نزعاً من هذه النزعات المتناقضة المتضاربة . فما يمثل عطف القصيدة على الأمويين هذاب البيتان :

أفقرت بعد عبد شمس كداء فكدي فالركن فالبطحاء
 فنى فالجار من عبد شمس مقفرات فبلدح فخرأ
 ومما يمثل ميلها إلى آل الزبير ومناصبها العداء لبني أمية هذه الأبيات :
 إنما مصعب شهاب من الله تجلّت عن وجهه الظلماء
 ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت كلا ولا كبرياء^(١)
 كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء
 تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن براها العقيلة العذراء^(٢)
 ومما يمثل عطفها على العلويين وتقمّتها على بني أمية أيضاً هذان البيتان :
 أنا عنكم بني أمية مزور وأنتم في نفسي الأعداء
 إن قتلني بالطف قد أوجعتني كان منكم لئن قتلتم شفاء
 فواضح أن المثال الأول يشف عن عطف ظاهر على بني أمية ، وأن المثال
 الثاني يعرب عن نزعة زبيرية لا تقبل الجدل ، وأن المثال الثالث دمة حارة على
 قتل الطف من آل علي . ولست أدري كيف رويت هذه القصيدة الأموية
 الزبيرية العلوية على أنها من نظم هذا الشاعر الزبيري دون أن يظن أحد إلى
 ما فيها من تناقض وتباين ودون أن يظن أحد كذلك إلى استحالة اتحاد هذه
 النزعات والأغراض المختلفة في نفس شاعر واحد . وأغرب من هذا أن الأستاذ أحمد
 الشايب روى كل ما تقدم منها في كتابه « تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف
 القرن الثاني » المطبوع بمطبعة الاعتماد بمصر عام ١٩٤٥ دون أن ينتبه إلى ما في
 هذه الأبيات من تباين وتناقض .

(١) يختلف الرواة في بعض ألفاظ هذا البيت وقد آثرت أفضل الروايات .

(٢) البراءة : جرم برة وهي الخلل .

ومع ذلك بخيل إلي أنه من الممكن أن نخرج من أخبار ابن قيس الرقيات هذا بخلاصة يمكن الاطمئنان إليها بعض الشيء ، فنحن نستطيع أن نقرر أنه كان زيري الهوى وأنه خرج مع مصعب بن الزبير إلى العراق وبقي معه إلى أن قتل ، وأنه اختفى بعد قتل مصعب مدة من الزمن جد في أثنائها رجال عبد الملك في طلبه والبحث عنه ، وأنه لجأ بعد هذا الاختفاء إلى عبدالله بن جعفر ورجاه أن يشفع له عند عبد الملك فشفع له وقبلت شفاعته . ونستطيع كذلك أن نقرر أنه اتصل بعد عفو عبد الملك عنه ببني أمية اتصالاً وثيقاً حتى أنه تدخل في مسألة ولاية العهد ، وعندما أراد عبد الملك بن مروان أن ينحي أخاه عبدالعزيز عن ولاية العهد ويحل ابنه الوليد محله كان ابن قيس الرقيات في جانب عبد العزيز وبلغ خبره عبد الملك فغضب وتوعدله .

(ب) أما شعره فانه مطبوع لطيف الديباجة رقيق الحاشية أروي لك منه هذه الأبيات في مديح مصعب بن الزبير :

على بيعة الاسلام بايعن مصعباً	كراديس من خيل وجمعاً مباركاً
تدارك أحرانا وتمضي أمامنا	وتتبع ميمون النقية ناسكاً
إذا فرغت أظفاره من كتيبة	أمال على أخرى السيوف البوانكا

وهذين البيتين في مديح أخيه عبدالله :

وابن أسماء خير من مسح الركن فعالاً وخيرهم بنيانا
وإذا قيل من هجاء قریش كنت أنت الفتى وكنت الهجانا
ولكنني قد لا أخطيء إذا قلت لك إن مديحه لبني أمية أتقى ديباجة
وأمتن أسلوباً من مدحه لآل الزبير ، اسمع قوله في قصيدته التي يعتذر بها إلى عبد الملك ويلتمس صفحه :

ما نعموا من بني أمية إلا أنهم يجلمون إن غضبوا

وأنهم معدن الملوك فما تصالح إلى عليهم العرب
 إن الأغر الذي أبوه أبو العاصي عليه الوقار والحجب
 خليفة الله فوق منبره جفت بذاك الأقلام والكتب
 يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب
 وقل مثل ذلك عن مديحه لعبد الله بن جعفر ، اسمع منه هذين البيتين :
 إذا زرت عبد الله نفسي فداؤه رجعت بفضل من نداه ونائل
 وإن غبت عنه كان للود حافظًا ولم يك غني في المغيب بغافل
 أما غزله فانه رقيق ، إلا أنه غير أصيل ، اقتطف لك منه هذه الايات :
 حب ذاك الدل والغنج والتي في عينها دمع
 والتي إن حدثت كذبت والتي في وعدّها خلج
 وترى في البيت صورتها مثل مافي البيعة السرج
 خبروني هل على رجل عاشق في قبلة حرج ؟



شعراء آل علي

الكهيت بن زيد

—O—

(أ) حياته : نسبه وكنيته . مولده . نشأته وثقافته . تشيعه . رضا أهل البيت عنه . بعض أخباره معهم . صلته بخالد بن عبد الله القسري . تنكر هذا له بسبب هجائه اليمن . وشأته به إلى هشام بن عبد الملك . أمر هشام بقتله . سجنه . هربه . التجاؤه إلى بني أمية . صفح هشام عنه . عودته ظافراً إلى الكوفة . موقف أهل البيت الأخير منه . وفاته .

(ب) صفاته : ما يقوله القدماء عنها . صراحته . راحة صدره . حسن حيلته .

(ج) شعره : ما وصلنا منه . الهاشميات : أغراضها . لغتها وأسلوبها . خلاصة رأي الكهيت في الدين والسياسة . موقفه من أبي بكر وعمر . موقفه من بني أمية . مثل من شعره .

(د) خاتمة .



بين شعراء القرن الأول للهجرة عدد كبير تشيع لآل عليّ ونوه بفضيلتهم وتمنى قيام دولتهم، منهم أبو الأسود الدؤلي وأيمن بن خريم وكثير عزّة والكهيت بن زيد ، ولكن النزعة السياسية لم تغلب على شعر أحد منهم سوى الكهيت . فأبو الأسود الدؤلي على صحبته للامام عليّ عليه السلام وعظم منزلته عنده لم يترك لنا في مدح العلويين سوى أبيات قليلة . ولم يكن ما وصلنا من مدح أيمن بن خريم

لهم أكثر مما وصلنا من مدح أبي الأسود . أما كثير عزة فقد غلب عليه الغزل بصاحبته عزة والمديح لآل مروان الذين كان يعاديهم في السر ويواليهم ويمدحهم في العلانية طمعاً بالمال . ولست أنفي أن يكون قد قال الشعر في آل علي والسكني أنفي أن يكون شعره فيهم خليفاً بالدرس نظراً لتفاوته وقلته . ومن أجل هذا رأيت أن لا أدرسه على أنه شاعر من شعراء هذا الحزب ^(١) وعلى هذا لا يبقى في قائمة الشعراء المتشيعين لآل علي شاعر ينبغي التحدث عنه في هذا المقام سوى السكيت بن زيد فإلى الحديث عنه :

(أ) وهو السكيت ^(٢) بن زيد ، من أسد إحدى قبائل مضر ، وكنيته أبو المستهل . ولد سنة ستين للهجرة في الكوفة ، وبها نشأ وقرض الشعر ودرس أنساب العرب وأخبارهم وأيامهم وأشعارهم ، فكان ثقة في هذا كله . والمعروف أنه أخذ علمه عن جدتين له كانتا تعرفان الجاهلية وأهلها وأيامها وأخبارها معرفة واسعة . وليس في هذا ما يبعث على الاستغراب ، لأن المرأة العربية في ذلك العهد من اليقظة والدراية بحيث تستطيع أن تلعب مثل هذا الدور . ومهما يكن من شيء فإن مؤرخي الأدب العربي القديم مجمعون على أنه حجة في النسب واللغة ورواية الشعر . ومما يستدلون به على هذا أنه تساجل مع حماد الراوية ذات يوم في مسجد الكوفة فأفحمه وظهر عليه .

وكان علوي الرأي كعامة قبيلته وكعامة سكان مدينته الكوفة ، وقد نافح عن عقيدته الدينية السياسية بشعره فنظم فيها طائفة من القصائد والمقطوعات تسمى

(١) في زعمي أن كثير عزة شاعر تقليدي وسأدرسه عند الكلام عن الشعر التقليدي على أنه من فحول وأعلامه .

(٢) السكيت بن زيد ثالث شعراء ثلاثة كلهم يدعى السكيت ، وكلهم من بني أسد ، وم السكيت بن ثعلبة المعروف بالأكبر ، والسكيت بن معروف بن السكيت الأكبر ، وصاحب الترجمة .

(الهاشميات) هي كل ما نفى به من آثاره . وكان أهل البيت يقدرون موقفه منهم حق قدره ويعرفون له فضله في الدفاع عنهم والتنويه بهم .

روى أنه دخل على الامام محمد الباقر عليه السلام فأمر له بألف دينار وكسوة، فقال له الكميت : « والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردت الدنيا لأتيت من هي في يديه ، واسكني أحببتكم للآخرة . فأما الثياب التي أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركتها ، وأما المال فلا أقبله » فردّه وقبل الثياب ^(١)

وروي أنه دخل على الامام جعفر الصادق رضوان الله عليه وأنشده إحدى هاشمياته ، فلما فرغ قال الامام : « اللهم اغفر للكميت ما قدّم وما أّخر وما أسرّ وما أعلن وأعطه حتى يرضى . » ^(٢)

ودخل على فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام ، فقالت : « هذا شاعرنا أهل البيت ! » وجاءت بقدرح فيه سويق فخر كنه بيدها وسقت الكميت فشربه ، ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب فهملت عيناه وقال : « لا والله ، لا أقبلها . إني لم أحببكم للدنيا . » ^(٣) . وهناك أخبار أخرى تنطق برضى أهل البيت عن الكميت وارتياحهم لما قال فيهم من الشعر ضربنا عنها صفحاً رغبة في الإيجاز .

وكان بنو أمية يجهلون أمره ولا يعرفون شيئاً عن هجائه أو من هجائه لهم حتى اضطره حكيم بن عياش الكلبي ، وهو شاعر يمني متعصب ، بهجائه المقذع لمضر إلى نظم مذهبته التي مطلعها « ألا حيت عنا يا مدينا .. الخ » والتي بهجو فيها اليمن كلها وفي جملتها قبيلة خالد بن عبد الله القسري والي العراق الذي كان يميل قبل هذا التاريخ إلى اصطناعه واسترضائه . فعندها غضب خالد لنفسه

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١١٨ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه

ولقومه وعود على الانتقام من الكميت فروى هاشمياته جارية حسناء أهداها
إلى هشام بن عبد الملك ، وما كادت هذه تغني الخليفة الأموي هاشميات الكميت
حتى غضب أشد الغضب وكتب إلى خالد يأمره بقطع يد الكميت ولسانه . ولم
يكن خالد ليتردد في تنفيذ هذا الأمر ، فسجن الشاعر تمهيداً لتنفيذه فيه ، ولكنه
تماهل لسبب لا نعرفه في التنفيذ ، فأتاح للشاعر فرصة الخروج من سجنه متكرراً
بزي زوجته التي اتفق معها على أن تسهل له الفرار بهذه الطريقة . ولبت صاحبنا
مخفياً في الكوفة مدة من الزمن حتى إذا يئس منه خالد وأعوانه قصد إلى الشام
وأعانه من فيها من بني أسد على الوصول إلى عنبسة بن سعيد بن العاص كبير
الأمويين إذ ذاك وطلب معونته في التماس صفح هشام بن عبد الملك ، فشفع له
عنبسة عند مسلمة بن هشام ورجاه أن يلتمس له صفح أبيه فكان ما أراد . ومثل
الكميت بين يدي هشام ، فقرعه على هجائه بني أمية ومدحه الهاشميين قريعاً
شديداً ، فاستغفر الشاعر مما سلف نظماً وثرأ ، ومن مشهور شعره في هذا المقام
قوله :

فالأَن صرت	إلى أمية والأمور	إلى مصائر
كم قال قائلكم	لعا	لك عند عثرته لعائر
وغفرتم لذوي الذنوب	ب من الأَكابر والأَصَاغر	
أبني أمية إنكم	أهل الوسائل والأوامر	
تقي لكل ملعة	وعشيرتي دون العشاير	

وانتهى هذا الموقف إلى صفح الخليفة عن الشاعر ، بل إلى الكتابة إلى
خالد بن عبد الله القسري بناء على رغبة الكميت طبعاً أن لا سلطان له على
الكميت منذ الآن . وفرح من في الشام من مضر بالعفو عن الكميت وجمعوا له
مالاً كثيراً وأجازوه هشام جائزة سنوية ، فعاد إلى أهله بالكوفة آمناً موفور

الكرامة كثير المال، ولكن ينبغي أن يلاحظ أن معظم الحوادث التي تتصل بمحنة الكمية هذه وما انتهت إليه من عفو هشام عنه مروى بصور مختلفة وطرق متعددة . وأبو الفرج يروي هذه الأخبار المتناقضة المتضاربة كلها في الجزء الخامس عشر من كتابه «الأغاني». ولكن يميل إلى أن لباب هذه الأخبار وهو غضب هشام على الكمية بسبب الهاشميات وعفوه عنه بفضل شفاعة أموي كبير ورجوعه إلى أهله آمناً موفور الكرامة والمال أمر لا شك فيه .

وتسألني عن موقف أهل البيت من الكمية بعد هذه الحادثة فأقول لك إنهم أجازوا عمله ورضوا عن تصرفه ولم يروا في مدحه بني أمية خروجاً عليهم أو إساءة لهم .

وذهب الكمية ضحية مغامراته السياسية الأدبية ، ذلك أنه مدح يوسف بن عمر خليفة خالد بن عبدالله القسري على العراق ، وعرض بهذا الأخير ، فغضب الجنود القائمون بين يدي الوالي الجديد وكانوا من البمانية ونخبطوه بسيوفهم فمات ، وكان هذا سنة ١٢٦ للهجرة . ولفظ الكمية أنفاسه وهو يقول : «اللهم آل محمد » يكررها ثلاثاً .

(ب) صفاته : يقول صاحب الأغاني في روايته عن ابن كناسة إن الكمية كان طويلاً أصمّ سيء الصوت رديء الانشاد ، ولذلك كان يأمر ولده المستهل أن ينشد شعره نيابة عنه^(١) . وأنا أضيف إلى هذا أنه كان صريحاً رحب الصدر واسع الحيلة . وليس أدل على صراحته من أنه يعلن ولاءه لأهل البيت بمنتهى الحماسة والشدة ولكنه يقرر في نفس الوقت أنه لم يكن مع هذا على استعداد لاراقة دمه في سبيلهم .

تجود لهم نفسي بما دون وثبة تظل بها الغربان حولي تمجّل

ويعضي في شرح هذا الاعتراف المكشوف وتفصيله فيقول لنا : إنه يحاور نفسه في هذا الصدد ويحاول إقناعها بنصرة أهل البيت نصراً فعلياً ، ولكنها تأتي عليه ذلك وتعلمه وتضلله وتغريه بالأمانى والآمال حتى تحمله على العدول عن هذه الفكرة .

إذا سمعت نفسي نصرهم ونظّلت إلى بعض ما فيه الذعاف المتعل^(١) وقلت لها بيعي من العيش فانياً يباقر أعزها مراراً وأعدل أنتني بتعليل ومنتي التي وقد يقبل الأمية المتعل أما رحابة صدره فحسبنا برهاناً عليها هذه الصداقة المتينة العرى التي تجمع بينه وبين الطرمّاح بن حكيم رغم جميع الفوارق الدينية والسياسية والاجتماعية التي تفصل بينهما بل التي تكفي أن تخلق من أحدهما عدواً للآخر . فهو شيعي والطرمّاح خارجي ، وهو كوفي والطرمّاح شامي ، وهو مضري والطرمّاح يمني . وقد سئلا عما يجمع بينهما رغم هذه الفوارق فأجابا : « بغض العامة . » وأحسب أن الأدب هو الذي ألف بينهما وقرّب أحدهما من الآخر : فقد كان السكيت معجباً بالطرمّاح إعجاباً حداً به للتعقيب على قوله :

إذا قبضت نفس الطرمّاح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

بقوله : « إي والله ، وعنان الخطابة والرواية » .

وهناك أمثلة عديدة لحسن حيلة السكيت أهمها فيما أظن ما حدث له مع حكيم بن عياش السكلي أحد شعراء بني أمية . وكان هذا يهاجيه ففخر عليه السكيت في بعض قصائده ببني أمية - ورأيه فيهم معلوم - فسأله ولده المستهل عن هذا فقال له ما مضمونه : إن خزي عليه ببني أمية صفقة رابحة على كل حال ، لأنه إن اعترض على هذا الفخر قتلوه ، وإن سلّم به قتلته أنا غماً وكداً . ولو أتى خرت

عليه بعلي بن أبي طالب لبادر إلى سبه ولنفعه هذا عند بني أمية وزاده قرأ منهم .
 (ج) شمره : كان شعر السكيت عند موته نحواً من خمسة آلاف بيت فيما
 يعتقد صاحب الأغاني لم يصلنا منه سوى خمسة . ويكاد مؤرخو الأدب القدماء
 والمحدثون يجمعون على أن الهاشميات صفوة شعر الرجل ولبابة . ولسكننا إذا
 درسنا هذه المجموعة من شعره رأينا أنها لسوء الحظ غير جيدة على الأكثر .
 ذلك لأن مقاصدها وأغراضها تتكرر تكراراً مملأً ولأن لغتها وأسلوبها ليسا
 في الغالب على جانب كبير من المتانة والقوة . فجل ما في الهاشميات أن السكيت
 لا يكلف بالبيض الحسان وإنما يكلف ببيض المآثر من « بني هاشم رهط النبي
 محمد » ، وأنه ملوم فيهم مطارد من أجلهم ولكنه لا يحفل بهذا اللوم ولا يأنه
 لتلك المطاردة ، وأنه يتمنى من صميم قلبه أن تحمله إليهم ناقة شديدة الأسر
 سريعة الجري .

أما ركافة اللغة والأسلوب فحدث عنها ولا حرج ، ومن أمثلتها هذه
 الايات :

أسرة الصادق الحديث أبي القاسم فرع القدامس القدام
 كان ميتاً جنازة خير ميت غيبته مقابر الأقوام
 وجنيناً ومرضعاً ساكن المهد وبعد الرضاع عند الفطام
 خير مسترضع وخير فطيم وجنين أقر في الأرحام^(١)
 ولك أن تتصفح الهاشميات لتبين أن فيها أمثالا كثيرة جداً لهذه الأيات .
 ولكن إلى جانب هذه الكثرة التي تغلب عليها الركافة وبشيع فيها التكرار
 قلة مختارة من الشعر السياسي الجيد وحجر الزاوية في هذه القلة المختارة هو اعتقاد
 الشاعر أن الخلافة وراثية يتوارثها آل النبي كابر أعن كابر لأنهم أولى الخلق

برسول الله وأمسهم به رحماً وأقدرهم على نشر دعوته وتنفيذ مبادئه وتعاليمه ، وأن كل من يتولاها من غيرهم غاصب يأخذ غير حقه ويستمتع بغير سلطانه . وهنا لا بد لي من الإشارة إلى رأيه في أبي بكر وعمر فأقول : إنه يخطئها في تنحية عليّ عن الخلافة وتوليها بدلاً منه ، ولكنه يقف عند هذا ولا يتجاوزه .

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا ألوم يوماً أبا بكر ولا عمراً ولا أقول وإن لم يعطيا فذكاً بنت النبي ولا ميراثه ، كفرا الله يعلم ماذا يأتیان به يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا^(١) أما بنو أمية فهم في رأيه ظلمة أئمة نبذوا كتاب الله وراءهم ظهرياً ، وعطّوا سنن نبيه فأكلوا المال الحرام وسفكوا الدم الحرام مستجيبين في كل ذلك لنداء شهواتهم وأهوائهم ومطامعهم وأغراضهم . فهم مسلمون بالاسم كفرة بالفعل لا تصلح أحوال المسلمين إلا بزوال ملكهم وانقراض دولتهم وقيام دولة هاشمية مكانها :

فقل لبني أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعا^(٢)
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركم أجيعا
بمرضي السياسة هاشمي يكون حياً لأمة ربيعا

وهو لا يحكم على بني أمية بأنهم أهل ظلم واستبداد وأرباب عسف وطفغان فحسب ولكنه يضيف إلى ذلك أنهم جهلة ضعفاء تنقصهم الكفاءة لإدارة شؤون الملك كما ينقصهم حسن النية ، وتعوزهم العزائم القوية الصادقة كما يعوزهم الإيمان بالمثل العليا والمبادئ السامية والعمل بها :

كأن كتاب الله يعني بأمره وبالنهي فيه السكودني المركمل
والكودني البرذون والمعني بالبيت هشام بن عبد الملك . ومن أجل هذا

(١) شرح الهاشميات : طبعة مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر من ٨٣ - ٨٤

(٢) القطيع : السوط .

كله لا يرى صاحبنا بدأ من أن يحث جمهور الشعب على الثورة ويدعوه للانتفاض
على الدولة القائمة ، كما ستري ، ولكن على أن يبقى هو بالطبع آمناً مطمئناً موفور
الهناء والراحة ، لأن الدعوة إلى القتال شيء والمشاركة فيه شيء آخر .

وخير شعر السكيت وأحفظه بأغراضه السياسية وأدله على دخيلة نفسه وأمنته
لغة وأصفاه أسلوباً هذه اللامية التي أروي لك أحسنها فيما يلي ، مستعصاً به عن
إيراد مثل أخرى من سائر هاشمياته ، قال :

ألا هل عم في رأيه متأمل	وهل مدبر بعد الاساءة مقبل
وهل أمة مسيقظون لرشدهم	فيكشف عنه النعسة المتزمل
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى	مساوهم لو كان ذا الميل يعدل
وعطمت الأحكام حتى كأننا	على ملّة غير التي تقنّحل
كلام النبيين الهداة كلامنا	وأفعال أهل الجاهلية نفعل
رضينا بدنيا لا نريد فراقها	على أننا فيها نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها	لنا جنة مما نخاف ومقتل
أرانا على حب الحياة وطولها	يمجد بنا في كل يوم ونهزل
فتلك أمور الناس أضحت كأنها	أمر مضيع أثر النوم بهل ^(١)
فيا ساسة هاتوا لنا من حديثكم	ففيكم لعمري ذو أفانين مقول
أهل كتاب نحن فيه وأنتم	على الحق تقضي بالكتاب ونعدل ؟
فكيف ، ومن آتى ، وإذ نحن خلفه	فريقان شتى تسمنون ونهزل
أنصلح دنيانا جميعاً ، وديننا	على ما به ؟ ضاع السوام المؤبل ^(٢)

(١) بهل : جم باهل ، وهي الناقة التي لا راعي لها ، شبه بها أمور الناس اضعفها .

(٢) السوام والسائمة : الابل في مرعاها . ومؤبل : مهمل .

برينا كبري القدح أو هن متنه من القوم لاشار ولا متنبيل^(١)
 ولاية ساعد ألف كانه من الرهق الخلو ط بالنوك أثول^(٢)
 كان كتاب الله يعنى بأمره وبالنهي فيه السكودني المركل^(٣)
 ألم يتدبر آية فتدله على ترك ما يأتي أم القلب مقفل ؟
 فتلك ملوك السوء قد طال ملوكهم فحتى م حتى م الغناء المطول ؟

تحل دماء المسلمين لديهم ويحرم طلع النخلة المتهدل

فيا رب هل إلا بك النضر يرتجى عليهم وهل إلا عليك المعول

(د) في الواقع أن كثرة شعر الكميث سواء كان ذلك في الهاشميات أم في غيرها أقرب إلى الأسفاف منها إلى أي شيء آخر. ولكن يجمل إلي أن ما رويته لك من مختار شعره يكفي لأن يرفعه إلى مصاف كبار الشعراء. ولم يخطئ القدماء في اعتبارهم إياه أحد أئمة السينة مضر وشعراؤها المقدمين.

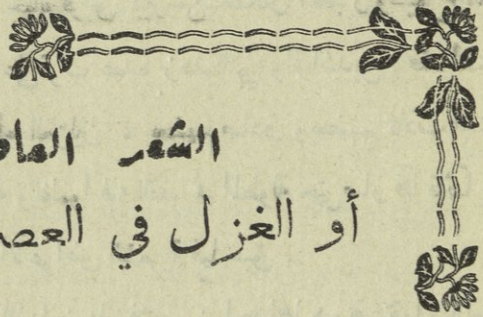


(١) القدح : خشبة السهم. وأوهن : اضعف، والشاري : المصلح. والمتنبيل : صاحب النبيل.
 بقول : نحن كما القدح براء من لا معرفة له ببراه، مريداً بذلك جهل الحكام وعدم
 كفايتهم.

(٢) الساعد : الذئب. والألف : الرجل المني البطيء السلام. والرهق هنا : السفه.
 والنوك : الحق. والأثول : الطائش.

(٣) المركل : الذي يضربه راحته برجله.

الباب الرابع



الشعر الماطفي
أو الغزل في العصر الأموي

لم يكن الغزل أو الشعر العاطفي باباً جديداً في القريض الأموي ولا يمكن أن يكون كذلك لأنه من أقدم ، إن لم نقل أقدم ، ما تفتقت عنه قرائح الشعراء في كل أمة . ولقد كان من خير ما احتواه الشعر الجاهلي وأخصبه خيالاً وأروع ديباجة . ولم تخل منه أشهر مدائح الشعراء للنبي (ص) « بانت سعاد . . » إلا أنه لقي رواجاً كبيراً على عهد بني أمية سببه ما أشرت إليه في غير هذا المكان من غلبة الترف على حياة فريق كبير من سكان الحجاز وشيوع الغناء والقصف في أنحاء ذلك القطر على قرب عهده بزهد النبي والراشدين . فقد استدعى ذلك ظهور طائفة من الشعراء الغزلين ، بعضهم صادق وبعضهم كاذب اختصوا بالغزل وقرعوا له وعرفوا به ونظموا فيه القصائد المطولة حتى صار فناً قائماً بذاته بعد أن كان تابعاً لغيره من الأغراض الشعرية فيما سبق .

وينقسم هؤلاء الشعراء الغزلون إلى فئتين : إحداها بدوية تقول بالعفاف وتدين بالطهر ، إمامها جميل بن معمر ، وثانيتها حضرية تنزع نزعة إباحية في الغرام والغزل إمامها عمر بن أبي ربيعة . وتقتصر هنا على دراسة هذين الشاعرين لأن كلاهما يمثل مدرسته تمثيلاً تاماً . ونبدأ بمعمر بن أبي ربيعة لأنه أشهر الرجلين .



عمر به ألى ربيعة

- (أ) حياته :- اسمه وكنيته ونسبه، نشأته ، قرضه الشعر ، سر نبوغه فيه ، انتقاله إلى مكة ، مغامراته ، ما نسج حوله من الأساطير ، ما يتصل من هذه الأساطير بمجونه ، ما يتصل منها بشاعريته ، ما يتصل منها بوفاته .
- (ب) كذبه على نفسه :- قصته مع زينب الجمحية ، حكايته مع البغوم وأسماء ، مثل أخرى من كذبه على نفسه .
- (ج) ظرفه ودعابته .
- (د) غزله :- قيمته الأدبية ، موضوعاته ، لغته وأسلوبه ، مكان القصة من شعره ، مقارنة بينه وبين امرئ القيس بهذا الصدد ، مثل من شعره القصصي ، كلمة فيه .
- (هـ) خاتمة :- منزلته بين شعراء الغزل .



(أ) حياته: هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الخزومي القرشي. ولد بالمدينة سنة ثلاث وعشرين للهجرة . وكانت ولادته ليلة وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ف قيل في ذلك : [أي حق رفع وأي باطل وضع] . ونشأ في ظل أبيه السري ، وأمرته الغنية القوية ناعم البال مترف العيش جم الثراء واسع الجاه . وقد قضى شرخ شبابه في خلافة معاوية فأخذ بحظه من نعيم ذلك العهد ، واستمتع بلذاته وتأثر بنزعاته وصار شاعره الغزل الأكبر . ويقال في

صدد قرضه الشعر إنه نظمه وهو صغير دون أن يلاقي فيه نجاحاً فما زال يعالجه ويروضه حتى نبغ فيه . وكانت رائيته التي مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر
غداة غد أم رائح فمجر

مصدر شهرته فيه . ويروى أن جريراً عقّب على نبوغ عمر بقوله : « ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر . » ومما ينبغي التنبيه إليه هو أن عمر لم يتخرج على يد أحد ولم يرو لشاعراً وإنما نطق بالشعر ومارسه حتى برع فيه لحاجته إليه في وصف الجمال وسرد الحوادث الغرامية . فهو إذن تلميذ الجمال عنه أخذ وبه تأثر وعليه تخرج . وقد شاء لعمر فراغه وبحته عن مختلف أنواع الجمال أن يترك المدينة إلى مكة حيث موسم الحج وما فيه من فرص نادرة للحديث واللهو والمغازلة ، ففضى معظم أيام حياته في مقر هجرته يستقبل الحجاج من الفتيات والعوائل اللائي يسمعن له بالدنو منهن فيجالسن ويحادثن ويستمتعن بمجالسهن وظرفهن ويشيعن عند انتهائهن من أداء فريضة الحج . ويذكر هذا في شعره فيلذّ لهن ويشجعن على المضي في التعرض له وإنشاء صلاتن به ، هذا علاوة على من كان بمكة والطائف من الحسان اللواتي يجد شباب عمر وجماله وشعره وترفه عندهن سوقاً رائجة أيّما رواج . وقد نشأت له عن هذه المغامرات الكثيرة طائفة ضخمة من الأخبار تناقلها الرواة ففسدوا فيها ما شاءوا ونسجوا على منوالها ما شاءوا ، ولم يزالوا بها حتى أفسدوها إفساداً لا صلاح بعده أبداً .

فمن أمثلة عبثهم بأخباره أنهم يزعمون أن ابن أبي عتيق سمع عرضاً وهو بالمدينة قول عمر :

من رسولي إلى الثريا فاني
ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

فقال « إياك عمر لم يعن أحداً سواي » . وركب من فوره إلى مكة حيث يقيم عمر فأخذه معه دون أن ينزل ودون أن يستريح وذهب به إلى الثريا وهي

في مصيفها بالطائف ، فحملها على الرضى عنه والرجوع الى حياتها السالفة معه .
 وأن الحرث أخا عمر أرسله في قصد ونام في فراشه فجاءت الثريا هذه - وكانت
 على موعد مع عمر - فألقت نفسها عليه ظانّة أنه صاحبها ، فطردها الحرث
 وأوسعها تقرّيعاً وتوبيخاً . وأن رجلاً من قريش ولدت له طفلة فائقة الجمال فحشي
 أن يشبب بها عمر ، فباع ضيعته وانتقل بابنته إلى البصرة حيث عاش غريباً ومات
 غريباً ، ولكن ابنته عادت بعد موته إلى مكة وصارت زوجة لعمر بن أبي ربيعة نفسه .
 وأن « نعماً » حبيبة عمر التي قال فيها قصيدته التي مطلعها : « أمن آل نعم ... البيت »
 اغتسلت في غدير فأقام عليه عمر يشرب من مائه حتى جف !!

أفترى أن هذه أخبار يمكن أن تمت إلى الحقيقة بصلة ؟ ! ولم يقصر الرواة
 كذبهم على مغامرات عمر الغرامية بل إنهم تناولوا به حياته الشعرية الخاصة .
 فأبو الفرج الأصبهاني يحدثنا أن عمر حضر إلى ابن عباس وهو في المسجد الحرام
 وحوله جماعة من الخوارج يترجمهم نافع بن الأزرق يسألونه عن الحلال والحرام ،
 فتركمهم وأقبل على عمر ، فأنشده هذا قصيدته التي مطلعها (أمن آل نعم ..
 القصيدة ^(١)) ولكنه - أعني صاحب الأغاني - يخبرنا بعد قليل وبإسناد طويل
 أن عمر أتى عبد الله بن عباس وقال له : « إن نفسي تآقت إلى قول الشعر ونازعني
 إليه وقد قلت منه شيئاً أحببت أن تسمعه وتستره عليّ . فقال : « أنشدني » ،
 فأنشده : « أمن آل نعم ... القصيدة ^(٢) . وظاهر أن الرواية الثانية مناقضة
 للرواية الأولى وأن تناقضهما دليل واضح على اختلاق الأكاذيب وإصاقها بحياة
 عمر الشعرية الخاصة ، هذا فضلاً عن أي استبعاد كثيراً إن لم أكن أنني نفيّاً باتاً
 أن يقطع ابن عباس حديثه في الافتاء وبيان الاحكام الشرعية ليستمع إلى شاب

(١) الأغاني ج ١ ص ٣٢-٣٣ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦

ماجن ينشده قصيدة غزل إباحي^(١)

وكما كانت حياة ابن أبي ربيعة ينبوعاً غزيراً لا كاذب الرواة وأباطيلهم
كانت وفاته كذلك موضوعاً خصباً لا اختلاقهم وعبثهم . فهم يحدثوننا طوراً أنه
نظر في الطواف إلى امرأة شريفة فاتنة الجمال فسلمها فلم تجبه فقال فيها أحياناً
هذا أولها :

الريح تسحب أذيالاً وتشرها ياليتني كنت ممن تسحب الريح
فيلفها شعره فجزعت منه فقيل لها اذكريه لزوجك ، فقالت : كلا والله
لا أشكوه إلا إلى الله . ثم قالت : اللهم إن كان نوه باسمي ظالماً فاجعله طعاماً
للريح . فضرب الدهر ضربته ، وغدا عمر ذات يوم على فرسه فهبت ريح
فاستتر بسلمة فعصفت الريح فخدشه غصن منها فدمي وورم ومات من ذلك !^(٢)
ويروون لنا حيناً أن عمر بن عبد العزيز نفى المترجم إلى دهلك إحدى جزر البحر
الأحمر وأن الأخير أراد أن يكفر عن سيئاته فغزا في البحر فحدث أن شبت النار
في السفينة التي أفلته وذهب فربسة ذلك الحريق^(٣) . وواضح أن تناقض أقوال
الرواة في وفاة عمر والأسباب التي أدت إليها وعلى هذه الصورة الغريبة دليل
ناهض آخر على أن العبث بلغ من أخباره كل مبلغ .

(١) مما يساعد على استبعاد صحة هذا الخبر ما ورد فيه من أن نافع بن الأزرق أعاد البيت
الوازم عشر من قصيدة عمر بعد أن تصرف فيه فوضع « يجزى » موضع « بضحي »
و « يجسر » موضع « يخضر » ، فصار البيت هكذا :

رأت رجلاً إذا الشمس عارضت فيجزي . وأما بالشبي فيخسر
اذ معنى هذا أن نافعاً حفظ قصيدة عمر كلها أو أكثرها عند سماعها لأول مرة خطأً
يمكنه من التصرف بها وحذف بعض الفاظها ووضع الفاظ أخرى مكانها . ومثل هذا
الحفظ نادر الوجود صلب التصديق . على أن حفظ بن عباس قصيدة عمر وهي مؤلفة
من خمسة وسبعين بيتاً عند سماعها لأول مرة ليس مما يسهل تصديقه .

(٢) الأغاني ج ١ ص ٩٤ طبعة مطبعة التقدم بمصر

(٣) الشعر والشعراء ص ١٣٢ طبعة مطبعة التقدم بمصر

(ب) كذبه على نفسه: ذلك هو كذب الرواة على عمر بن أبي ربيعة، أما كذبه على نفسه فكثير، ومن أمثله أن صاحبه ابن أبي عتيق وصف له زينب بنت موسى الجمحية وبينه وبينها قرابة فما كان من عمر إلا أن أحبها على السماع وصار يقول فيها الشعر، وأغضب ذلك ابن أبي عتيق فعاتبه في الخزل باينة عمر فأجاب به بقوله:

لا تلني وأنت زينتها لي أنت مثل الشيطان للانسان
ومع أن هذا البيت ينص بصراحة على أن عمر لم يعرف زينب ولم يتعشقا - إن صح هذا التعبير - إلا في سن الرجولة وبواسطة شخص ثالث لا يرى صاحبنا بأساً في أن يدعي أنه بادلها الحب وهما صبيان بل ولیدان :
« ووليدان كانا علاّقها القلب إلى أن علا الرؤوس بياض »

أبلغ من هذا دلالة على إسراف عمر في الادعاء والتحدث عن نفسه بما لم يحدث له ما رواه صاحب الأغاني من أنه كان عند ابنته أمة الواحد بالجند وهي في عصمة محمد بن مصعب بن الزبير وكان عندها مغنيتان جميلتان تدعى إحداهما (بغوم) والأخرى (أسماء) فغنتا فقال في ذلك هذه الأبيات:

صرمت حبلك البغوم وصدت	عنك في غير ريبة أسماء
والغواني إذا رأينك كهلاً	كان فيهن عن هواك التواء
ولقد قلت ليلة الجزل لما	أخضلت ريطتي على السماء
ليت شعري وهل تردنّ ليت	هل لهذا عند الرباب جزاء

فلما أنشد الأبيات قالت له البغوم: ما رأيت أ كذب منك يا عمر، تزعم أنك بالجزل وأنت في جنيد محمد بن مصعب، وتزعم أن السماء أخضلت ريطتك وليس في السماء قرعة^(١) فقال: هكذا يستقيم هذا الشعر^(٢).

(١) القرعة: السجاجة الصغيرة

(٢) الأغاني ج ١ ص ٦٦-٦٧ طبعة المطبعة التقدم بمصر

وبالغ من كذب عمر وإسرافه على نفسه أنه ادعى مغازلة بعض الحرائر اللواتي لم يجالسهن ولم يحادثهن كثيراً ولا قليلاً . ومن أمثلة ذلك أنه ادعى مغازلة عائشة بنت طلحة وسعدى بنت عبد الرحمن بن عوف ، وقد كذبتاه في وجهه وبمخاتاه على هذا التماذي في الغي والاسترسال في الكذب .

(ج) ظرفه ودعابته: بقي أن نعلم أكان هذا الشاعر الذي كذب عليه الناس وكذب هو على نفسه فاسق النفس كما كان فاسق اللسان، أم كان على العكس من ذلك؟ تتضارب أقوال الرواة في هذه الناحية من حياة عمر كما تتضارب في كل ناحية أخرى من نواحي حياته ، فقد قيل إنه حلف وهو على أبي قبيس برب السكبة أنه لم يفعل محرماً ، وقيل إنه أكد لأخيه وهو على فراش الموت أنه ما ارتكب فاحشة قط . ولكن هناك أقوال تتعارض وهذه الأقوال ، فقد روي أن شيخاً سأله وهو يطوف في البيت : « أفعل كل ما قال ؟ » فأجاب : « نعم وأستغفر الله » .

وعندي أن ابن أبي ربيعة صاحب دعابة لا صاحب دعارة ، ورجل قول لا رجل عمل ، ولو لم يكن كذلك لما تغاضى أشراف قريش - وفي مقدمتهم بنو أمية - عن ذكره كرائهم في شعره . فقد شذب بعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ولبابة بنت عبد الله بن عباس والثريا بنت علي بن عبد الله ، بل إنه شذب بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان . ولكنه لم يحفظ أحداً من آباء هؤلاء العقائل أو إخوتهن أو أزواجهن أو بعض ذوي قرباهن . كما أنه لم يسيء سمعة واحدة منهن وفي هذا ما يحمل على الظن أن القوم كانوا يعتبرون تشييب ابن أبي ربيعة ضرباً من العبث لا يحط من كرامة امرأة ولا يسيء إلى سمعتها .

(د) غزله: ولكن ما قيمة هذا التشييب من الناحية الأدبية ؟ أله في موضوعاته أم في لغته وأسلوبه أم في هذا كله ما يحملنا على الاهتمام به والنظر في خصائصه ؟ الواقع أنه عظيم القيمة في موضوعاته ، جليل الشأن في لغته وأسلوبه ، فوادته في

الغالب طريقة والشؤون التي تعالج فيه مطبوعة بطابع الفكاهة والظرف ، وهي قبل كل شيء شؤون عمر بن أبي ربيعة ذاته أو الشؤون التي يمكن أن تحدث له . فهذه قصيدة تخبرنا أن صديقة لعمر تطلب إليه أن يخرج لوداعها لأنها عازمة على الرحيل وترغب إليه أن يأتي بلدها خاطباً لها وتلتبس منه أن يحدد لذلك أجلاً تستسلم بعده لليأس إذا هي لم تحظ بزيارته . وهذه أخرى تحدثنا أن جماعة من السيدات احتلن عليه فأخرجنه إلى بعض مروج مكة وهو بهيئة أعرابي فحادثهن عدة ساعات على أنهن لا يعرفنه ثم كاشفتهن بعشهن ودعابتهن . وهذه ثالثة تروي لنا أن إحدى صواحيه تعمّدت «إفساد طوافها» بمغازلته ، فأرسلت إليه إحدى أترابها تستدعيه لمقابلتها . وهذه قطعة تؤكد أن عمر هجر الحجاز مختاراً إلى اليمن ليكف عن مغامراته التي تثيرها مواسم الحج ، وقس على ذلك عامة شعره .

ومما ينبغي التنويه به أن عمر لم يسبق إلى شيء مما تقدم ذكره أو ما يجري مجراه في شعره . إذن فغزله أصيل وحوادثه فكهة طريقة ، وصحيح أنه اختلق بعض الحوادث التي رواها في غزله إلا أن هذه الحوادث المكذوبة نسجت على منوال الحوادث الحقيقية التي تجري له عادة في كل يوم . ولذلك فإنها لا تحط من شأنه من حيث هو شاعر غزل يعتمد في شعره على ما يقع له من حوادث اللهو والمغازلة .

أما من ناحية الشكل فلغة ابن أبي ربيعة لا تخلو من مواطن ضعف من ذلك قوله :

ولا قرب نعم إن دنت لك نافع ولا نأيتها يسلي ولا أنت تصبر
فواضح أن المعنى ينتهي بقوله : « ولا نأيتها يسلي » وأن بقية البيت حشو لا فائدة فيه . ومثل هذا قوله :

عزيز عليه أن ألمّ ببيتها يسرّي الشحنة والبغض مظهر

فقوله « والبغض مظهر » زائد لأن المعنى ينتهي بقوله : « يسرلي الشجناء »
 هذا فضلاً عن أن الزيادة تتناقض وما يتقدمها لأنها تدل على الاعلان بينما يدل
 ما تقدمها على الكتمان . ومن هفوات عمر في هذا الباب قوله : « وأن شواك^(١) »
 لم يشبه شواها » فأنت ترى أن التنافر بالغ حده في كلمات هذا الشطر ؛ وفي
 الامكان توسيع هذه القائمة . ومع ذلك فلغة عمر على العموم متينة عذبة ، وديبا جته
 ناصعة مشرقة ، يتخللها التشبيه الجميل كما في قوله « وانسبن انسياب مها الرمل »
 والكناية المستملحة كما في قوله : « بعيدة مهوى القرط » « صامته الحجل »
 والطباق المستطرف كما في قوله :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحي وأما بالعشي فيخضر
 وقد تسألني عن الدور الذي تلعبه القصة في شعر عمر بن أبي ربيعة فأجيب
 بأنه جد خطير . لأن القصة لم تبلغ في شعر شاعر قبله ما بلغته في شعره من الاتقان
 والاطالة والروعة . ولا جدال في أن امرأ القيس هو الذي ابتدع القصة الغرامية
 في القريض العربي ولكن الفرق كبير بين قصصه القصيرة المقتضبة السيئة الترتيب
 أحياناً وبين قصص عمر الممتعة الرائعة والمرتبة ترتيباً محكماً . ولك أن تقارن بين
 قصتي امرئ القيس اللتين تحتوى عليهما معلقته وبين قصة عمر التي تنتظمها قصيدته
 التي مطلعها : (أمن آل نعم أنت غاد فمبكر) أو قصته التي تشتمل عليها لاميته
 المبدوءة بقوله :

جرى ناصح بالود بيني وبينها فقررني يوم الحصاب إلى قتلي
 أو قصته التي تحتوي عليها عينيته التي يقول في أولها : « ألم تعرف الاطلاع
 فالمترع » أقول لك أن تقارن بين قصتي امرئ القيس المشار اليهما وبين هذه

(١) الشوى : الايدان والرجلان وقحف الرأس وكل ما ليس بمقتلا

القصص لتتحقق أن عمر قد هذب القصة الشعرية تهذيباً غير قليل ووسعها توسيعاً لا مناص لمؤرخ الأدب العربي من التنويه به . وهالك إحدى هذه القصص على سبيل المثال ، قال عمر : -

وتنوعتن حتى عاود القلب سقمه	وحتى تذكرت الحديث المودعا
فقلت لمطريهن : ويحك ، إنما	ضررت ، فهل تستطيع نقماً فتشعرا
وأشربت فاستشرى وقد كان قد صحا	فؤاد بأمثال المها كان موزعا ^(١)
وهيجت قلباً كان قد ودع الصبا	وأشياءه فاشغم عسى أن تشعرا
لئن كان ما قد قلت حقاً لما أرى	كمثل الألى أطربت في الناس أربعا
فقال تعال انظر فقلت وكيف لي	أخاف مقاماً أن يشيم فيشعرا
فقال اكنفل ثم التثم وأت باغياً	فسلم ولا تكثر بأن تتورعا ^(٢)
فاني سأخفي العين عنك فلا ترى	مخافة أن يفشو الحديث فيسمعرا
فأقبلت أهوي مثلما قال صاحبي	لموعده أزجي قعوداً موقعاً ^(٣)
فلما تفاوضنا الحديث وأسفرت	وجوه زهاها الحسن أن تنقعرا
تباهن بالعرفان لما عرفني	وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا ^(٤)
وقرين أسباب الهوى لمتيم	يقيس ذراعاً كلما قسن إصبعا
فلما تنازعن الأحاديث قلن لي	أخفت علينا أن نفر ونخدعا
فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً	إليك وبيننا له الشأن أجمعا
فما جئتنا إلا على وفق موعد	على ملائنا خرجنا له معاً

(١) اشربه فاستشرى : حملته على التماذي في الغي فتعادي . موزع : موزع .

(٢) اكنفل : البس الكفل بكسر الكاف وهو كساء بدوي .

(٣) أزجي : أسوق . القعود : هو البعير الذي يستخدمه الراعي عادة في حاجاته . موقع : مدبر .

(٤) باغ : قاصد . أوضع : أسرع في السير . أكل : أصاب ناقته الكلال ، وقد لاحظ العناني أن الصواب هو أن يقول أوضع فأكل ، وملاحظته موفقة .

رأينا خلاء من عيونٍ ومجلساً دميث الربى سهل المحلة ممرعا
وقلنا كريم نال وصل كرائم فحق له في اليوم أن يتمتعاً
أظن أن هذه القصة لو رويت منشورة لما كانت أسهل رواية ولا أكمل بياناً
ولا أدق ترتيباً . ولست أراني بحاجة لانيه إلى مكان الدعابة البريئة والفكاهة
الحلوة من القصة لأنه بين ظاهر .

(هـ) خاتمة :

يقرن النقاد القدماء عمر بن أبي ربيعة بمجمل بثينة ويعتقدون أنه كان
يعارضه ، فاذا قال هذا قصيدة قال هو قصيدة مثلاً . ويرون أن عمر أشعر في
الرائية والعينية^(١) ، وأن جيلاً أشعر في اللامية^(٢) ، ويعتقدون أن لكل منهما
« بيتاً نادراً ظريفاً » ، فأما بيت عمر عندهم فهو :

فقلت وأرخت جانب الستر بيننا :
معي فتحدث غير ذي رقبة أهلي
وأما بيت مجمل فهو :

خليليّ فيما عشنا هل رأينا قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي ؟! ^(٣)
وعندي أن لكل من الرجلين أكثر من بيت نادر ظريف واحد وأن
ما ينبغي أن يقال في كل منهما بالقياس إلى صاحبه على وجه الاجمال هو أن عمر
أوسع خيالاً وأفصح لفظاً وألطف أسلوباً وأطول نفساً ، وأن جيلاً أصدق
عاطفة وأرهف حساً وأنبّل شعوراً .



(١) أكبر الظن أنهم يريدون بالرائية : « أمن آل نعم أنت غاد فبكر... الخ » والعينية :
« ألم تعرف الأطلال فالتربعا .. الخ » .

(٢) يظن على الظن أنهم يريدون باللامية قصيدة جميل التي يقول في أولها : « لقد فرح
الواشون أن صرمت جبلي ... الخ » .

(٣) الأغاني ج ١ ص ٤٩ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

جميل بن أبيه

— ٥ —

- (أ) سيرته : نسبه . مولده . نشأته . ثقافته . غرامه يثينة . أخباره معها . عبث الرواة بها . ما يمكن قبوله منها .
- (ب) أخلاقه : كرمه ووفاءه . شجاعته . عفته .
- (ج) شعره : عناصره . إشماله على كثير مما يتصل به . إيمانه بتصوير العفة والكتابة . مثل منه .
- (د) منزلته .
- (هـ) خاتمة .



(أ) سيرته : هو جميل بن عبدالله بن معمر من عذرة وعذرة من قضاة ، وقضاة من معد وقيل من حمير . ولد بوادي القرى ، وهو وادي ذو حرث وزرع بقرب المدينة . وبه نشأ وقضى أكثر أيام حياته . وهو شاعر مقدم ، جامع بين الشعر والرواية ، كان راوية هذبة بن خشرم وهذبة راوية الخطيئة ، والخطيئة راوية زهير بن أبي سلمى ، فهو إذن خريج أكبر مدرسة شعرية في البادية . وأنت إذا تأملت شعره رأيت أنه ينسج على منوال زهير في حرصه على عرض الأشياء كما هي وإفراغها في قالب جميل جذاب جامع بين اللطف والبساطة . إلا أنه لا بد من القول بأن رقة عواطف جميل وقرضه الشعر للشعر وللأعراب عما يعتلج في نفسه من مشاعر وانفعالات لا للحصول على رضا ممدوح ولا لنيل إعجاب راوية أو ناقد جعل لغته أكثر سهولة وأسلوبه أقل متانة . وإنه لمن الأسراف أن

فطلب إلى شاعر عاشق يهيمه أن يرضي حبيبته قبل كل شيء وفي كل مناسبة أن يكون صاحب حوليات يقضي الأيام العديدة في إثارة بيت على بيت وإحلال لفظ مكان لفظ .

ومؤرخو الأدب القديم مجمعون على أنه « إمام المحبين » لصدق صوابته ونزاهة حبه ، وصاحبته بثينة بنت حباب ، وهي ابنة عمه ، وقد أحبا حباً أخذ عليه مذاهبه وملك مشاعره ، حتى اقترن اسمه باسمها ف قيل : « جميل بثينة » . ومما لا شك فيه أن له مع حبيبته هذه أخباراً كثيرة كما أن له فيها أشعاراً كثيرة . إلا أن أصحاب الأخبار والأسمار استغلوا شخصيته إلى أبعد حدود الاستغلال وحملوا عليه كل ما يمكن حمله من أقاصيص وأساطير ، ولذلك فانه من الصعب جداً أن يطمئن باحث ناقد إلى أكثر ما يروى في كتب الأدب من نوادر جميل وأخباره . فمن ياترى يستطيع أن يصدق أن الغفلة بلغت من والد بثينة وهو سريّ قومه وحازمهم مبلغاً لم يظن معه إلى غرض كثير من إنشاده على مسمع من ابنته هذه الأبيات ؟ :

فقلت لها يا عزّ ، أرسل صاحبي إليك رسولا ، والموكل مرسل^(١)
بأن تجعلي بيني وبينك موعداً وأن تأمريني بالذي^(٢) فيه أفعل
وآخر عهدي منك يوم لقيتني بأسفل وادي الدوم والثوب يغسل
ومن ياترى لا يظن إلى أثر الاصطناع في هذه القصة التي تقول لنا إن والد
بثينة وأخاها حضرا بدعوة من زوجها ليشهدا بثينة وهي في خلوة مع جميل ،
فسمعا هذا يطلب إليها أن تسعف غرامه إسعافاً تاماً ، وسمعاها ترفض طلبه

(١) ما كل موكل مرسل ، ولكن كل رسول موكل في حدود رسالته ، وعلى هذا

اظن ان الصحيح هو (والرسول موكل) .

(٢) في الاغاني طبعة مطبعة التقدم بمصر (ما الذي) .

رفضاً تاماً ، وسمعا جميلاً في النهاية يهال ويكبر لعفاف حبيبته ، وبؤ كد لها أنها لو منحته ما طلب لقطعها إرباً ؟!

على أننا لا ننفي أن تكون لحيل أخبار صحيحة أو شبه صحيحة ، ولكننا نقول إن الرواة عبثوا بسيرة هذا الشاعر عبثهم بسيرة كل إنسان وجدوا في التحدث عنه إلى الناس بضاعة رائجة وتجارة رابحة وأن أخباره على هذا يجب أن تدرس بتحفظ . ومها يكن من شيء فانه ليس من العسير أن نؤمن بما اتفق عليه الرواة أو كادوا من أن جيلاً عشق بثينة وهي جويرية لما تدرك ، وأنه خطبها بعد أن اشتهر بحبه لها فرداً ، لأن عادة بدوية كانت تقضي بعدم تزويج المتحابين إذا عرفا بتبادل الحب ، وأنه أكثر من التشبيب بثينة والاختلاف إليها ، حتى شكاه أهلها إلى مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة فأباحهم هذا دمه وأنه خافهم على نفسه فهرب إلى اليمن ولم يرجع إلى وادي القرى إلا بعد انتهاء ولاية مروان ، وأنه عندما يئس من عطف بثينة عليه رحل إلى مصر لينساها أو ليكون بعيداً عنها ، فتوفي هناك عام ٨٢ للهجرة .

(ب) أخلاقه : كان جميل سمحاً شجاعاً مقداماً عفيفاً طاهر الذيل . حكى أنه لما سجن هذبة في جريمة قتل زاره جميل في سجنه ومعه هدية نفيسة مؤلفة من ثياب وتقود^(١) . وتدل أخباره مع بثينة على أنه اعتزم غير مرة أن يشترك وأهلها في يراز مسلح لولا أنها كانت تصده عن ذلك . أما غفقه فتكاد تكون أمراً مسلماً به من كل أحد ، وقد كان تشيبيه بثينة سنين طويلة باعثاً على الارتياح به ، إلا أنه قال لعباس بن سهل الساعدي وهو يجود بنفسه : « لا نالني شفاعة محمد (ص) ، وإني لفي أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، إن

كنت وضعت يدي عليها لرؤية^(١) . وسيمر بك من شعره ما يفي بتأييد هذا القول .

(ج) شعره : كان لجميل ديوان شعر أتت الأيام عليه^(٢) ، لا يزال في أيدينا منه ما يدل دلالة صادقة على سعة الخيال وبراعة الخاطر ووزارة المادة . وأنت إذا تصفحت ما بقي لنا من شعر جميل رأيت أنه صورة حية لطائفة من الشؤون والأحوال يتصل بعضها بنسب جميل وبعضها بأسرته وبعضها بشخصه وأكثرها بحبه لبثينة ووصفه إياها . فهذا رجز يدل على أن جميلاً من معدّ خلافاً لما يظنه بعض النسائيين من أنه من حمير . وهذه أبيات تثبتنا أنه كان يقيم في وادي القرى . وهنا يبتان نعلم منهما أن جميلاً عرف بثينة أول ما عرفها في وادي بغيض وأنها تساباً في هذه المقابلة ، فمأخ سبابها في عينه فأحبها . وهناك قطعة تخبرنا أن بثينة وعدت جميلاً أن تلقاه ولم تتمكن من إنجاز وعدها له فشق عليه ذلك كثيراً وساء ظنه بها ، واتهمز نساء من الحي هذه الفرصة فوصفن بثينة بالخلف والكذب ليحملن جميلاً على قطع علاقته بها والاستعاضة عنها بواحدة منهن ، ولكنه خيب أملهن بثباته ثباتاً لا يتزعزع على حب بثينة . وهناك قصيدة تتبين منها أن جميلاً سليل أسرة موسرة ، وأنه يقيم على مقربة من أهل بثينة وأنه رغم بساره وقرب منزله يقضي الليالي العديدة ضيقاً على أهلها مع ذوي الفاقة والمنقطعين من أبناء السبيل ، وأنها قد زوجت من رجل اسمه « نبيه » وأن هذا أصبح بطبيعة الحال « حرباً » للشاعر . وليس هذا أحسن ما في شعر جميل

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٧ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .

(٢) أدرك ابن خالكان هذا الديوان وقال عنه (انه مشهور) واكتفى بشهرته عن ذكر شيء منه .

ولكنه يمتاز بعنصرين مهمين قآماً وجداً في غيره هما طهارة الحب وشدة الحزن^(١) فجميل يحب مستهام ولكنه لا يحب لقضاء وطر أو بلوغ شهوة خسيسة ، وإنما يهيم بالجمال للجمال ويدين بالحب للحب ، ولذلك فاض شعره بالأحاسيس الرفيعة والعواطف النبيلة والمآثر السامية . "وطبيعي أن حباً كهذا لا يمكن أن يكون إلا مصدر لوعة ومبعث كآبة وهذا ما وقع لجميل بالفعل . فقد قضى معظم أيام حياته ذاهل الالب كاسف البال شديد الحزن دائم القلق يهيم بالوديان ويتسلق الآكام

(١) يمتد الدكتور طه حسين أن كآبة جميل واضرابه من الشعراء العذريين ناشئة عن خيبة الآمال التي كان يعلقها العرب على الحركة الإسلامية ، وأن فداحة الضرائب التي كان العرب يؤدونها على عهد بني أمية مصدر هذه الكآبة الحقيقي . ويمضي في تأكيد هذا الاعتقاد فيقرر أن الأدب العذري الحزين يشبه في نشأته ونزعه الأدب الرومانتي الحزين الذي يظن الدكتور أنه نشأ بفرنسا في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وأن خيبة أمل الشعب الفرنسي بالثورة الفرنسية أكبر سبب في نشأته . (حديث الأربعاء ج ٢ ص ٥٣ - ٥٤ الطبعة الأولى) ، وأحسب ان هذه الملاحظات غريبة كل الغرابة . فجميل شاعر موسر يدلنا على ذلك قوله :

أبيت مم الهلاك ضيفاً لأهلها وأهلي قريب « موسرون ذرو فضل »

وليس بين الشعراء العذريين من يشكو الفقر ولكنهم جميعاً يشكون الهجر . أما نشأة الأدب الرومانتي الحزين في فرنسا فلها سابقة للثورة الفرنسية وأول كتاب يمثلها هو « ايلوز الجديدة La Nouvelle Héloïse » المطبوع بفرنسا عام ١٧٦٢ م ومؤلف هذا الكتاب هو جان جاك روسو المتوفي عام ١٧٧٧ م . ومن الحقائق التي لا تقبل الجدل أن جان جاك روسو هو أبو الادب الرومانتي الحزين بفرنسا وان برناردن دي سان بيير Bernardin de Saint-Pierre أول من اعتنق مذهبه ونهيج سبيله وان مدام دوستال Madame de Stael وشاتوبريان Chateaubriand رفعوا راية هذا الادب في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وأن فيكتور هيغو وموسيه Musset ولا مارتين ، وم الذين يذكرون الدكتور طه حسين على أنهم مؤسسو الادب الرومانتي الحزين ليسوا الا اتباعاً لشاتوبريان وليس ثمة من يجهل كلمة هيغو التي كتبها في دفتره وهو صبي في المدرسة : « أريد أن اكون شاتوبريان او لا شيء . »

متنسماً أنفاس الريح كلما هبت على حي بثينة محملاً إياها تحيات الحب والشوق
متلقياً منها أمثالها من حبيبته الوفية الصادقة . وشعره الدال على طهارة حبه وشدة
وجدته كثير أروي لك منه قوله :

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو ابصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبالأستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة المعلى وبالحول تنقضي وأخاره لا نلتقي وأوائله

وقوله :

ألا من لقلب لا يمل فيذهل أفق فالتعزي عن بثينة أجمل
سلا كل ذي ودٍ علمت مكانه وأنت بها حتى المات موكل
فما هكذا أحبيت من كان قبها ولا هكذا فيما مضى كنت تفعل
فيا قلب دع ذكرى بثينة إنها وإن كنت تمواها ترض وتبخل
وقد آست من نيلها وتجهمت ولليأس إن لم يقدر النيل أمثل
والإفساها نائلاً قبل بينها وأبخل بها مسؤولة حين تسأل

وقوله :

إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي من الحب قالت ثابت وزيد
وإن قلت ردي بعض عقلي أعش به مع النام ، قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جمئت طالباً ولا حبها فيما يبيد يبيد
جزتك الجوازي يا بثين ملامة إذا ما خليل بان وهو حميد

وقوله :

يقولون مهلاً يا جميل وإني لأقسم ما بي عن بثينة من مهل
أحلماً ؟ فقبل اليوم كان أوانه أم أخشى ؟ فقبل اليوم أوعدت بالقتل

إذا ما تراجعنا الذي كان بيننا جرى الدمع من عيني بثينة بالكحل
 فيا ويح نفسي حسب نفسي الذي بها ويا ويح أهلي ما أصيب به أهلي
 أجذك لا ألقى بثينة مرة من الدهر إلا خائفاً أو على رجل
 خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي؟!
 ألا أيها البيت الذي حيل دونه بنا أنت من بيت وأهلك من أهل

هذه مثل قليلة من شعر جميل لا أشك أنك تلمس في طياتها روحه
 المعذبة التي تمكن منها الحب وتملكها العفاف وطفى عليها اليأس وصهرتها
 الأحزان فأحالتها أنة موجعة أو دمة غزيرة حارة . وفي شعر جميل نقشات
 أخرى كثيرة تنقد أسمى ولوعة ونفيض كرمًا وغفة وتسيل رقة وأريحية فتنبعها
 إن شئت .

(د) منزلة : بقي أن نعرف منزلة جميل بنظر معاصريه . وهذا سهل ، فرواة
 الأدب القديم يحدوثنا أن كثيراً وهو شاعر كبير يقدمه على نفسه « ويتخذ
 إماماً له » ويقول دائماً ما نصه تقريباً « وهل عالم الله ماتروث إلا بواسطة
 جميل ؟ ^(١) » وهناك قصص طريفة لها مغزاها في الدلالة على مكانة جميل
 الأدبية .

قد نقول: ولكن ألا يمكن أن تكون هذه القصص موضوعة ؟ وأجيب بأنه من
 الممكن تماماً أن تكون كذلك ؛ ولكنها إن كانت موضوعة فإنها تدلنا على رأي
 الرواة في جميل وهو رأي له قيمته وله خطره في هذا الباب، ولذلك أيسح للنفس
 أن أقف عندها وأن أروي لك مثلاً منها .

زعموا أن الفرزدق لقي كثيرًا في مكة ، فقال له : يا أبا صخر أنت أنسب
العرب حين تقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلي بكل سبيل
وهو يشير بهذا إلى سرقة كثير هذا البيت من جميل الذي يقول :
أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلي على كل مرّ
فقال له كثير : وأنت يا أبا فراس أغر العرب حين تقول :

ترى الناس ماسرنا يسرون خلفنا فان نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
وهو يشير بذلك إلى سرقة الفرزدق هذا البيت من جميل الذي يقول :
نسير أمام الناس والناس خلفنا فان نحن أومأنا إلى الناس وقفوا^(١)
وروي أن جميلًا حضر في المدينة حلقة ضمت نصيبًا مولى عبد العزيز بن
مروان والوليد بن سعيد بن أبي سنان أعلم أهل المدينة بالشعر وعبد الرحمن بن
حسان وعبد الرحمن بن أزهر فاستنشدوه فأنشدهم قوله :

ونحن منعنا يوم أرلِ نساءنا ويوم أقيّ والأسنة ترعف
يحب الغواني البيض ظلّ لوائنا إذا ما أأتانا الصارخ المتلف
نسير أمام الناس والناس خلفنا فان نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
فأيّ معدّ كان في رماحه كما قد أفأنا والمفاخر ينصف
وكنا إذا ما معشر نصبوا لنا ومرت جوازي طيرهم وتعيّفوا
وضعنا لهم صاع القصاص رهينة بما سوف يوفيهما إذا الناس طففوا
فلما انصرف قال ابن الأزر : (هذا أشعر أهل الاسلام) فقال ابن حسان :
(نعم والله وأشعر أهل الجاهلية ، ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسيه !!)

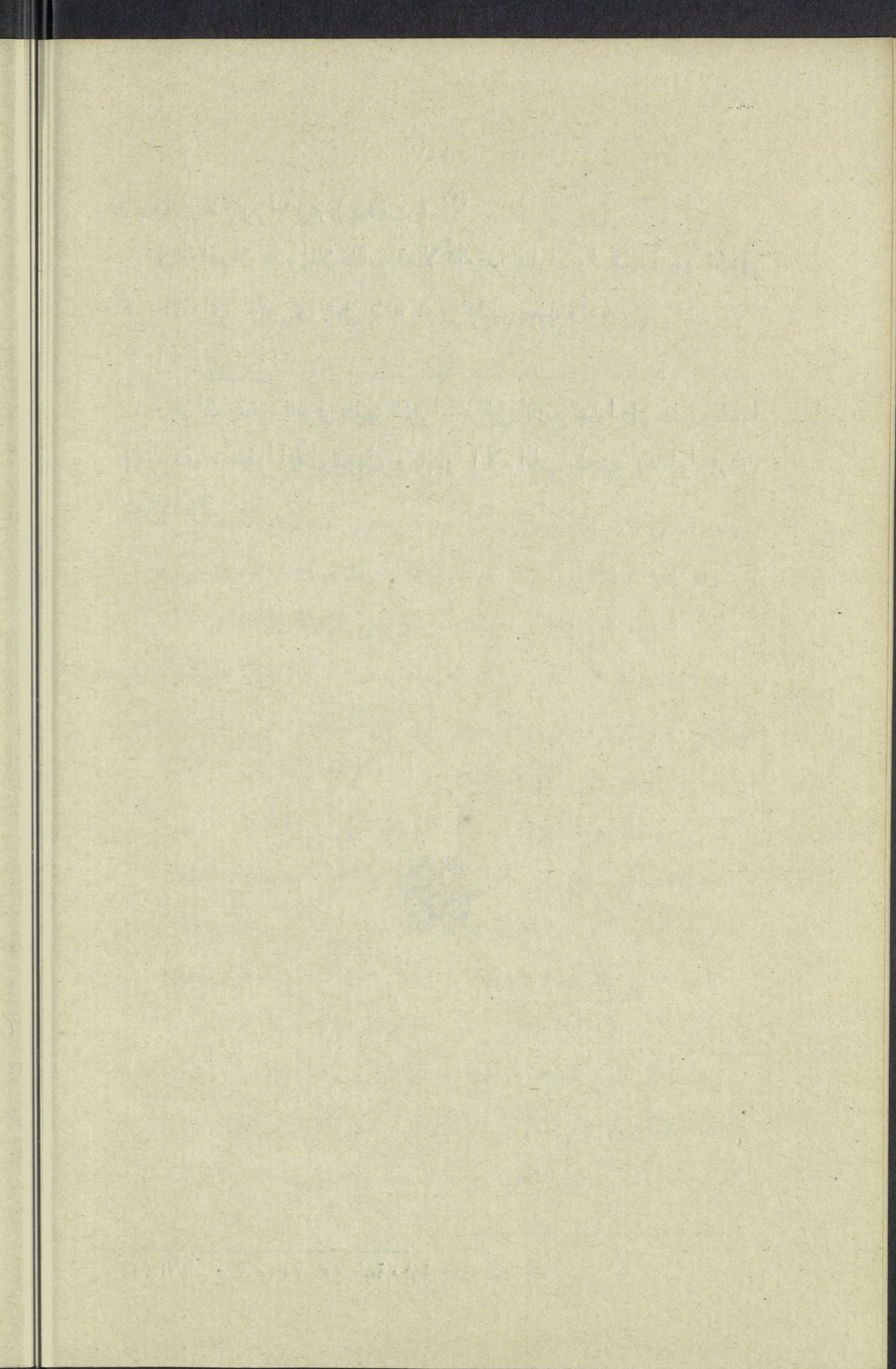
فقال عبدالرحمن بن الأَزهري (صدقت) . (١)

في الواقع أن هذه الملاحظات قد لا تخلو من تطرف ولكنها تصور لنا على كل حال رأي معاصري جميل بشاعريته وإعجابهم بفضله وأدبه .

(هـ) خاتمة :

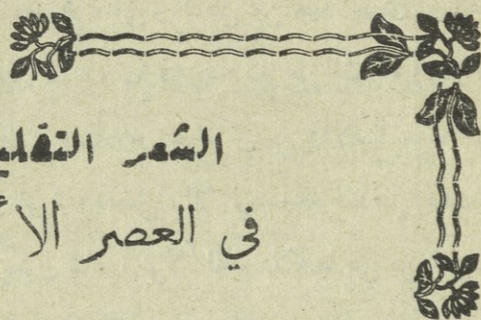
رحم الله جميلاً فإنه في طليعة الشعراء الغزلين الذين جيلوا على الطهر وطبعوا على الصدق وعشقوا الجمال للجمال وكابدوا آلام الحب للحب وعالجوا قرض الشعر للشعر .





الباب الخامس

السفر الثاني
في العصر الأموي



أما الشعر التقليدي ، فإنه من أقدم أنواع القريض العربي كذلك . ولقد كان النابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وأعشى بكر مداحين هجائين ، أي شعراء تقليديين . وكان حسان بن ثابت المتقدم ذكره شاعراً تقليدياً أيضاً . إلا أن هذا النوع من الشعر رزق حظوة كبرى عند بني أمية بسبب اضطرارهم إلى تقريب شعراء المديح والمهجاء ليمجدوا دولتهم ويخلدوا مواقفهم من جهة ، ولينالوا من خصومهم السياسيين وينقصوهم بالحق وبالباطل من جهة أخرى . وهكذا سمت منزلة الشعر التقليدي وعلا شأنه ونبع فيه عدد كبير من الشعراء الكبره بلا نزاع جرير والفرزدق والأخطل . وسأدرس حياة كل من هؤلاء الشعراء الثلاثة وأخلاقه وشعره درساً مفصلاً أو شبه مفصل ، إلا أنني سأحدثك قبل ذلك عن كثير عزة الذي أنكر أن يكون شاعراً غزلاً لعدم دلالة ما بقي من شعره على شيء من هذا ، ولاجماع الرواة على أنه كاذب في صوابته مدّع في حبه كما أنكرت أن يكون شاعراً سياسياً مؤيداً لآل عليّ بسبب إكثاره من مديح آل مروان وإجاده في هذا المديح ، والذي لا أستطيع أن أعده إلا شاعراً تقليدياً ، لأن الشعر بالنسبة إليه صناعة لا رسالة يقوله أملاً بالحصول على مال أوسعياً وراء شهرة أو جاه أو أي شيء آخر من هذا القبيل . إذن فهو شاعر تقليدي ، وبه أستهل الحديث عن الشعر التقليدي وأصحابه .



كثير عزة

—O—

(أ) حياته : نسبه ومولده وكنيته . ثقافته . صلته بآل علي . مثل من شعره فيهم وأخباره معهم . صلته بآل مروان . منزلته عندهم . بعض أخباره معهم . صلته بصاحبه عزة . قيمة ما يتناقله الرواة عن هذه الصلة . استنباطها من غزله . وفاته .

(ب) أخلاقه : حمقه وغروره . بعض أخباره في هذا الشأن .

(ج) منزلته عند الرواة والنقاد .

(د) شعره : غزله : خلوه من العاطفة . لماذا ندرسه ؟ . مثل منه . مديحه : خاصته . مثل منه .

(هـ) خاتمة : منزلته بين شعراء بني أمية

* *

(أ) حياته : هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعي . وكان يكنى أبا صخر . ولما كان جده لأمه يكنى « أبا جمعة » كان يقال له « ابن أبي جمعة » . ليس لدينا ما يعين تاريخ ولادته ولا مسقط رأسه . إلا أنه إذا صح أنه تدرب على يد جميل بن عبد الله بن معمر في قرض الشعر وأنه كان يملك في المدينة حانوت عطار يديره غلام له فينبغي أن يكون قد ولد في المدينة أو في محل قريب منها . وقد أخذ الشعر عن جميل صاحب بشينة المتقدم ذكره فكان خاتمة شعراء المدرسة الأوسية المبرزين . لأنه لم ينبغ بعده من أتباع هذه المدرسة شاعر عالي

الطبقة فيما نعلم . وقد لا يبعد أن يكون أقوى صلة وأشد تأثراً بمذهب زهير من جميل نفسه . فأنت تجد في شعره نقاء ديباجة زهير ومثانة سبكه وانسجام لغته . وهذا هو دون ريب ما رفعه إلى أسمى منزلة بنظر آل مروان وجعل الرواة والنقاد يعجبون بشعره أيما إعجاب ، ويثنون عليه أطيّب الثناء كما سيجيء . وثلاثة أمور لابد من معرفتها والتحدث عنها في حياة كثير وهي : صلته بآل علي ، وصلته بآل مروان ، وصلته بصاحبه عزّة ، فأما صلته بآل علي فإنها ملتوية منحرفة ، ذلك أنه يحبهم ويتشيع لهم وقد نصرهم على آل الزبير فهجا عبدالله بن الزبير عند اضطهاد محمد بن الحنفية وحبسه إياه مع جماعة من الهاشمين بغية إرغامهم على مبايعته ، ولكنه « كيساني » يؤمن بامامة محمد بن الحنفية وبذهب إلى أنه حي لم يمّت ، وإنما هو مغيب عن الأبصار إلى حين ، وأنه عائد إلى هذه الدنيا في يوم من الأيام ليملاها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً . وتروى له في ذلك هذه الأبيات ^(١) :

ولاة الحق أربعة سواء	ألا إن الأئمة من قریش
هم الأسباط ليس لهم خفاء	علي والثلاثة من بنيہ
وسبط غيبتہ كربلاء	فسبط سبط إيمان وبرّ
يقود الخيل يتبعها ^(٢) اللواء	وسبط لا تراه العين حتى
برضوى عنده غسل وماء	تغيب لا يرى عنهم زماناً

على أننا إن شككنا في نسبة هذه الأبيات لكثير فأننا لا نشك مطلقاً في أنه قائل هذا البيت في محمد بن الحنفية وهو :

هو المهدي خبرناه كعب أخو الأجبّار في الحقب الخوالي

(١) تروى هذه الأبيات للسيد الحميري وهو كيساني ككثير .

(٢) هكذا في الأغاني طبعة مطبعة التقدم بمصر وربما كان الصواب بقدمها .

والكثير مع بعض بني هاشم أخبار تدل على أنهم لم يكونوا يحفلون بولائه
 ظلم أو يكثر ثون لتشييعه ، بل إنهم يتفككون بشذوذه ويسخرون منه كما يفعل ذلك
 معه سائر الناس . فقد روي أن عبد الله بن محمد بن الحنفية كان يتعرف بعض
 أحواله ويخبره بها إذا حضر لزيارته ، وإن دل هذا على شيء فانما يدل على دعاة الفتى
 الهاشمي ورغبته في التفكه بشذوذ الشاعر . قد نقول : ولم لا نفترض أن أبا هاشم
 يفعل هذا رغبة في استبقاء سلطانه على كثير ؟! وأجيب بأننا إن افترضنا هذا
 فانه ينتهي بنا إلى القول بسخف الفتى الهاشمي ، لأن احتفاظه بسلطانه على كثير
 لا ينفعه كثيراً ولا قليلاً بل ربما عرّضه لشيء من السخرية والهزء . تلك صلة
 كثير بآل علي على وجه الاجمال .

أما صلته بآل مروان فانها صلة الشاعر المكتسب بالجواد السمع أو السياسي
 الحازم الذي يقبل المديح ويثيب عليه ويذيعه في الناس غير ناظر إلى رأي قائله
 الحقيقي ومذهبه في الدين أو السياسة .

كان كثير شيعياً غالباً كما علمت ، ولكن هذا الغلو في التشيع لم يمنعه من
 التودّد لآل مروان واتجاعهم بالمديح ، كما أنه لم يمنعه من قبول مدائحهم
 وإثابته عليها بالمال الكثير ومن الإعجاب بها إعجاباً شديداً ، بل إنه لم يمنعه أن
 يرفعوه إلى درجة يستطيع معها أن يخاطب خلفاءهم مخاطبة الصديق للصديق .
 روي أنه طلب إلى عبد الملك أن يقطعه أرضاً اسمها (غرب) فقدّم بين يدي
 طلبه هذه الأبيات :

جزتك الجوازي عن صديقك نضرة وأدناك ربي في الرفيق المقرب
 فانك لا تعطى عليك ظلاماً عدو ولا تنأى عن المقرب
 وإنك ما تمنع فانك مانع بحق ، وما أعطيت لم تعقب
 فقال له عبد الملك : « أتريد غرباً ؟ » قال : « نعم » ، قال : « اكتبوها له » ^(١) . والذي

(١) الأغاني ج ٨ ص ٢٨ طبعة المطبعة التقدمية .

يهيئنا من هذه القصة هو قول كثير لعبد الملك في صدر البيت الأول من الأبيات التي تضمنتها « جزتك الجوازي عن (صديقك) نضرة ! » فان هذا الشطر يدل دلالة واضحة على أن كثيراً يعتبر نفسه صديقاً لعبد الملك ، وأن عبد الملك يقبل هذا منه ويقره عليه . ولـكثير مع عبد الملك بن مروان وخلفائه نوارد عديدة أروي لك منها النادرة التالية لدلائلها على مدى العطف الذي يتمتع به منهم .

كان كثير في عسكر عبد الملك بن مروان عندما خرج لقتال مصعب بن الزبير فحدث أن نظر إليه عبد الملك وهو يسير مطرقاً ، فدعا به وقال له : « لا أعلم ما أسكنك وألقى عليك بذلك ، فان أخبرتك عنه أنصدقني ؟ » قال : « نعم » . قال : « قل وحق أبي تراب لتصدقني » ، قال : « والله لأصدقك » . قال « لا أو تحلف به » . خلف به ، فقال : « تقول : رجلان من قريش يلقي أحدهما صاحبه فيحاربه ، القاتل والمقتول في النار ، فما معنى سيري مع أحدهما إلى الآخر ولا آمن سهماً عاثراً يصيبني فيقتلني فأكون معها ؟ » قال : « والله يا أمير المؤمنين ما أخطأت » ، قال : « فارجع من قريب » . وأمر له بجائزة (١)

وعلى قدر ما في صلة كثير بآل مروان من الوضوح والانسجام والاطراد تبدو صلته بصاحبه عزّة غامضة متناقضة مضطربة ، فالرواة يتحدثوننا مرة أن كثيراً كان (مدعيّاً بتقول) وأن عزّة كانت تعرف هذا منه . وأنها أرادت أن تتحقق خيانتة فعرضت له متقبّة وما زالت به حتى فاه بكلمات دلت على بطلان حبه وقلة ا كثرائه لعهوده وموائيقه . ويحدثوننا تارة أن عائشة بنت طلحة وهي من أبرع نساء عصرها جمالاً عرضت عليه وصالحها بدلاً من عزّة فأبى عليها ذلك . ويروون لنا طوراً أن زوج عزّة أرسلها وهما في طريق الحج لتشتري له سمناً ،

فأخذت تدخل مضارب الحجاج واحداً بعد واحد حتى دخلت مضرب كثير ،
وكان قد خرج إلى الحج دون أن تعلم به ، فعرفها ، ولكنها بقيت منكراً له
إلى أن عرفها نفسه . ويروون لنا حيناً أن عزة خطرت على بال كثير وهو بمصر ،
فخرج يريدّها وهي في الحجاز . فلما صار بموضع يقال له (فيفاء خريم) أتى غيراً
كانت فيها عزة فعرفته هي في هذه المرة مع أنه كان مثلثاً بعامة ولم يعرفها هو .
وسألته عن نسبه واسمه وعلاقته بها وعمّا أقدمه هذا المكان ، فأجابها عن
أسمائها جميعاً . ثم أرادت أن تعث به قليلاً فقالت له : « لو أنك لقيت عزة في
هذا الموضع فأمرتك بالبكاء ، أكنت تبكي ؟ » قال : « إبي والله ، دماً ! » فحدثت
اللائم عن وجهها وقالت : « أنا عزة ، فافعل إن كنت صادقاً » . ثم قالت لقائد
قطارها : « إمض لسبيلك » . ويقصون علينا طوراً أن عزة توسطت لدى كثير في بيع
كبش لنسوة من قومها على أن ينسئهن في الثمن وأنها لم تحمل إليه ثمنه وقت أدائه
وإنما حملته إليه امرأة أخرى فقال في ذلك هذا البيت :

قضى كل ذي دين فوقى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

وبزعمون لنا حيناً أن عزة دخلت على أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك
فسألتها عن هذا الدين الذي يشير إليه كثير بقوله (قضى كل ذي دين .. البيت)
فأجابتها : « قبله وعدته إياها ^(١) » ... وهكذا .

والذي أستخلصه من هذا كله أن ما يقناقله الرواة عن علاقة كثير بعزة
لا يمكن أن يعطينا فكرة صحيحة أو شبه صحيحة عنها ، وأتأنا إذا أردنا أن نعرف
شيئاً عن هذه العلاقة فعلياً أن ندرسها في غزل كثير نفسه . ونحن إذا تدبرنا

(١) في رواية أن هذا الحوار جرى بين عزة وبين عائكة بنت يزيد زوجة عبد الملك بن
مهديان وفي أخرى أنه جرى بينها -- أي عزة -- وبين عائشة بنت طلحة زوجة مصعب
بن الزبير .

هذا الغزل رأينا أنه يدل على سوء ظن عزة بصاحبها وعدم ثقتها به ، لأنه يصفها
صمة بالأصغاء إلى الواشين ، وتارة بالتجهم لكثيره ، وطوراً بالأعراض عنه . من
ذلك قول صاحبنا :

فإن جاءك الواشون غني بكذبة فروها ولم يأتوا لها بحويل^(١)
فلا تعجلي يا ليل أنت تنفهمي بنصح آتى الواشون أم بحول
وقوله :

وقال خليلي ما لها إذ لقيتها غداة السنا فيها عليك وجوم
وقوله :

كأنني أنادي صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشي بها العصم^(٢) زأت
غضوباً فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل مات
هذه الشكوى التي يفيض بها غزل كثير من عزة تدل دلالة واضحة على
أنها لم تكن تشاطره الحب ولا تقاسمه آلامه وأشجانه وأنها في ذلك على العكس
من بثينة التي يشهد شعر جميل أنها تضر له الحب وتشعر نحوه بالعطف الشديد .
إلا أنها تحتاط في موقفها منه وتحفظ في إظهار حبا له وعطفها عليه .
وتوفي كثير سنة خمس ومئة للهجرة بالمدينة ، وحدث أن توفي عكرمة مولى
عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما ، يوم وفاته ، فقال الناس : (مات اليوم أفعه
الناس وأشعر الناس ١) وشغلوا بتشييع جنازة الشاعر فلم يجد الفقيه منهم من
يشيع جنازته .

(ب) أخلاقه : على أن الرواة إن كانوا يختلفون في تصوير علاقة كثير

(١) الحويل هنا : الدليل .

(٢) العصم : جمع أعصم . والأعصم من الغباء . وغيرها ما كان في ذراعيه أو أحداها بياض
وسائرهما جامع بين السواد والحمرة .

بعزة فانهم يتفقون اتفاقاً تاماً على أنه كان شديد الحق كثير التيه محباً للفخر ، وقد بلغ من حبه للفخر الكاذب أن أنكر نسبه في خزاعة وأدعى أنه من بني النضر بن كنانة من قريش ، وأقدم على هذا بحضرة عبد الملك بن مروان الذي يعد من أعرف الناس بالناس وأنشده فيه قوله :

أليس أبي بالصّلت أم ليس إخوتي بكل هجاء من بني النضر أزهر
فان لم تكونوا من بني النضر فاتركوا أراك بأذئاب القوايل أخضرا
أليت التي قد سمتني ونكرتها ولو سمتها قبل قبيصة أنكر^(١)
لبسنا ثياب العصب فاخلط السدى بناومهم والحضرمي المحصر^(٢)

فأقره عبد الملك على زعمه ، ولكن على أن ينشد الأبيات السالف ذكرها على منبري البصرة والكوفة ، فقبل ، وقدم العراق ، وأعلن نسبته إلى كنانة على منبر البصرة ، فلم ينشأ عن هذا سوى تهاج لم يبلغ حد الاقذاع بينه وبين الأحوص وقيل بل بينه وبين سراقه البارق . ثم أتى الكوفة ودخل أول ما دخل مسجد بارق ، فقيل له : « أنت من الحجاز ؟ » فقال : « نعم » ، قالوا : « أفتعرف شاعراً دعيّاً اسمه كثير ؟ » قال : « سبحان الله أسمعون أيها الأشياخ ما يقوله الفتيان » ؟ قالوا : « هذا ما قاله هو لنفسه » . فذهب إلى والي الكوفة والتمس منه أن يطيره على البريد ففعل .

(ج) منزلته بنظر الرواة والنقاد : وكما يتفق الرواة على التشديد بكثير والاستخفاف به من حيث هو رجل اتفاقاً تاماً ، يتفقون كذلك على إطراره وتقديمه من

(١) نكر الاسم وأنكره : حمله .

(٢) العصب : ضرب من البرود الجمانية ، وفي الأغاني طبعة مطبعة التقدم بمصر « العطف » وهو خطأ بالطبع . والحضرمي المحصر : النمل المستدقة الوسط . يقول كثير : ان آباءه الجدد من اقصاب قريش يلبسون الوشي ويحتدون الأحذية الفاخرة .

حيث هو شاعر انفاقاً تاماً . فابن سلام بعده من فحول عصره ، ويونس النحوي يقول « إنه أشعر أهل الإسلام » ومصعب الموصلي يقول « إنه أشعر من جرير والفرزدق والراعي وعامتهم - يعني الشعراء - » ومحمد بن عبد العزيز يقول « ما قصّد القصيد ولا نعت الملوك مثل كثير^(١) » . وهناك أقوال أخرى كثيرة من هذا القبيل تجدها في الأغاني وطبقات الشعراء لابن سلام . ولنا نقبل هذه الشهادات بشاعرية كثير على علانها . ولكننا نستخلص منها شيئاً واحداً لا شك فيه ، هذا الشيء هو عظم مكانة كثير بنظر الزواة والنقاد القدماء وإجماعهم الذي يكاد يكون تاماً على إطراره وتقديمه .

(د) شهره : يتألف ما انتهى إلينا من شعر كثير من النسيب والمديح ، ونبدأ بالكلام عن الأول لأنه أبعد شهرة وألصق بسعة الشاعر من الثاني . وأول شيء يقبّاد إلى الذهن عند البحث عن نسيب صاحبنا هو السؤال التالي : أيّ بحر هذا النسيب عن صباية صادقة وحب حقيقي ؟ والجواب : لا ، لأننا لا نجد فيه تلك العاطفة القوية الفياضة التي نحسها كما نحس النور والحرارة في الشمس ونشعر بها كما نشعر بالطيب ينتشر في أنفاس النسيم . ستقول : وماذا يهمنا إذن من غزل كثير إذا خلا من الشعور الحقيقي والعاطفة الصادقة ؟ والجواب عن ذلك : أن هذا الغزل من لطف الخيال وسلامة اللغة ونقاء الديباجة بحيث لا يصح إهماله ، نضف إلى ذلك أنه يحتوي على صور صادقة أصيلة كثيرة تمثل ألواناً مختلفة من الحياة وخروباً عديدة من المشاعر والأحاسيس ، من ذلك قول صاحبنا :

نظرت إليها نظرة وهي عاتق على حين أن شبت وبان نهودها
من الحفرات البيض ودّ جليساها إذا ما انقضت أحدى لو تعيدها

نظرت إليها نظرة ما يسرني بها حمر أنعام البلاد وسودها
وقوله :

يكلفها الغيران شتبي وما بها هواني ولكن للمليك استذلت
هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ لعزة من أعراضنا ما استحلت
وقوله :

و كنت إذا ما جئت أجعلن مجلسي وأظهرت مني هيبة لا تجهّما
يحاذرن مني غيرة قد عرفتها قدما فما يضحكن إلا تبسما

فليس من شك في أننا نرى في المثال الأول صورة صادقة من فتاة فائقة
الجمال ناعمة الشباب ساحرة الحديث ، وفي الثاني زوجة مقهورة يضطرها زوج
عاشم إلى إهانة رجل إن كانت لا تحبه فانها لا تسكره . وفي الثالث عاشقاً
غيوراً تقى غيرته وتخشى مكانته وتبذل الجهود في سبيل إرضائه ولو في الظاهر .

أما مديح كثير فانه يمتاز قبل كل شيء بتوخي الحقيقة وعرضها في أسلوب
رائع بارع . إذ لكل ممدوح فيه صورته الحقيقية التي لو حالمتها على ضوء سيرته
لا تهبت إلى نفس الصفات والمواهب التي ينعت بها التاريخ . فالشجاع الحازم
الشديد البطش لا يمدح فيه إلا بالشجاعة وما يجري مجراها من الخلال ، والامام
الورع العادل لا يوصف إلا بالتقوى والعدل والورع ، والمدير المحسن الذي
يقوى على المنع كما يقوى على الاعطاء يمدح بخلته هذه أيضاً . وأشهد أني لا أعرف
شاعراً مدح بالقدرة على المنع في محله سوى كثير . ولك أن تتبين صدقه في هذه
المثل التي أروها لك من مديحه لجماعة من العظامه مختلفي المذاهب والمشارب
والأخلاق . إسمع قوله في مديح عبد الملك بن مروان :

إذا ما أراد الغزو لم يثن هم حسان عليها عقد درر يزيناها

نهته ، فلما لم تر النهي عاقبه بكت ، فبكى مما شجاها قطينها
ولم يشنه يوم الصبابة بثها غداة استهلت بالدموع شؤونها
ولكن مضى ذو مرة مثبتت بسنة حق واضح مستبينها
وقوله في مديح عمر بن عبد العزيز :

وليت ، فلم تشتم عيياً ولم تخف برياً ولم تتبع مقالة مجرم
وقلت فصدقت الذي قلت بالذي فعلت فأضحى راضياً كل مسلم
وما زلت سباقاً إلى كل غاية صعدت بها أعلى البناء المقدم
فلما أتاك الملك عفواً ولم يكن لطالب دنيا بعدها من تكلم
تركت الذي بقى وإن كان موثقاً وآثرت ما يبقى برأي مصمم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها منادٍ ينادي من فصيح وأعجم
يقول : أمير المؤمنين ، ظلمتني بأخذٍ لدينار وأخذٍ لدرهم
ولا بسط كفى لأمري ، ظالم له ولا السفك منه ظالماً مله محجم

وقوله في مديح عبد العزيز بن مروان :

إذا المال لم يوجب عليك عطاءه صنيعه تقوى أو خليل تخالفه
منعت ، وبعض المنع حزم وقوة فلم يفن ذاك المال إلا حقائقه
فبورك ما أعطى ابن ليلي بنية وصامت ما أعطى ابن ليلي وناطقه
أظنك توافقني على أن كثيراً سدّد لكل من هؤلاء العطاء نظرة صادقة
سبر بها غوره ونفذ إلى قرارة نفسه ووصفه بما ينطبق على أقواله وأعماله انطباقاً
تاماً .

(هـ) خاتمة :

والآن لنضع كثيراً في المنزلة التي يستحقها بين شعراء القرن الأول للهجرة ،

فليس ثمة ريب في أنه من ناحية النسب دون أستاذه جميل سمو عاطفة ورقة
شعور وصدق إحساس ولكنه قد يفوقه رصانة أسلوب وصفاء ديباجة . أما من
حيث المديح فقد لا تغلو إذا لاحظنا أنه يبد جريراً والفرزدق والأخطل في
نحري أخلاق عظماء الرجال ومواهبهم ومناقبهم الحقيقية وتصويرها تصويراً
صادقاً .



الفصل الثاني

جبرير

—O—

(أ) حياته : اسمه ونسبه وكنيته . مولده . أسرته . استرداد جده الخطفي مانحه من ماله . انسجام هذا وما يروى عن جرير بشأن أخلاق أبيه . عقوقه له . مقارنة بينه وبين الخطيئة . موقف أولاده منه . خشونة عيشه . منزلته عند الأمويين . خصومه من الشعراء . غلبته عليهم جميعاً سوى الفرزدق والأخطل . وفاته .

(ب) أخلاقه : عقوقه لأبيه . قذفه الحصنات . طمعه .

(ج) شعره : جمعه وطبعه . أبوابه . غزله على العموم : سر جماله . مثل منه . آراء وملاحظات . غزله الأصيل . مثل منه . رثاؤه : إخلاصه فيه . نموذج منه . هجاؤه : خشية الناس إياه . كيف يهجو الفرزدق ؟ كيف يهجو الأخطل ؟ كيف يهجو عمر بن لجأ التيمي ؟ ! بعض أساليبه الأخرى في الشجار . مثل من هجائه . مديحه : خاصته . مثل منه . فخره : أهم عناصره . مثل منه .



والآن لتتحدث عن المثلث الأموي الشهير ، وهو مؤلف من جرير والفرزدق والأخطل كما تعلم ، ونبدأ بجرير لأنه أطول الثلاثة باعاً وأرسخهم قدماً في صناعة القريض .

(أ) وهو جرير بن عطية بن حذيفة الملقب بالخطفي^(١) من يربوع ويربوع من تميم، أي أنه ابن عم الفرزدق الذي سابه مدة تقارب الأربعين سنة. وكنيته أبو حزره وحزره أكبر أولاده.

ولد باليمامة في خلافة عثمان. ومع أنه طالما فخر بنسبه يغلب على الظن أنه من أسرة خاملة لا شأن لها، وفي أخباره ما يؤيد ذلك تأييداً تاماً.

روي أن جده الخطفي نخله شيئاً من ماله ولكنه استرد ما نخله إياه على أثر ولادة صبية ولدت له. وما أظن أن عربياً ذا مروءة يفعل هذا. ولقد كان لهذه الحادثة أثرها السيء في نفس جرير فعاتب جده عتاباً مرأاً أروي لك منه هذه الأبيات:

وقائلة والدمع يحدر كحلها	أبعد جرير تكرمون المواليا ؟
فردّي جمال الحي ثم تحملي	فمالك فيهم من مقام ولا ليا
وإني لمغرور أعلل بالمتى	ليالي أرجو أن مالك ماليا
فأنت أبي ما لم تكن لي حاجة	فان عرضت أيقنت أن لا أباً ليا
وإني لعف الفقر مشترك الغنى	سريع إذا لم أرض داري انتقاليا ^(٢)

(١) لقب بالخطفي لقوله في وصف الابل:

يرفعن بالليل اذا ما أسدقا أعناق جنان وهاماً أرحفا

وعنقاً بعد الرسم خيطفا

(٢) وقد جرير على يزيد بن معاوية في أيام خلافته واستأذنه في الدخول عليه والانشاد بين يديه. فقبل له ان امير المؤمنين يقول: لا بدخل علينا شاعر لا نعرفه. فقال للعايب: قل له انا القائل: « واني لعف الفقر ... الخ » وذكر بضمة ابيات من القصيدة. وكان يزيد قد انتحل هذه الأبيات في حادث جرى له مع ابيه فأذن له وقال وهو يشير الى الأبيات: (لقد فارق ابي الدنيا وهو يعتقد اني قائلها) ثم قبل مدحته واحسن جائزته. وهناك شيء احب ان اقلوه هنا وهو أن في رواية هذه الابيات خلافاً بين الأغاني والديوان من حيث الترتيب ومن حيث بعض الألفاظ وقد اخترت من كلتا الروايتين ما بدا لي انه الصواب.

جرير. الجنان لأهاب من الردى إذا ما جعلت السيف قبض بشايبا
وليس لسيفي في العظام بقية وللسيف أشوى وقعة من لسانيا
بأي سنان تطنن القوم بعدما نزعت سناناً من قناتك ماضيا

ولك أن تقارن بين حذيفة جدّ جرير الذي استرد ما وهب لحقيده لأن صبية ولدت له وبين ضصة بن ناجية جدّ الفرزدق الذي كان يفدي المؤذات أو المعرضات للوآد بديات يؤديها من ماله الخاص لتتبين الفرق بين نسب جرير ونسب الفرزدق . وعمل حذيفة المتقدم ذكره ينسجم كل الانسجام وما دل عليه جرير سائلاً سألته عن أشعر الناس من اعتقال أبيه عطية عنزاً وامتنصاص ضرعها خشية أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه اللبن .

وقد حملت خسة عطية هذه ولده جريراً على عدم البر به كما حملت خفة أم الخطيئة ولدها على البرم بها ، ثم على هجائها أقطع الهجاء . وما دما قد قارنا بين جرير وبين الخطيئة من حيث ضعة النسب ومن حيث العقوق للوالدين فلنلاحظ أنهما سيّان كذلك من حيث النعمة على الناس والرغبة في التقشي منهم والتهجم على أقدارهم وأحسابهم . إلا أن خشية الخطيئة صرامة العقوبة على عهد الراشدين حملته على أن ينزّه هجاءه عن الفحش ، بينما حمل تساهل الأمويين جريراً على أن يفحش في هجائه وأن يمعن في الفحش إمعاناً . وقد ذاق جرير مرارة العقوق من أولاده^(١) ولا سيما بلال ؛ إلا أن هذا لم يدهشه ، لأنهم كانوا يعيدون عليه ما رأوا وما سمعوا منه في معاملته لأبيه . وكان إلى هذا خشن العيش جم الحرمان ،

(١) كان لجرير بيتان وثمانية أولاد ذكور كلهم شعراء ، أكبرهم حمزة الذي كان يكنى به كما مر . ومن المعروفين منهم نوح وبلال وعكرمة الذي حمل آخر مدائعه إلى هشام بن عبد الملك عندما أقدمته الشيخوخة عن زيارته والمثول بين يديه .

روى أنه اشترى جارية من رجل اسمه زيد فلم تلبث أن فراكته^(١) لأنها لم تصبر على خشونة عيشه . فقال في ذلك :

تكلفني معيشة آل زيد ومن لي بالمرقوق والصناب^(٢)
وقد عقب الفرزدق على هذا بقوله :

لئن فركتك عليجة آل زيد وأعوزك المرقق والصناب
لقدما كان عيش أهلك جدباً يعيش بما تعيش به الكلاب

وقد امتدح جرير طائفة من خلفاء بني أمية وأمرائهم ورجال دولتهم ؛ مدح يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد وسليمان ويزيد وهشاماً أولاد عبد الملك ، ومدح عمر بن عبد العزيز ، ومدح عبد العزيز بن مروان ومستلمة بن عبد الملك ، وعبد العزيز والعباس ابني الوليد ، ومعاوية بن هشام ، ومدح الحجاج بن يوسف الثقفي ، وخالد بن عبد الله القسري . مدح كل هؤلاء العظماء من رجال دولة بني أمية وغيرهم ، ولكنه لم يكن ذا مكانة مرموقة عند الأمويين . فانت تعلم أن الحجاج لم يحجم عن إلقاءه في بركة قصره عندما دخل مدينة واسط بدون إذنه . وأن عبد الملك لم يأذن له بالانشاد بين يديه إلا بعد شفاعته محمد بن الحجاج له ، وأن الوليد بن عبد الملك أراد أن يسرجه ويلجمه وأن يحمل شاعره الخاص عدي بن الرقاع على ظهره لتطاوله عليه وتعرضه له . وأن عمر بن عبد العزيز قرنه وصاحبه عمر بن لجأ التيمي في حبل وشهرهما في المدينة عندما تجاوزا حدود الأدب في تنهاجيهما . ولكنهم - أعني الأمويين - كانوا يقبلون مدائحه ويحزلون صلته وهذا هو كل ما يهمهم .

ومما تجب الإشارة إليه في الكلام عن حياة جرير كثرة خصومه من

(١) فركت المرأة زوجها : كرهته .

(٢) المرقق : الحيز الرقيق . والصناب : شيء يتخذ من الحردل والزبيب .

الشعراء، فقد تألب عليه أكثر من أربعين شاعراً بينهم المدافع عن عرضه وشرفه كالفرزدق، وبينهم المدفوع بحكم ضرورة أخرى إلى ملاحاته ومهاجاته كالأخطل، وبينهم المتعرض له والمتحرش به طمعاً بأن يقترن اسمه باسمه ويسير شعره إلى جنب شعره في الآفاق كهمر بن لجأ التيمي، فهزمهم وأخفهم سوى اثنين منهم هما الفرزدق والأخطل. ولم يخز بهجائه شاعر كما خزي به عبيد الراعي الذي قال فيه بائنه التي مطلعها :

أقلّي اللوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا
والتي يقول فيها :

ففضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا
فقد تشامم بعبيد بعد هذا قومه وسبوه وولده الذي حمل جريراً بنزقه وسوء تصرفه على هجائه وهجاء أبيه وعلى هجائهم في النهاية . وكانت شاعرية جرير الفذة تسلية الراعي الوحيدة فيما أصابه من الخزي وسوء الأحداث : روي أنه سمع ذات يوم رجلاً ينشد :

وعاور عوى من غير شيء رميته بقافية أنفاذاها تقطر الدما^(١)
خروج بأفواه الرواة كأنها قرى هندوانيّ إذا هزّ صما^(٢)
فسأله : لمن هذان البيتان ؟ قال هما لجرير فقال : لعن الله من يلومني على أن يغلبني مثل هذا .

وعمر جرير حتى أربت سنه على الثمانين وشهد موت الأخطل والفرزدق وهجاءها بعد موتها فقال في الأول :

زار القبور أبو مالك فكان كالألم زوارها

(١) الانفاذ : جم نفذ وهو الحرق الذي تحدته الطمئة وما يجري مجراها .

(٢) القرى : الظهر .

وقال في الثاني :

مات الفرزدق بعدما جدّته ليت الفرزدق كان عاش قليلا
وليم في هجاء الفرزدق بعد موته فندم ورثاه . وتوفي بعده بعدة أشهر زعموا
أنها ستة وقد قيل غير ذلك . والرواة مختلفون في تاريخ وفاة الفرزدق كما سيجيء .
لكن الراجح هو أنه توفي عام (١١٤) للهجرة فتكون وفاة جرير إذن في العام
السالف ذكره .

(ب) أخلاقه : المعروف أن جريراً كان متديناً عفيفاً ، ولسكني أشك في أن
يكون ذا عقيدة دينية راسخة تسيطر على نزعاته وتهذب من أخلاقه ، لأنه لو كان
كذلك لحمله دينه على البر بأبيه ونهاه عن التهجم على أعراض الناس وأحسابهم .
وأكبر الظن عندي أنه كان يصطنع الدين لأن الفرزدق لا يتقيد به ، ويصطنع
العفة كذلك لأن الفرزدق كان متجاهراً بالفسق . وقد اعتذر عن قذفه المحصنات
بأن أولياءهن يبدأونه ولم يكن الصفح من أخلاقه . على أنه لو كان متديناً حقاً
لعمل بقول القرآن « واصفح الصفح الجميل » . ثم ألم يكن يجد - وهو الشاعر
الفحل - في ضروب الهجاء المختلفة مندوحة عن نهش أعراض المحصنات ورميهن
بأنواع المنكرات ؟ ألم يكن الخطيئة قبله شاعراً هجاءاً مرهوب اللسان دون أن
يلوث هجاءه بفاحش القول وسافقه ؟ وأخيراً ، ألم يخز هو عبيد الرأي وقومه
نميراً ببيت واحد لا فحش فيه ولا هجر هو قوله : (ففض الطرف ... الخ) ؟ !
الواقع أن الدين كلمة على لسانه لا أثر لها مطلقاً في نفسه .

وكان علاوة على ما تقدم كثير الطعم شديد الجشع . أوفده الحجاج مع ابنه محمد
على عبد الملك بن مروان تقريباً له بمديحه وأعطاه فيما أعطاه قبل إيفاده عشرة أعبد،
ولكنه ما كاد يمدح عبد الملك حتى قال له إن أولاده يتضورون جوعاً وإنهم يعيشون
على الماء القراح وإنه وهم ينتظرون عطاء الخليفة ليتقوا به غائلة الجوع ، ولعل الأبيات

التالية أصدق صورة لفاقة جرير النفسية ورغبته الملحة في الاستعطاف والاستجداء. قال:

أشكو إليك فأشكني ذرية لا يشعرون وأهمهم لا تشبع
كثروا عليّ فما يموت كبيرهم حتى الحساب ولا الصغير المرضع
وإذا نظرت بريني من أهم عين مهجبة وخد أسفم^(١)
وإذا تقاسمت العيال غبوقها كثر الأنين وفاض منها المدمع
رشي، فقد دخلت عليّ خصاصة مما جمعت ، وكل خير نجمع

(ج) شعره : لجرير شعر جم طبع جزء كبير منه في (مناقضات جرير والفرزدق) التي نشرها المستشرق الانكليزي (بيفن) Bevan في ثلاثة مجلدات ضخمة ظهرت بين سنتي ١٩٠٥ و ١٩١٢ . وطبع جزء أكبر منه في المجموعة التي أصدرها محمود عبد المنعم الشواربي عام (١٣١٣) للهجرة وضمّتها على سبيل الاستطراد قصائد ومقطوعات كثيرة لغير جرير ، ولكنه سماها (ديوان جرير) . ونشرت طائفة منه في مجموعة (نقائض جرير والأخطل) التي نشرها الأب صالحاني عام (١٩٢٢) ، وطبع كله في ديوان غني بجمعه وطبعه الأستاذ محمد إسماعيل الصاوي عام ١٣٥٣ للهجرة .

وقد اشتمل هذا الديوان على كل باب من أبواب الشعر ، فكان فيه الغزل ، وكان فيه الرثاء ، وكان فيه الفخر ، وكان فيه العتاب ، وكان فيه الوصف . أما المديح والهجاء فانهما يحتلان المقام الأول في هذا الديوان كما هو معلوم وقد نجح جرير في معالجة كل باب من هذه الأبواب سوى الوصف ، نجاحاً لا شبهة فيه ولا غبار عليه .

غزله : يعتقد بعض النقاد القدماء أن جريراً أنسب العرب لقوله :

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا تم لا يحيين قتلنا

(١) مهجبة : غائرة . والأسفم : هو الذي يعلو حمرة سواد.

يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا
وهناك من يرفعه إلى أعلى مكانة في عالم النسيب لقوله :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال معينا
غيض من عبراتهم وقن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا

ويحدثنا هو عن قدرته الفائقة على صوغ بدائع النسيب فيقول: (لولا ما شغلني من هذه الكلاب - « يعني خصومه من الشعراء » - لشببت تشبيهاً نحن منه العجوز إلى شبابها حنين الناقة إلى سقها) . والذي نعتقده هو أن غزل جرير رقيق جذاب على العموم إلا أنه غير أصيل . وهو كذلك لأن جريراً لم يكن عاشقاً عفيفاً شديد اللوعة كجذيل بن معمر وقيس بن ذريح ، ولم يكن غزلاً ماجناً كهمر بن أبي ربيعة والعرجي ، وإنما كان - كما يستشف من شعره - رقيق الاحساس حي الشعور خصب الخيال ومن شأن هذه المزايا أن تهني لصاحبها قدرة عجيبة على صوغ بدائع النسيب وروائع الغزل . وهذا ما حصل لجرير بالفعل ، فقد رق نسيبه وجاد غزله إلى درجة يخيل لك معها أن قائله من ذاق مرارة الحب وتقلب على يهر الهوى . أتريد برهاناً على ذلك ؟ اقرأ قوله : -

بنفسي من تجنبه عزيز علي ومن زيارته لمام
ومن أمسي وأصبح لا أراه وبطرفي إذا هجم النيام
أليس لما طلبت فدتك نفسي قضاء أو لحاجتي انصرام ؟
أتنسى إذ تودعنا سليماً بفرع بشامة ؟ سقي البشام
تركت محلين رأوا شفاءاً فحاموا ثم لم يردوا وحاموا

وقوله :

يا أم عثمان إن الحب عن عرض بصبي الحليم ويبيكي العين أحياناً

لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعت
يلقى غريمكم من غير عسرتكم
لقد كتمت الهوى حتى تهمني
أبدل الليل لا تسري كواكبه ؟
يا رب عائذة بالغور لو شهدت
يا حبذا جبل الريان من جبل
وحبذا نفحات من يمانية
هل يرجع وليس الدهر مرتجعاً
أزمان يدعوني الشيطان من غزلي
أسباب دنياك من أسباب دنياي
بالنبل بخلا وبالأحسان حرمانا
لا أستطيع لهذا الحب كتماناً
أم طال حتى حسبت النجم حيراناً
عزت عليها بدير اللج شكواناً
وحبذا ساكن الريان من كانا
تأتيك من قبل الريان أحياناً
عيش بها طالما أحلولى ومالاناً
وكن يهويني إذ كنت شيطاناً

أظن أنك لو قرأت هذا النسيب في ديوان جميل بن معمر لما أنكرت وجوده فيه ، ولكن حذار أن تستنتج منه أن جريراً تبغ نساء تأسره النظرة وتقويه الكلمة وتستهو به الابتسامة ، فليس في أخباره ما يدل على أنه كان كذلك في يوم من الأيام . وليس في غزله ما يدل حقيقة على أنه كان كذلك في يوم من الأيام . وكل ما في الأمر أنه أوتي من دقة الحس ورقة العاطفة ولطف الخيال ما يمكنه من أن يخلع على عامة غزله هذه المسحة الغرامية المستطرفة .

على أن في صدور بعض مدائحه وأهاجيه غزلاً أصيلاً هو هذا الذي يشبب فيه بزوجته خالدة المسكنة بأم حزرة ، وأمومة والدة ابنته زينب . وأسرع فأقول لك إن هذا الغزل الواقعي لا يمتاز عن غيره من غزل جرير إلا بكونه قد قيل في امرأة حقيقية لا في عروس من عرائس الخيال والوهم . ولكي تتحقق صحة هذا الزعم أروي لك منه الأبيات التالية التي يتغزل فيها جرير بزوجته خالدة . ويغلب على الظن أنه قال فيها هذه الأبيات قبل أن يبني بها قال جرير :

أنخالد عاد وعدم خلايا^(١) ومنيت المواعيد والكذابا
 ألم تبيني كلفني ووجدني غداة برد أهلكم الركابا^(٢)
 أهذا الود زادك كل يوم مباعدة لالفك واجتنابا
 لقد طرب الحام فهاج شوقاً لقلب ما يزال بكم مصابا
 ونرهب أن نزورك عيوننا مصانعة لأهلك وارقبابا
 فما باليت ليلتنا بنجد ودمع العين ينحدر انسكابا^(٣)
 لذكرك حين فوزت المطايا على شرك تخال به سبابا^(٤)
 ألا ياقلب مالك إذ تصابي وهذا الشيب قد غلب الشبابا^(٥)
 كما طرد النهار سواد ليل فأزعم حين حل به الذهابا
 سأحفظ ما زعمت لنا وأرعى إياب الود إن له إيابا
 وليل قد آيت به طويل لحبك ما جزيت به ثوابا
 بنفسني من أزور فلا أراه ويضرب دونه الخدم الحجابا
 أخالد لو سألت علمت أني لقيت بحبك العجب المعجابا
 فأنت ترى أن هذه القطعة الغزلية الأصيلة وهي من خير ما قال صاحبنا في

(١) الخلاب : المخادعة .

(٢) يردونها من المراعي ليحتملوا الى محاضرم .

(٣) ربما كانت (ينسكب انسكابا) .

(٤) فوزت : ركبت المفازة . وشرك : اسم موضع ، وسباب : جمع سب : وهو القطعة من السكبان .

(٥) ليس لدي ما يثبت أن جريراً أخذ معنى هذين البيتين من الفرزدق ، أو أن الفرزدق أخذه منه حيث يقول :

قالت وكيف يميل مثلك للصبا وعليك من صمة الحليم وقار
 والشيب ينهض بالشباب كأنه ليس يصيح بجبانته نهار
 ولكن الذي لا شك فيه هو أن بيتي الفرزدق انفي ديباجة وأرقى أسلوباً من بيتي جرير .

هذا الباب لا تختلف في شيء وما تقدم ذكره من غزله التقليدي، ذلك لأن الشاعر في كل ما رويت لك من غزله متوقد اللوعة شديد الكلف حاد الألم، ولأن حبيته في كل ما رويت لك من غزله نافرة هاجرة تعد ولا تنجز وتمني ولا قليل. ولكن جريراً محسن كل الاحسان في كل من غزله الواقعي وغزله التقليدي على حد سواء.

رثاؤه: وكما أتى جريراً طبعه في النسب فبرع فيه براعة تامة واتاه طبعه كذلك في الرثاء فأجاد فيه إجادة غير قليلة. ولست أنكر أنه يغلو في رثائه أحياناً، فيزعم أن البحار فضبت والأرض مارت والجبال دكت حزناً على الفقيد. ولكنني أقول إنه يخلص في أكثر رثائه إخلاصاً كافياً، فيذرف الدمعة السخينة ويعبر عن اللوعة المبرحة، ويصف أثر المصيبة في نفسه أو في نفوس من حلت بهم وصفاً رائعاً مؤثراً، إقرأ رثاءه لزوجته ولائنه سواده ولأخويه عمرو وحكيم ولوليد بن عبد الملك ولجبر بن عياض تجد أن ما أقوله حق لا مرأ فيه. وأغرب ما يلاحظ في هذا الصدد رثاؤه البليغ للفرزدق، ذلك الرثاء الذي لا تكاد تلمس فيه أثراً للرياء أو المجاملة، وأنا أروي لك إحدى مرثياته العديدة لخصمه وابن عمه لأضع بين يديك مثلاً من رثائه الممتاز ولتشاطري الشعور بغربة هذا الرثاء، قال جرير:

لعمري لقد أشجى تيماً وهدها	على نكبات الدهر موت الفرزدق
ثوى حامل الأثقال عن كل مغرم	ودامغ شيطان الغشوم السملق ^(١)
عماد تميم كلها ولسانها	وناطقها البذاخ في كل منطق
فمن لذوي الأرحام بعد ابن غالب	وجار وعان في السلاسل موثق ^(٢)

(١) السملق: الصخاب.

(٢) في الديوان (لجار) والصواب ما أثبتناه.

ومن ليتيم بعد موت ابن غالب وأم عيال ساغبين ودردق^(١)
 ومن يطلق الأسرى ومن يحنن الدما يده ويشفي صدر حران محنق
 فكم^(٢) من دم غال تحمل ثقله وكان حمولاً في وفاء ومصداق
 وكم حصن جبار همام وسوقة إذا ما أتى أبوابه لم تغلق
 فني عاش بيني المجد تسعين حجة وكان إلى الخيرات والمجد يرتقي
هجاؤه : أبرع من غزل جرير ورثائه هجاؤه الذي امتاز به بين شعراء
 عصره والذي أكسبه شهرة مخيفة وسمعة هائلة .

دوي أنه مر بقرية اسمها (عزولاء) فأناخ راحلته على باب رئيسها وهو
 الأخرم بن أخضر الوائلي فعبث الصبيان براجلته فتحول عن هذه القرية إلى
 أخرى ونزل عند رجل يقال له عبد الله بن بدر السحيمي فنحله وأكرمه .
 وجاء الأخرم، فرأى آثار رحل جرير، فقال لأهله : « ما هذا ؟ » قالوا : « إنسان
 يقال له جرير بن الخطفي أناخ فعبث الصبيان براجلته فتحول إلى عبد الله » فنأدى :
 « يا سوء صباح بني مازن » - وكان مطاعاً في قومه - فجمع نساءهم وأجلسهن على
 أكمة ثم قال لهن : « إذا قلت لـكن قد جاء ، فانهضن والطنن الوجوه وقتن :
 « يا سوء صباح نسوة بني مازن ، وتعوذن به » ، فلما أقبل جرير فعلمن ذلك، وكان قد
 هجا عزولاء وأهلها بقوله :

إذا شاع السلام بأرض قومٍ فليس على عزولاء السلام
 منزلة تبراً الله منها بها من مازن نفر لثام
 فقال لهن : « أما البيتان فقد مضيا ، وقد وهبت لـكن ما سوى ذلك » . ونحله
 الأخرم وأكرمه ، وأقام جرير عنده يوماً .

(١) الدردق والدرادق : الصغار .

(٢) في الديوان (وكم) .

ولدى جرير صنوف مختلفة من الهجاء أعد كلاً منها لمقارعة خصم من خصومه. فآل مجاشع - رھط الفرزدق - جبناء أذلاء لا يحصى لهم ذمار ولا يعز لهم جار تذكرهم قریش دائماً بالسوء لأنهم غدروا بالزبير حواري رسول الله (ص) ولم يعصموه من القتل ، وهم قيون^(١) أولوا أكيار وفؤوس ومساحي ، يصقلون السيوف ولكنهم لا يحملونها في يوم قتال ، ثم هم بعد هذا وذاك ذوو أعراض ملوثة وأحساب خير مشرفة لا يملكون مثقال ذرة من الغيرة على محارمهم ، ولهم من تاريخ ليلي أم الفرزدق وجعتن أخته ما يفضحهم في كل محفل ويخزيهم في كل موسم ، هذا إلى أن الفرزدق فاسق فاجر لا دين له ولا مروءة . والتغليوث رھط الأخطل كفرة فجرة بشر بون الحجر ويأكلون الخنزير وبعبدون الصليب ويؤدون الجزية (ويسمون الفليس ولا يسمون عبد الملك ولا هشاماً) وهم بعد ذلك أصحاب فاقة وأرباب ذلة ومسكنة . وآل التميم قوم عمر بن لجا وضعاء صعاليك قلو فذلوا وخبت أصولهم فخبث فروعهم ، (كريمهم لثيم وسيدهم مسود) . وجرير يقاضي خصومه إلى ذوي الرأي والانصاف من قریش وغيرها من القبائل لأنه واثق بعدالة قضيته ، وهو يناشد الناس من حين لآخر : ألا يعلمون من يقف المواقف الباسلة المشرفة ويعطي السيف حقه في ساحات القتال والنضال؟! وقد تسألني أن أروي لك شيئاً مما يسمح الأدب بروايته من هجاء جرير فاسمع قوله في هجاء الفرزدق عندما تقاه مروان بن الحكم من المدينة لاقراره على نفسه بالزنا في رائيته التي مطلعها : (ألا من لشوق أنت بالليل ذاكرة) : -

لقد ولدت أم الفرزدق فاجراً فجاءت بوزوازٍ قصير القوائم^(٢)

(١) كان لصمصمة جد الفرزدق قيون يعملون له فاتخذ جرير من ذلك سبباً للطعن في الفرزدق وآبائه .

(٢) الوزواز : الطياش الخفيف . قصير القوائم : قصير الرجلين .

يوصل حبله إذا جن ليله ليرقى إلى جاراته بالسلام
 أتيت حدود الله مذ أنت يافع وشبت فما ينهك شيب الهازم^(١)
 هو الرجس يأهل المدينة فاحذروا مداخل رجس بالخبيثات عالم^(٢)
 لقد كان إخراج الفرزدق عنكم طهوراً لما بين المصلى وواقم^(٣)
 تدايت تزني من ثمانين قامة وقصرت عن باع العلى والمكرم
 وقوله في هجاء الأخطل وقومه :

إنا تفضل في الحياة حياتنا ونسود من دخل القبور قبورا
 الله فضّلنا وأخرى تغلباً لن نستطيع لما قضى تغييرا
 فينا المساجد والامام ولا ترى في دار تغلب مسجداً معمورا
 تلقى إذا اجتمع الكرام بموطن أشراف تغلب سائلاً وأجيراً
 لعن الاله نسيّة من تغلب يرفعن من قطع العباء خدورا
 الجاعلين لما سر جس حجّهم وحجيج مكة يكثر التكيراً
 لقي الاخيطل أمه مخمورة قبحاً لذلك شارباً مخمورا
 لم يجر مذ خلقت على أنيابها ماء السّواك ولم تمس طهوراً
 وقوله في هجاء التيم وصاحبهم عمر بن لُجأ :

لثام العالمين كرام تيم وسيدهم وإن رغوا مسود
 وإنك لو لقيت عبيد تيم وتياً قلت : أيهم العبيد؟
 أرى ليلاً يخالفه نهار ولؤم التيم ، ما اختلفا ، جديد

(١) اليافع : الغلام إذا ناهز البلوغ . الهزيمة : عظم نأى في الالحى تحت الأذن والمرأ .
 بشيب الهازم : شيب شعر الوجه .

(٢) الرجس : القدر يطلق مجازاً على الرجل الفاسق .

(٣) المصلى : موضع في المدينة . وواقم : حصن فيها .

بنجث البذر يثبت حرث تيم فما طاب النبات ولا الحصيد
 ومالك الفوارس يا ابن تيم ولا المستأذنون ولا الوفود
 أهانك بالمدينة يا ابن تيم أبو حفص وجدّك الوليد
 وإن الحاكمين لغير تيم وفينا العز والحسب التليد
 وإن التيم قد خبثوا وقلوا فما طابوا ولا كثر العديد

مديحه : أما مديح جرير فانه وصف محكم لأخلاق عظماء الرجال ، وتصوير صادق لما في أيديهم من ملك وسلطان ولما يتمتعون به من حول وطول ، واستجداء دائم متصل ، ذلك لأنه لا يكاد يمدح خليفة أو أميراً أو وزيراً أو قائداً أو وجهياً حتى يقول له إنه مسكين وابن سبيل قد كثر عياله وقلّ رزقه ، وإن معونته عمل مبرور لا ينبغي أن يفوته . وغني عن البيان أنه إذا كانت الرغبة في الحصول على الجائزة هي التي تلي على شاعر المديح ما يقوله في عطاء الرجال فلا محل للبحث عن الاخلاص في مديحه . هذا فضلاً عن أن جريراً حرّض الوليد بن عبد الملك على إقصاء أخيه سليمان عن ولاية العهد وعقد البيعة لابنه عبد العزيز من بعده ، ثم إنه مدح سليمان بن عبد الملك وهناه بالخلافة عندما ارتقى إلى منصة الملك بعد وفاة أخيه الوليد . على أن هذا كله لا يحملنا طبعاً على الغض من جرير الرائعة التي وصف بها أعمال عظماء عصره وأخلاقهم شيئاً لا بأس به من أحوالهم . فمن تلك الغرر قوله في مدح هشام .

شققت من الفرات مباركات جوارى قد بلغت كما تريد
 وسخرت الجبال وكن خرساً يقطع في مناكبها الحديد
 بلغت من الهنيء فقلت شكراً هناك وسهل الجبل الصلود
 بها الزيتون في غلل ومالت عنا قيد الكروم فهن سود ^(١)

(١) الغل : الماء الجاري تحت الشجر .

قَتَمَتْ فِي الْهَنْيءِ جَنَاتِ دُنْيَا فَقَالَ الْخَاسِدُونَ هِيَ الْخُلُودُ (١)
بَعْضُونَ الْأَنَامِلُ إِن رَأَوْهَا بِسَاتِنَسًا يُوَازِرُهَا الْحَصِيدُ
وَمِنْ أَزْوَاجِ فَالَكِهِ وَنَحْلُ يَكُونُ بِحِمْلِهِ طَلْعُ نَضِيدِ
تَهْنَأُ لِلْخَلِيفَةِ كُلِّ نَصْرٍ وَعَافِيَةٍ يَجِيءُ بِهَا الْبَرِيدُ
رَضِينَا أَنْ سَيِّدِكَ ذُو فَضُولٍ وَأَنْتَ عَنْ مُحَارِمِنَا تَنْزُودُ
وَأَنْتُمْ الْحِمَاةُ بِكُلِّ ثَغْرِ إِذَا ابْتَلَّتْ مِنَ الْعَرَقِ الْبُودُ (٢)
وَقَوْلُهُ فِي مَدْحِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْوَلِيدِ :

إِذَا قُلْتَ لِي عَبْدَ الْعَزِيزِ كَفَيْتَنِي زَمَانًا فَشَتَّ عِلَاتِهِ وَمَبَاخِلَهُ
فِيَوْمَانِ مِنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ تَقَاضَا فِي أَيِّ يَوْمِيهِ تَلُومُ عَوَازِلَهُ
فِيَوْمٍ تَحُوطُ الْمُسْلِمِينَ جِيَادُهُ وَيَوْمٍ عَطَاءُ مَا تَغْبِ نَوَافِلُهُ
وَلَتَرَكْ مِنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَقِيعَةً وَلِلرُّومِ يَوْمَ مَا تَمَّ حَوَامِلُهُ (٣)
فَمَا وَجَدُوا عَبْدَ الْعَزِيزِ مَغْمَرًا وَلَا ذَا سَقَاطٍ عِنْدَ أَمْرِ يُحَاوِلُهُ (٤)
وَلَا جَافِيًا عَنْ قَائِمِ السَّيْفِ قَبْضَهُ إِذَا انْتَمَشَلُ الرُّعْدُ قَتَمَتْ أَنْامِلُهُ
فَلَا هُوَ مِنَ الدُّنْيَا مُضِيعُ نَصِيْبِهِ وَلَا عَرَضُ الدُّنْيَا عَنْ الدِّينِ شَاغِلُهُ
فَهَذَا بَدِيعُ لَيْسَ فِي النَّاسِ مِثْلُهُ وَهَذَا مَدِيحُ لَا يَكْذِبُ قَائِلُهُ
أَيْنَمَا فَمَا يَدْعُو إِلَى غَيْرِكَ الْهَوَى وَمَا مِنْ خَلِيلٍ بَابِنِ لَيْلَى نَبَادِلُهُ
وَقَوْلُهُ فِي مَدْحِ الْحِجَابِ :

دَعُوا الْجَبْنَ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ فَإِنَّمَا يَبَاعُ وَيُبَشَّرُ سَبِيٌّ مِنْ لَا يُقَاتِلُ

(١) الهنيء والمريء : نهران حفرهما هشام في الرقة .

(٢) البود : جمع لبدة وهي ما يلي السرج .

(٣) لعجز هذا البيت صلة ظاهرة بقوله تعالى « بسم : يوم تضع كل ذات حمل حملها » .

(٤) مغمر : بكسر الميم الثانية مفاسم أو مجازف . السقاط : الرزلة أو هو جمع السقطلة .

لقد جرّد الحجاج بالحق سيفه لكم فاستقيموا لا يمين مائل
فما يستوي داعي الضلالة والهدى ولا حجة الخصمين حق وباطل^(١)
وأصبح كاللأزي يقاب طرفه على مرأب والطير منه دواحل^(٢)
وثنتان في الحجاج لا ترك ظالم سويًا ولا عند المراشاة نائل
ومن غلّ مال الله غلّت يمينه إذا قيل أدّوا، لا يغان عامل^(٣)
وما نفع المستعملين علوهم وما نفعت أهل العصاة الجعائل
أطيعوا فلا الحجاج مبق عليكم ولا جبرئيل ذو الجناحين غافل^(٤)
تمنى شبيب منية سفلت به وذو قطريّ لقه منك وابل
تقول فلا تلقى لقولك نبوة وتقول ما أنبأت أنك فاعل

فليس من شك في أن المثال الأول وصف رائع لمجهود عمراني خطير تم على يد ملك عظيم عالي الهمة . وأن المثال الثاني صورة صادقة لأمير فتيّ فياض اليدين بالعباءة شديد الوطأة على أعداء بلاده مستمسك بدينه مستمتع بدينه جامع لشتى المحاسن والمحامد . وأن المثال الثالث كفيل بعباءة فكرة قوية كل القوة عن سطوة الحجاج الزهية وسياسته الحازمة القاهرة وقدرته الهائلة على قمع الفتن والاضطرابات وتوطيد دعائم الأمن والطمأنينة .

نفره : ولا أريد أن أختم هذا الفصل دون أن أقول كلمة في فخر جرير ،

(١) يشير هذا البيت الى قوله تعالى « بسم : أفن يعلم أن ما أنزل اليك من ربك

الحق كمن هو أعمى ؟ »

(٢) الدواحل : جم داحل وهو المستقر الخائف ، وبروى دواخل .

(٣) غل : خان .

(٤) اقتبس جرير هذا البيت من قوله تعالى « بسم : ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل

الظالمون » .

وأحسن ما في هذا الفخر تبجح صاحبه ببراعة خاطره وخصب مخيلته وقوة عارضته
وقدرته الفائقة على تمزيق شمل خصومه وتخطيطهم واحداً بعد واحد . فعنده أنه
بالنسبة إليهم (بازر يصكّ حباريات) وأنه سيسمهم ما دام حياً فإذا مات فسيسمهم
بعده حزة وبلال . ومن جيد شعره في هذا الباب قوله :

أعددت للشعراء سمّاً ناقعاً فسقيت آخرهم بكأس الأول
لما وضعت على الفرزدق ميسمي وضفاً^(١) البعيث جدعت أنف الأخطل
ولجير فخر كثير بآبائه وأجداده يغلب على الظن أنه محض ادعاء .



الفرزدق

○

(أ) حياته : اسمه . نسبه . لقبه وكنيته . مولده ونشأته . شاعريته . أخباره عبث الرواة بها . بعض ما فيها من آثار الافتعال . ما يصح منها . ما حدث له مع زياد بن أبيه . فراره إلى المدينة . ما جرى له مع النوار وعبدالله بن الزبير . صلته بخالد بن عبدالله القسري سجنه . مهاجاته لجريز . توبته . وفاته .

(ب) صفاته : فسقه . تبهه . تناقضه . كرمه . سرعة خاطره .

(ج) شعره : جمعه وطبعه .

غزله : - أصالته ، لغته ، بعض ما يستحسن منه .

رثاؤه : - عناصره ، ماذا ينقصه ، مثل منه .

هجاؤه : - مخافة الناس إياه ، خلو بعضه من الفحش ، ظرفه ودعابته ،

بعض ما تجوز روايته منه .

مديحه : - تناقضه ، ما فيه من متعة وفائدة ، مثل منه .

فخره : - مقاصده وأغراضه ، مثل منه .

وصفه : - صدقه وجودته . مثل منه

ما لشعره من القيمة التاريخية على العموم . مقارنة بينه وبين جرير والأخطل

من هذه الناحية . عنايته بالشؤون العامة .

(أ) حياته : هو هام بن غالب بن صعصعة ، من دارم ، ودارم أكبر بطن من نعيم .

والفرزدق - وهو من أسماء الرغيف أو العجين - لقب غلب عليه لسماحة وجهه أو لتأثره بالجدرى وهو الأصح . وكنيته أبو فراس (وهي من كنى الأسد) .

ولد في خلافة عمر (رض) بالبصرة ، ونشأ في باديتها ، فغلبت عليه البداوة بما فيها من غلظة وجفاء ، حتى أنها أضعفت سلطان الدين على نفسه إضعافاً شديداً . ويظهر أن أباه تفرس فيه القدرة الفائقة على قرض الشعر فأخذ به بروايته ونظمه . وقصة تقديمه إياه إلى الامام علي عليه السلام - على أنه موشك أن يكون شاعراً مجيداً - مشهورة . ويحدثنا المترجم في خبر يرويه صاحب الأغاني أنه ورث الشعر عن خاله العلاء بن قرظة الذي يقول :

إذا ما الدهر جرّ على أناس بكلّ كلة أناس بأخرينا
فقل الشامتين بنا : أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا^(١)

وأخبار صاحبنا كثيرة جداً ، وفيها الشيء الكثير من التناقض والاضطراب ، والشيء الكثير كذلك من الاختلاق المحض والكذب الذي لا غبار عليه . فمن أمثلة التناقض في أخباره ما يروى في خبر من أن مروان بن الحكم نفاه من المدينة وكتب إلى أحد عماله أن يحده لأقراره على نفسه بالزنا في قصيدته التي مطلعها . « ألا من لشوق أنت بالليل ذا كره ... الخ » . وفي خبر آخر أن مروان نفاه من المدينة لفسقة وتهتكه ، ولكنه أحاله على أحد عماله بمئتي دينار . ومن أمثلة الاختلاق في أخباره قصة الجارية التي يزعم الرواة أن سكينه بنت الحسين

(١) في الأغاني ج ١٩ ص ٥ أن مصمعة جد الفرزدق شاعر ، ومن شعره قوله :
إذا المرء عادى من يودك صدره وكلف لمن غاداك خدناً مصايها
فلا تسألن عما لديه ، فإنه هو الداء لا يخفى بذلك خفيها
ولكن يظن على ظني أن مصمعة لم يكن شاعراً وأن البيتين منجولان لأنهما أشبه بشعر
المولدين منهما بشعر الجاهليين .

بن علي (ع ص) أعظمها إياه بعد أن وبخته وطردته ثلاث مرات .

ولكن ما يصح من هذه الأخبار كثير أيضاً ؛ من ذلك ما أجمع عليه الرواة من أن الفرزدق كان يهاجي بني فقيم وبني نهشل ، و كلتا الطائفتين من دارم رهط الفرزدق ؛ فشكوه إلى زياد بن أبيه وهو يومئذ عامل معاوية على العراق ، فطلبه لينصف خصومه منه . ويظهر أنه كان مدركاً شدة العقوبة التي تنتظره ؛ ففر إلى المدينة ، واستجار بسعيد بن العاص عامل معاوية عليها ، فأجاره . ولم يزل مقيماً في الحجاز تحسن حاله مرة وتسوؤ أخرى ، تبعاً لمعاملة الوالي إياه ، إلى أن توفي زياد بن أبيه . وقد تركت هذه الرحلة آثاراً بارزة في شعره لأنه مدح فيها أناساً وهجا آخرين وذاق ترف المدينة وعرف حضارتها واختلف إلى قيانها وتغزل بهن ، متصوناً مرة ومتهمكاً تارة . ومن أخبار الفرزدق التي لا يختلف فيها الرواة خبره مع ابنة عمه النوار بنت أعين المجاشعية التي كان وليّ أمرها فطلبت إليه أن يزوجه من رجل رضيته فاحتال عليها وأشهد عليها أناساً بأنها قد فوضت أمرها إليه ، فلما فعلت ذلك جاء مسجد بني مجاشع وألقى خطبة زوج بها نفسه من النوار ، فنفرت هذه منه وشخصت إلى عبدالله بن الزبير - وهو يومئذ وليّ الأمر في الحجاز والعراق - لترفع ظلامتها إليه . وشخص الفرزدق في نفس الوقت ليدافع عن وجهة نظره واستشفع إلى ابن الزبير بانه حمزة ، واستشفعت النوار إليه بزوجه خولة بنت منظور بن زبان الفزارية . ف قضى ابن الزبير للنوار في بدء الأمر ثم عاد فأصلح بين الشاعر وابنة عمه بعد أن حمله على أداء مهر لها قدره عشرة آلاف درهم أداها عنه سلم بن زياد . وقد تركت هذه الحادثة أيضاً أثراً غير قليل في شعره لأنه هجا فيها أناساً عديدين ومدح أناساً عديدين كذلك ؛ هجا بني أم النسير لأنهم حملوا النوار إلى الحجاز ، وهجا ابن الزبير نفسه لأنه قضى لها في بدء الأمر ، ومدح حمزة بن عبدالله بن الزبير طلباً لشفاعته عند أبيه ، ومدح سلم بن زياد

المتقدم ذكره ليعينه على أداء مهر النوار .

ومما لا سبيل إلى الشك فيه خبر سجن خالد بن عبدالله القسري إياه بسبب هجائه له ولصاحب شرطته مالك بن المنذر ولنهر احتفوه اسمه المبارك .^(١) على أنه من المفيد أن نلاحظ أن صلة الفرزدق بخالد القسري كانت سيئة جداً قبل أن يأمر بحفر المبارك وقبل تسخيره الناس في حفره ظمناً وعدواناً . يدل ذلك على ذلك أنه لما أمر خالد بضرب رئيس حجة الكعبة ، لأنه لم يفتح أبوابها له وشخص هذا إلى سليمان بن عبد الملك يشكو ظلامته إليه ، أعان الفرزدق الشيبى على خالد وقال أبياتاً حرض بها سليمان على البطش بخالد ، فاشتد غضب سليمان وأمر بقطع يد القسري ؛ إلا أن يزيد بن المهلب كان حاضراً ، فتضرع إلى سليمان في أن يعفو عن يد خالد وأن يعاقبه بصورة أخرى ، فأجابه إلى ملتمسه وأمر بضرب خالد مئة سوط ، وهنا عاد الفرزدق إلى إظهار كرهه لخالد فهجاه بأبيات يقول في أولها :

لعمرى لقد صبت على ظهر خالد شأيب ما استهلان من سبل القطر
وعندما ولي خالد العراق على عهد هشام هجاه الفرزدق بمقطوعات عديدة ، وكانت أم خالد هذا نصرانية فكان الفرزدق يتخذ من نصرانيتها سبباً للطعن فيه والغض منه . ويظهر أن خالد كان يحلم عن الفرزدق منتظراً أن يرتدع عن غيّه ويكف عن هجائه دون أن يلجأ إلى معاقبته ، إلا أنه بئس من هذا فاتهمز فرصة هجائه إياه وتنديده بالسياسة التي اتبعها في حفر المبارك وألقاه في غيابة

(١) هجا الفرزدق خالد بن عبدالله القسري وصاحب شرطته مالك بن المنذر ونهر المبارك بقوله :

أهلكت مال الله في غير حقه	على نهرك المشؤوم غير المبارك
وتضرب أقواماً براء ظهورها	وتترك حق الله في ظهر مالك
أأنفاق مال الله في غير كنهه	ومنعة لحق المرمولات الضرائك

السجن . ويبدو أنه أمر باسائة معاملته ، فضايق المترجم ذرعاً بهذه العقوبة وأكثّر من التنصل من هجاء خالد والمبارك ، بل إنه مدحهما في قصائد ومقطوعات عديدة ولكن خالداً أعاره أذنناً صماء فمدح هشاماً وأسد بن عبد الله القسري ومالك بن المنذر نفسه ، وأكّد في هذه المدائح أنه لم يقل شيئاً مما نسب إليه بصدد المبارك ، وأن الأبيات الروية له في هذا الشأن مختلفة منحولة ، وادعى في بعض قصائده أنه أخذ على حين غرة وأنه لو شعر بسوء نية مالك نحوه لتمنر عليه سجنه ، وأنه إنما سجن لأنه سري ثري :

فان أكّ محبوساً بغير جريرة فقد أخذوني آمناً غير خائف
وما سجنوني غير أبي ابن غالب وأني من الأثرين غير الزعاف
ولو كنت أخشى خالداً أن يروعي لطرت بوافٍ ريشه غير جادف^(١)
كما طرت من مصري زيادٍ وإنه لتصرف لي أنيابه بالمتالف

وقد تركت هذه الحادثة أثراً قوياً جداً في نفس الفرزدق وشعره ، لأنها أنفقتة بقصائد ومقطوعات تعد أبياتها بالمشات . ولعل الفرزدق أول من وصف السجن وتحدث عنه بأسهاب من شعراء العرب . وسنشير إلى بعض أخباره الأخرى عند الكلام عن أخلاقه .

وقد اقترن اسم الفرزدق باسم جرير لهما جبهتهما نحواً من أربعين سنة ، ويقال في سبب تهاجيها إن جريراً كان يهاجي شاعراً مجاشعياً اسمه البعيث فغلبه وظهر عليه ، وتعرض على جاري عاداته في الهجاء لنساء بني مجاشع فأساء إلى سمعتهن وتهجم على شرفهن . فجاء هؤلاء النسوة إلى الفرزدق ، وقد قيد نفسه بقيد آلى أن لا يفكه حتى يحفظ القرآن ، فغيرته سكوته وحرصه على الأخذ بثارهن .

(١) غير جادف : غير مقصود ، أو غير قصير .

فئارت حميته وفض قيده وهجا جريراً فالتجهم الهجاء بينهما ، وضلا يتصاولان
مسدة حياتهما دون أن يغلب أحدهما الآخر ، لأن كلا منهما مثل في سلاطة
اللسان وبذاءة الهجاء^(١) . وقد جمعت أهاجيهما في كتاب ضخم تقدمت له الإشارة
عند الكلام عن شعر جرير .

ونسك الفرزدق في أواخر أيامه وكف عن قذف المحصنات وكانت توبته
على يد الحسن البصري . وقد أعلن توبته هذه في قصيدته التي هجا بها إبليس
والتي يقول فيها :

أطعتك يا إبليس سبعين حجة فلما انتهى شيلي^(٢) وتمّ تامي
فزعت إلى ربي وأيقنت أنني ملاق لأيام المنون حمامي
وتوفي بذات الرثة أو بالديلة وكانوا يعالجونه بالنفط الأبيض فكان يقول :
« أتعجلون لي شراب أهل النار ؟ » وقد أوصى بعق عبيده جميعاً بعد وفاته
وفرض لكل منهم شيئاً في ماله فلما اشتد مرضه كان يقول :

أروني من يقوم لسكم مقامي إذا ما الأمر جلّ عن الخطاب
إلى من تفرعون إذا حوتم بأيديكم عليّ من التراب
فقال له أحد عبيده : « إلى الله .. » فأمر ببيعه في الحال وأبطل وصيته فيه .

وتوفي صاحبنا في خلافة هشام بن عبد الملك . والرواة مختلفون في سنة وفاته
فمنهم من يقول إنه توفي سنة (١١٠) للهجرة ، ومنهم من يقول إنه توفي سنة (١١١)
لهجرة ، ومنهم من يقول إنه توفي سنة (١١٢) للهجرة ، ومنهم من يقول

(١) من طرف ما اهتمدى اليه الدكتور طه حسين في بحوثه الأدبية الأخيرة أنه رأى في
تهاجي جرير والفرزدق والأخطل نورة على نظام الجماعة ونقداً صارماً عنيفاً للاحوال
السياسية والادارية والاقتصادية القائمة على عهد بني أمية . (الكتاب المصري العدد

١٢ المجلد ٣ ص ٥٧٧ - ٥٧٨) .

(٢) في رواية : « عمري » وهي أصح .

إنه توفي سنة (١١٤) للهجرة ولكن الأستاذ فؤاد البستاني أثبت في العدد (٣٧) من «الروائع» أن وفاة الفرزدق لا يمكن أن تكون قبل سنة (١١٤) للهجرة مستدلاً على ذلك بأن الفرزدق مدح خالد بن عبد الملك بن الحرث بن الحكم عندما ولي المدينة، وقد كانت ولاية خالد هذا من سنة ١١٤ إلى ١١٦ للهجرة، ومطلع القصيدة التي مدح الفرزدق بها خالداً هو قوله: —

أقول لحرفٍ قد تحوّن نيّها^(١) دؤوب السرى إدلاجه وأصائله

وعلى هذا يمكن الجزم بأن وفاة المترجم لم تكن قبل سنة (١١٤) للهجرة.

(ب) صفاته: كان الفرزدق ماجناً خليعاً شديد التيه كثير التناقض، إلا أنه كان كريم الطبع شديد الرغبة باصطناع المعروف، هذا إلى ذكاء في طبعه وحضور في بديهته. وما أريد أن أفيض في التحدث عن خلاعته ومجونه، فنظرة سريعة في ديوانه وأخباره تدل على مكان المجون من طبعه. على أنه لو لم يكن له في هذا الباب إلا رائيته التي تقدمت لها الإشارة لكان ذلك دليلاً على إمعانه في المجون وإسرافه في إرضاء شهواته ولذاته. ولا تقل العجرفة غلبة على طبعه عن الفسق، وما ظنك برجل يستنشد الخليفة لسمعته شيئاً من مديحه أو مديح أحد أسلافه فينشد آياتاً يفخر فيها بأبيه، ويمتدح الخليفة فيقول في التوبيخ إلى مديحه إنه له كرم فرد من أفراد رعيته؟

وكان إلى هذا شديد التناقض، أنكر على هشام بن عبد الملك تجاهله علي بن الحسين (ع ص) بأشد لهجة وأعنفها على مرأى من ألوف الحجاج ومسمع. ومدح سليمان بن عبد الملك بقصيدة عدد فيها الخلفاء واحداً واحداً مبتدئاً بأبي بكر (رض) ومنتهياً بسليمان وأهمل ذكر علي بن أبي طالب (ع ص). وهجا

(١) الحرف من أسماء الناقة. النى: الشحم

عمر بن هبيرة في أثناء توليه العراق أشنع هجاء ، فلما عزل وحبس ضرب حوله هالة من التقديس والتمجيد .

إلا أنه كان سخيّاً سمحاً شديد الولع بأسداء الجميل . روي أنه خطب حدراة بنت زيق بن بسطام وأصدقها مئة من الأبل ، فماتت قبل أن يئني بها ، ولم يكن يلزمه سوى نصف صداقها ، إلا أنه أداه إلى أبيها كاملاً غير منقوص . وهذا يعني أنه أعطى زيق بن بسطام خمسين ناقة سخاءً وكرمًا .

ويتناقل الرواة أخباراً كثيرة مآلها أنه لبى نداء عدد من المستغيثين لاذو بقبر أبيه ، منها خبر تلك العجوز التي رد عليها الفرزدق ولدها الوحيد من بعث تميم بن زيد ، ومنها خبر أعرابي أعطاه الفرزدق مئة من الأبل ليدي بها قتيلاً لزمته دينته ، ويعجبني في هذا المقام قول الفرزدق :

ألا هل علمتم ميثاق قبل غالب قرى مئة ضيفاً ولم يتكلم
وقول الأخطل مخاطباً رهط جرير : —

بني الخطفي عدوا أبا مثل دارم وإلا فهاتوا منكم مثل غالب
قرى مئة ضيفاً أناخ بقبره فأب إلى أصحابه غير خائب
أضف إلى ذلك أن المترجم كان ذي الطبع حاضر البديهة سريع الجواب . أعطاه سليمان بن عبد الملك أسيراً رومياً ليضرب عنقه فضربه فلم يصنع شيئاً فضحك منه سليمان وضحك معه الناس ، فلما كان منه إلا أن ارتجل على الفور هذه الأبيات :

أيعجب الناس أن أضحكك خيرهم خليفة الله يستسقى به المطر
لم ينب سيفي من رعب ومن دهش عن الأسير ولكن أخر القدر
ولن يقدم نفساً قبل مدتها جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر^(١)

(١) بين الديوان وبين الشعر والشعراء لابن قتيبة خلاف في رواية هذه الأبيات . وقد آثرت رواية ابن قتيبة .

وقال له يوماً خالد بن صفوان وهو يمازحه : « يا أبا فراس ، ما أنت بالذي لما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن » فقال له : « ولا أنت بالذي قالت الفتاة لأبيها يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين !! »

(ج) شعره : للفرزدق ، كما لصاحبه جرير شعر كثير ، طبع المستشرق الفرنسي بوشيه (R . Boucher) نحواً من ثلثه في سنة (١٨٧٠ ، ١٨٧١ ، ١٨٧٥) منقولاً عن نسخة مخطوطة وقف عليها في مكتبة جامع أيا صوفيا وشرحه ونقله إلى الفرنسية . وأتم المستشرق الألماني يوسف هل (J . Hell) عمل بوشيه فنشر ما لم ينشر من النسخة المشار إليها في سنتي (١٩٠٠ و ١٩٠١) . وظهرت طائفة من شعر الفرزدق في مجموعة ناقصة تدعى (خمسة دواوين العرب) أصدرتها المطبعة الوهيبية بمصر عام ١٨٧٦ م . وطبعت المكتبة الأهلية ببيروت هذا الجزء المقتضب من شعر الفرزدق مرتين أخراهما سنة ١٩٣٣ م .

وأخيراً غني الأستاذ عبد الله إسماعيل الصاوي بشعر الفرزدق فجمع ما تفرق منه في هذه الطبعات وأضاف إليه ما وقف عليه في كتب الأدب المختلفة ونشره في مجلدين ضخمين ظهرا بمصر عام ١٩٣٦ م .

وكما اشتمل ديوان جرير على كل باب من أبواب الشعر اشتمل ديوان الفرزدق كذلك على كل باب من هذه الأبواب . بيد أنه من الحق أن نلاحظ أن الفرزدق لم يوفق توفيق جرير في كل ما تطرق إليه من أغراض القريض . غزله : زعمت عند الكلام عن شعر جرير أن غزله على العموم رقيق جذاب إلا أنه غير أصيل ، وأزعم الآن أن غزل الفرزدق لا يخلو من قصائد ومقطوعات أصيلة ، إلا أن الرقة تنقصه في كثير من الأحيان .

وللأصالة في غزل الفرزدق مصدران ، أحدهما خلاعته والثاني سذاجة . فأما خلاعته فتعني عليه أحاديث مغامراته التي تمتاز بها حياته والتي أحب أن أنزه

عنها هذا الفصل . وأما سداجته فتسلي عليه عجائب الأمانى والآمال ، فهو يتمنى طوراً أن يصاب زوج حبيته بالعمى على أن يكون أحق أطباء العيون وأوسعهم شهرة ، ليدعى إلى معالجة ذلك الزوج البائس ولتكون معالجته إياه سبيل مقابلات ومغازلات كلها صباية وغرام . ويتمنى تارة أن يكون وحبيته بعيرين مصابين بـ (العر) يتحاشاهما الناس جميعاً ويضطرونهما للحياة وحدهما لينهما بحياة لا يكدر صفاءها عليهما الوشاة والرقباء . وكان ينبغي أن يكون هذا الغزل الداعر الفاجر لطيف اللغة رقيق الديباجة ، ولكنه لم يكن كذلك على الأكثر ، فما أظنك تستسيغ هذا البيت :

إذا القنبضات السود طوفن بالضحى رقدن عليهن الحجال المسجف^(١)
أو هذا البيت :

ومستنقرات للقلوب كأنها مها حول منتوجاته يتصرف^(٢)
أو هذا البيت :

أفظم لو صاحبتن عذرتنا ولم تستطيعي القلقلان العشنزرا^(٣)
ومثل هذا كثير في غزل الفرزدق فتبعه إن أعجبك الوقوف عليه . ومع ذلك لا يخلو غزل صاحبنا من مقطوعات وأبيات لطيفة في معناها وفي مبناها على حد سواء ، منها قوله :

إذا شئت غنائي من العاج قاصف على معصم ريان لم يتحدد
ليضاء من أهل المدينة لم تعش بيؤس ، ولم تتبع حمولة مجحد^(٤)
وقامت تحشيني زياداً وأجفلت حوالي في برد رقيق ومجسد^(٥)

(١) القنبضات : - ويرى القنبضات - النساء القصيرات النحيفات الأجسام .

(٢) المستنقرات : - المحركات .

(٣) القلقلان : - الرجل الخفيف . والعشنزرا : السيء الخلق .

(٤) المجحد : الفقير .

(٥) المجسد : التوب المصبوغ بالجسد وهو الزعفران .

فقلت ذريني من زياد فاني أرى الموت وقافاً على كل مرصد
وقوله :

منع الحياة من الرجال وطبيها حلق يقلبها النساء مراض
فكأن أفئدة الرجال إذا رأوا حلق النساء لنبلها أغراض
وقوله :

لا حبنا البيت الذي أنت هائبه تزور بيوتاً حوله وتجانبه !
تجانبه من غير هجر لأهله ولكن عيناً من عدوٍ تراقبه
رثاؤه : ومثل نجاح الفرزدق في غزله نجاحه في رثائه ، أعني أنه ضئيل أيضاً ،
فقد رثى هذا الشاعر أباه وأولاده وأخاه وابن عمه وكيعاً الغداني ، ورثى سليمان بن
عبد الملك وبشر بن مروان والحجاج بن يوسف وولده محمد وأخاه محمد ، ورثى
غيرهم من الأفرين والأبعدين ، وكرر رثاء كثير ممن رثى مراراً عديدة .
ولكنه قلما عبر في هذا الرثاء الجم عن عاطفة صادقة أو شعور يفيض بالوفاء
والإخلاص . ستقول : وعلى ماذا ينطوي رثاؤه إذن ؟ ! والجواب عن ذلك :
أنه ينطوي على المدح والفخر وعلى ذم الدنيا والدعوة إلى الزهد بها وعلى المبالغات
أحياناً ، وهذا كله مما يمزج به الرثاء العربي عادة . فلا تتريب على الفرزدق في
الاكثار منه . والذي ينقص رثاءه هو الكلام المؤثر الذي يعرب عن المشاعر
والعواطف ويصور نبضات القلوب المحزونة وخلجات النفوس المتألمة كـرثاء جرير
لزوجته ، وأبي تمام لابنه وأخيه وجاريته ، والشريف الرضي لوالدته . وهذا يعني
أن رثاء الفرزدق خلو من أهم عناصر الرثاء وأكبرها شأنًا ، ول斯基 تكون فكرة
صحيحة عن هذا الرثاء أروي لك منه هذه الأبيات التي يرثي بها المترجم أخاه :-
أبي الصبر إلا أن أرى البدر طالماً ولا الشمس إلا ذكراني بغالب^(١)

(١) لعل الصحيح : أبي الوجد أو الحزن .

شبيهين كانا بابين ليلى ومن يكن
فتى كان أهل الملك لا يحجبونه
كأن تميمًا لم تصبها مصيبة
ولو شعر الأجيال دمع ويذبل
شبيه ابن ليلى يمح ضوء السكاك
إذا فاد يوماً بين باب وحاجب
ولا حدثان قبل يوم ابن غالب
لما لا بأعراف الذرى والمناكب

وهذه القصيدة التي يرثي بها ولدين له : —

بفي الشامتين الصخر إن كان مسني
هزبر إذا أشباله سرن حوله
أرى كل حي لا يزال طليعة
وما أحد كان المنايا وراءه
فلست ولو شقت حيازيم نفسها
على حزن بعد اللذين تتابعا
يذكرني ابني السماء كان موهناً
فقد رزى الأقوام قبلي بآبهم
ومن قبل مات الاقرعان وحاجب
ومات أبي والمنذران كلاهما
وقد مات خيراهم فلم يهلكاهم
وقد مات بسطام بن قيس وعامر
فما ابنك إلا ابن من الناس فاصبري
رزية شبلي مخدر في الضراغم
تشظت سباع الأرض من ذي النعائم^(١)
عليه المنايا من فروج المحارم
ولو عاش أياماً طوالاً بسالم
من الوجد بعد ابني نوار بلاثم
لها والمنايا قاطعات التماثم
إذا ارتفعا بين النجوم التوائم^(٢)
وإخوانهم فاقني حياء الكرائم^(٣)
وعمرو ومات المرء قيس بن عاصم
وعمرو بن كلثوم شهاب الأرقام
عشية بانا رهط كعب وحاتم
ومات أبو غسان شيخ اللهازم
فإن يرجع الموتى حنين للمآتم

(١) لم أجد فيما لدي من معاجم اللغة مدلولاً واضحاً لهذه الكلمة ولكن ربما كانت من

نعم السيم : صوت .

(٢) توائم النجوم : ما تشابك منها .

(٣) اتني : الزمي .

أما أن المرثيتين بليغتان محكمتا السبك رصينتا الأسلوب على الأكثر فهذا ما ينجح إلي . ولكن ، أحتويان على كلام تترقرف منه الدموع وتجيش في طبائمه انزفرت و يفيض بالأحاسيس والانفعالات ؟ ! إنني أؤكد مخلصاً أنني لا أجيد فيها هذا الكلام .

هجاؤه : بيد أن المترجم برع في الهجاء براعة فائقة ، وحسبك دليلاً على ذلك أن جريراً لم يفهمه مع أنه أحفم عشرات الشعراء الذين تورطوا في مهاجاته . وكان للفرزدق من هذه القدرة على الهجاء سلاح يتحاماه الناس ويخشونه على أعراضهم وأحسابهم . روى أن شاعراً من بني حرام أقدم على هجائه فما كان من قومه إلا أن قادوه صاعراً ذليلاً وجاؤوا به إليه قائلين : « ها هو صاحبنا بين يديك ، إفعل به ما تشاء فلا عدوى عليك ولا قصاص » ، فعفا عنه وخلق سبيله وقال في ذلك : —

فمن يك خائفاً لأذاة شعري فقد أمن الهجاء بنو حرام
هم قادوا سفيهم وخافوا فلائد مثل أطواق الحمام^(١)
ولما خرج المهلب إلى حرب الأزارقة التمس جرير من الفرزدق أن يكلمه في إعفائه من هذا البعث ، فكلمه فيه فأعفاه . ولهم المهلب في ذلك فقال : (إنما اشتريت عرضي !)^(٢) .

ومع أن معظم هجاء الفرزدق لم يكن مما يترنم به العذارى بسمع من آباءهن ، فانه لا يخلو من شذرات عديدة فيها النقد اللاذع وفيها التبريع الممض ، ولكن ليس فيها شيء من الفحش أو الهجر ، من ذلك أنه هجا عمر بن هبيرة عندما ولي أمر العراق فقال : إن الزمان قد فسد والأحوال قد ساءت حتى أن الأمويين ،

(١) الأغاني ج ١٩ ص ١١ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨ .

لجأوا إلى الاستعانة برجال فزارة على سياسة الملك وتدير شؤونه ومصالحه . وهجا
 خالد بن عبد الله القسري عندما عين خلفاً لعمر بن هبيرة المذكور فقال : إنه
 لا ينبغي أن ينوب عن الخليفة في سياسة المسلمين رجل لا تدين أمه بالتوحيد ،
 وهو يشير بذلك إلى أن أم خالد نصرانية كما تقدم . ويرق هجاء الفرزدق
 ويظرف أحياناً فتتخلله الفكاهة العذبة والدعابة الحلوة ، إسمع قوله مخاطباً جرير :

ظلت تصادي عن عطية قائماً لتضرب أعلى رأسه غير مؤتل
 لك الويل لا تقتل عطية ، إنه أبوك ، ولكن غيره فتبدل
 وبادل به من قوم بضعة مثله بأشرّ ذي نعلين أو غير منعل
 فان هم أبوا أن يقبلوه ولم تجدد فراقاً له إلا الذي رمت فافعل

مديحه : أما في المديح فقد وفق الفرزدق أحياناً، إلا أنه فشل أحياناً أخرى فشلاً
 تاماً . وأكبر الظن أن عدم نجاحه في مديحه ناشىء عن عدم إخلاصه لممدوحيه، فأنت
 تعلم أنه علوي الرأي ولكنه كان مضطراً لا تتجاع بني أمية ورجال دولتهم
 بالمديح . وفي إمكانك أن تبين مبلغ إخلاصه لممدوحيه إذا علمت أنه هجا
 أكثرهم أشنع هجاء كما مدحهم أحسن مديح . فيينا هو يقول لك إن هشام بن
 عبد الملك صفوة الله من خلقه ولولاه لكان الناس أشبه بعقد وهي سمطه فانتشر ،
 إذا هو يقول لك إن هشاماً شر من تولى أمور الناس والأم من تبوأ دست الخلافة .
 وبينما هو يقول لك إن الحجاج رجل التقوى والصلاح ورجل العدل والاخلاص
 إذا هو يقول لك إن حكمه جنة أصابت العراق وقد شفاه الله منها . وبينما هو
 يقول لك إن آل المهلب فرسان العرب وأجوادهم وذوو المروءة والنجدة والأرجية
 منهم ، إذا هو يقول لك إنهم نبط أنذال لا يشرفهم خلق ولا يرفعهم نسب .
 على أن مديحه لا يخلو من متعة وفائدة ، ولك أن تتصفحها لترى أنه حافل
 بالصور الصادقة التي تمثل أحوال زمانه . فهذه قصيدة تصف لنا مجاعة هائلة حلت

يشبه جزيرة العرب في سنة من سني حكم الوليد بن عبد الملك وصفاً صادقاً
مستفيضاً ، وهذه قصيدة تمثل لنا عظم سطوة الحجاج وشدة بطشه واستتباب
الأمن في العراق على عهده بعد أن كان مسرحاً لفتن واضطرابات لا تنتهي .
وهذه الثالثة تذكر لنا فرار آل المهلب من سجن الحجاج والتجاءهم إلى سايان بن
عبد الملك وهو وليّ للعهد ، وتصف لنا عطشه عليهم وشفاعته لهم عند أخيه الوليد .
أتمحب أن أزوي لك مثلاً من هذا المديح الذي يعطينا من حين لآخر
صورة صحيحة لناحية من نواحي الحياة العامة على عهد الفرزدق ؟ إستم قوله من
قصيدة يمدح بها الوليد بن عبد الملك :

أمير المؤمنين وأنت تشفي	بعدل يديك أدواء الصدور
فكيف بعامل يسمى علينا	يكلفنا الدراهم في البدور
وأنى بالدراهم وهي منا	كرافع راحتيه إلى العبور
إذا سقنا الفرائض لم يردها	وصدّ عن الشوية والبعير
إذا وضع السياط لنا نهراً	أخذنا بالربا مرق الحرير ^(١)
فأدخلنا جهنم ما أخذنا	من الاربا من دون الظهور ^(٢)
فلو سمع الخليفة صوت داع	ينادي الله : هل لي من مجير؟!
وأصوات النساء مقرّرات	وصبيان لهن على الحبور
إذا لأجابهن لسان داع	لدين الله مغضاب نصور

(١) المرق : جم سرقة وهي الشقة من الحرير . وأحسب أن الفرزدق يريد أنهم يرشون
العامل بالحرير لا أنهم يدفعونه إليه على أنه جزء من الضريبة لأنه لا يقبل منهم غير
التقدي كما يقول الفرزدق نفسه في البيت الثاني من هذه الأبيات .

(٢) يريد أنهم حفظوا ظهورهم من السياط بالالتجاء إلى شراء الحرير بالربا . ولكنهم
فعلوا ما أدخلهم جهنم لأن الربا محرم في الإسلام .

فهذه الأبيات تعطينا فكرة واضحة قوية عن السياسة الجائرة التي كان يتبعها العمال على عهد الفرزدق في سبيل جباية الضرائب . وتدلنا على ما يلقي الناس من شدائد وأهوال لا يكاد يصدقها العقل بسبب أداء هذه الضرائب ، وتشير مع ذلك إلى حسن ظنهم بالخليفة وأملهم بعطفه عليهم ورافته بهم . ومثل هذه الأبيات ذات الفائدة التاريخية الكبيرة كثير في مديح الفرزدق كما قدمت .

فخره : أصدق شعوراً من مديح الفرزدق . وأصفى ديباجة فخره الذي يعد بحق ترجمان ضميره وعنوان شاعريته . وفي الواقع أن الفرزدق غلا أحياناً في الفخر بقومه فزعم أن بيته أرفع دعائم من السماء وأن قومه سادة الناس يأمرؤنهم فيأتمرون ، وينهونهم فينتهون . إلا أنه لم يفعل ذلك دائماً لحسن الحظ . والغالب على فخره هو أن يذكر قومه وأهله الأذنين بما هو فيهم من كثرة العدد ومنعة الجانب وعلو الكلمة ورجاحة العقل وغزارة الجود وإيواء الضعيف وإغاثة الملهوف وما إلى ذلك من محاسن ومحامد . وربما فخر بصلات بعض نبهاء أسرته بالنعمان بن المنذر ملك الحيرة وتقربهم منه وحصولهم على شرف مجالسته ومناذمته بينما تظل كليب - رهط جرير - (وراء الناس) لا يسمح لها بالدنو من السراقد الملكي . ولكن الغالب على فخره ما قدمناه من إطرار محاسن قومه الأدبية والخلقية ، فمن طريف فخره قوله :

أنا ابن الذي ردّ المنية فضله	وما حسب دافعت عنه بمعور ^(١)
أبي أحد الغيثين صمصعة الذي	متى تخلف الجوزاء والدلو يطر
أجار بنات الواثدين ومن يجر	على الفقر يعلم أنه خير مخفر
وفارق ليل من نساء أنت أبي	تعالج ريحاً ليلها غير مقمر ^(٢)

(١) معور : معيب .

(٢) العارق : المرأة التي أدركها الخاض .

فقلت أجز لي ما ولدت فاتي
فقال لها نامي فاني بدمتي
وقوله :

وركب كأن الريح تطلب عندهم
سروا يخبطون الليل وهي تالفهم
إذا ما رأوا ناراً يقولون ليها
وقوله في ماحمته :

إذا اغبر آفاق السماء وكشفت
وأصبح مبيض الصقيع كأنه
ترى جارنا فينا بخير^(٤) وإن جنى
ويمنع مولانا وإن كان نائياً
وقد علم الجيران أن قدورنا
كسوريوت الحين نكباء حرجف^(٣)
على سروات التيب قطن مندف
فما هو مما ينطف الجار ينطف^(٥)
بنا جاره مما يخاف ويأنف^(٦)
ضوامن للأرزاق والريح زفزف^(٧)

(١) المراد بقوله : أتيتك من هزلى الحولة : انها أتته من رجل حولته هزلى . والحولة هي الأبل التي يحمل عليها .

(٢) يختلف الرواة في عدد البنات اللواتي تطوع صمصمة جد الفرزدق بفداهن من الواد فمنهم من يعدهن بالشرات ومنهم من يعدهن بالثبات ، والذي استنتجه من هذا أن صمصمة قتل شيئاً من هذا القبيل . الا ان الرواة نسجوا حوله طائفة من الاساطير جعلته اشبه بالخرافة لـكنني مع ذلك أميل الى تصديق ما فخر به الفرزدق اجمالاً .
(والقنور : هو الضيق الصدر السيء الخلق) .

(٣) النكباء : ريح انحرقت ووقعت بين ريحين . الحرجف : الشديدة الهبوب .

(٤) هكذا في جهرة اشعار العرب ، وفي الديوان (فينا يجير) ورواية الجهرة اقرب الى الصواب فيما اظن .

(٥) نطف : خاف .

(٦) المولى : ابن العم ، والعبد المعتقد . (٧) ريح زفزف : شديدة الهبوب : باردة .

نعجل للضيفان في الحل بالقرى قدوراً بعبوط تمد وتعرف (١)
وما حل من جهل حبي حلمائنا ولا قائل المعروف (٢) فينا يعنف
وما قام منا قائم في ندينا فينطق إلا بالتي هي أعرف
سيعلم من سامي تيمماً إذا هوت قوائمه في البحر من يتخلف
فسعد جبال العز والبحر مالك فلا حضن (٣) يبلى ولا البحر ينزف
وبالله ، لولا أن قولوا : تكاثرت علينا تميم ، ظالمين ، وأسرفوا
لما تركت كف تشير باصبع ولا تركت عين على الأرض تطرف
تلك هي طريقة الفرزدق في الفخر بقومه . أما إذا فخر بنفسه فما شئت من
تبجح بصلابة العود وصرامة اللسان وما شئت من تشدق بالشاعرية الفياضة
والصيت المدوي في الآفاق :

رأنتي معد مصحراً فتناذرت بديهة مخشي الجريرة عارم
وما جرب الأقوام مني أنانة لدن عجموني بالضروس العواجم
لقد كلفت مني العراق قصيدة رجوم مع الماضي رؤوس الحارم
خفيفة أفواه الرواة ثقيلة على قرنهما نزالة بالمواسم
وصفه : وللفرزدق خطرات وصفية كثيرة معظمها تابع المديح والفخر وقليل
منها مستقل ، وصف في واحدة منها لقاءه الأسد واجباجاه عنه ثم إقدامه عليه
وتنحي هذا عن طريقه ، ووصف في ثلاث (٤) لقاءه الذئب وما جرى له معه في

(١) المعبوط : المدبوح .

(٢) هكذا في الجمهرة ، وفي الديوان (وما قائل بالعرف) .

(٣) حضن : جيل بأعلى نجد .

(٤) أحسن هذه القطع الثلاث أبيانه الذونية التي أولها :

وأطلس عسال وما كان صاحراً دعوت لناري موهناً فأثاني
والتي سأرويهما في مكان آخر من هذا الكتاب .

شتى المناسبات . ووصف في طائفة منها محنته على يد خالد القسري وحياته في السجن ووصف في غير ما تقدمت له الإشارة أشياء أخرى كثيرة .

والفرزدق موفق في أغلب هذه الخطرات ، لأنه يستعرض الموصوف استعراضاً جيداً وبصفه وصفاً صادقاً جميلاً . وقد مر بك شيء من وصفه عند الكلام عن فخره فاسم الآن قوله في وصف هرب عمر بن هيرة من سجن خالد بن عبد الله القسري : —

لما رأيت الأرض قد سدّ ظهرها ولم تر إلا بطنها لك مخرجاً
دعوت الذي ناداه يونس بعدما ثوى في ثلاث مظلمات ففرجاً
فأصبحت تحت الأرض قد سرت ليلة وما سار سارٍ مثلها حين أدجلاً
ها ظلمنا ليل وأرض تلاقنا على جامع من أمره ما تعرجاً
نبحوت ولم يمن عليك شفاعه ^(١) سوى ربذ التقريب من آل أعوجا ^(٢)

وقوله في وصف سفينة قطع بها نهر الدجيل إلى أسد بن عبد الله القسري :

لفلج وصحراراه لو سرت فيها أحب إلينا من دجيل وأفضل ^(٣)
وراحلة قد عودوني ركوبها وما كنت ركاباً لها حين ترحل
قوائمها أبدي الرجال إذا انتحت وتحمل من فيها فعوداً وتحمل
إذا ما تلتقمتها الأواذي شقها لها جوجؤ لا يستريح وكلكل ^(٤)

وقوله في وصف البيداء والقطا ، وربما كان خبر ما قال في الوصف وخير ما قيل ، في هذا الباب : —

(١) بين الديوان والأغاني خلاف في رواية هذا الشطر وقد آثرت رواية الأغاني .

(٢) التقريب : ضرب من السير ، والربذ : خفته ، وأعوج : قرس مشهور .

(٣) فلج : واد بين البصرة وحمى ضرية . دجيل : نهر يصب في دجلة .

(٤) الأراذي : جمع آذي وهو الموج . الجؤجؤ : الصدر . الكلكل : مقدم العنق .

ويبداء تغتال المطي قطعها
 إذا الأرض سدتها الهواجر وارادت
 وكان الذي يبدو لنا من سراها
 ويدعو القطا فيها القطا ، فيجيبه
 دوارج أخلفن الشكير ^(١) كأنما
 يسقن بالمومة زغباً نواضاً
 تمج أدواى في أدواى بها استقت
 بركاب هول ليس بالعاجز الوغل ^(٢)
 ملاء محوم لم يسدين بالغزل ^(٣)
 فضول سيول البحر من مائه الضحل
 نوائم أطفال من السبب المحل
 جرى في مآقيها مراد من كحل
 بقايا نطاف في حواصها تغلي
 كما استفرغ الساقى من السجل بالسجل

كثيرهم الشعراء الذين سبقوا الفرزدق إلى وصف البيداء في الجاهلية والاسلام . ولكن أظن أنه لم يسبق إلى وصف القطا وعلاقة بعضه ببعض على النحو الذي رسمه لنا في هذه الأبيات . وإنه لمن الحق أن نسجل أنه نجح في هذا الوصف نجاحاً تاماً .

ما لشعره من القيمة التاريخية : ولشعر الفرزدق بعد كل هذا قيمة تاريخية كبيرة ؛ ذلك لأنه كان يعنى بالحوادث المهمة التي تقع على قرب أو بعد منه ويتأثر بها ويعرب عن شعوره نحوها ، فيمدح مرة ، ويهجو تارة ، ويفخر حيناً . وليس من شك في أن لجرير والأخطل شعراً ذا فائدة تاريخية حسنة . فقصيدته (خف القطين ..) مثلاً تكاد تكون ملحمة أموية تغليية . ولمدائح جرير للحجاج ، ولا سيما لاميته التي مطلعها : « شعفت بعهد ذكرته المنازل .. » ، قيمة تاريخية ليست بالقليلة ، ولكن شعر الفرزدق أحفل بالفوائد التاريخية وأدل على حياة القرن الأول

(١) الوغل : الضعيف المتصر .

(٢) الملاء : جم . ملاءة : وهي الملحفة .

(٣) الضحل : الماء القليل .

(٤) الشكير : الزغب ، يريد انهن تريشن بعد الزغب .

للهجرة ذلك لأن جريراً لا يعالج الحادثة التاريخية إلا من الناحية الإيجابية ، أي من الناحية التي توصله إلى رضى الممدوح وجائزته ، ولأن الأخطل لا يعالج الحادثة التاريخية بدوره إلا ليؤيد سياسة الأمويين أو ليناضل في سبيل قبيلته . أما الفرزدق فكان يتمحور أحياناً من هذين القيدين ويتطوع بالتعقيب على الحوادث في غير ما طمع ولا فائدة من أي نوع . فمن الواضح أنه لا فائدة له مطلقاً في التعقيب على فرار آل المهلب من سجن الحجاج بأكثر من قصيدة واحدة وبما يخالف سياسة الحجاج مخالفة تامة لأنه ممن يخضع لسلطان الحجاج وفي إمكان هذا أن يوسع عقوبة متى أراد . ومثل هذا يقال في تعقيقه على فرار عمر بن هبيرة من سجن خالد بن عبد الله القسري وفي تنديده بالسياسة التي اتبعها هذا في حفر المبارك . ولكنه فعل هذا كله تلبية لنداء ضميره وتمرداً على سياسة الاستبداد والعنف والعسف . وقد حدثتك بأشياء كثيرة عن أخلاق الفرزدق بعضها له وبعضها عليه ، وفاتني أن أقول لك إنه يغار غيره لا بأس بها على المصالح العامة ، فلنسجل له هنا هذه الخلة الحسنة التي نلسمها في صفحات كثيرة من ديوانه .



الأخطل

— 0 —

(أ) حياته : اسمه . نسبه . كنيته . لقبه . سبب تلقيبه بالأخطل . مولده ونشأته .
بدء قرضه الشعر . مهاجراته كعب بن جعيل . مكيدة هذا للقضاء عليه . نجاته
وفوزه عن طريق هذه المكيدة . حظوته عند بني أمية . أفول نجمه على عهد
الوليد بن عبد الملك . موقف قبيلته منه . فقره رغم صلته ببني أمية . دخوله
بين جرير والفرزدق . قضاؤه للأول على الثاني . عدوله عنه ولما اقتته في
ذلك . وفاته .

(ب) أخلاقه : ظرفه . تسرعه . تدينه .

(ج) ديوانه : طبعه . على ماذا يحتوي . عدم تنقيح المترجم شعره دائماً .

غزله : ابتذال معانيه . مثل منه . رأيه في المرأة . بعض ما يمثله .

هجاؤه : شدته وعفته . مقارنة بينه وبين الخطيئة من هذه الناحية . سبب ترفعه
عن القذف . فنه في الهجاء . بعض صوره الفنية في هذا الباب .

مدحجه : سلامته من التناقض والاستجداء . انغماسه في السياسة . مثل من
مدحجه السياسي والشخصي .

نفره : نسجه على منوال عمرو بن كلثوم . مثل من فخر الشعارين .

خمرياته : أصالتها . بعض ما يمثله . يوم من أيام لهوه وطربه . نقد وتحليل .
نظرة عامة في وصفه .

(أ) حياته : هو غياث بن غوث بن الصلت ، من تغلب ، وتغلب قبيلة كبرى من ربيعة . وكنيته أبو مالك ، ومالك هذا أكبر أولاده . والأخطل لقب غلب عليه ، قيل في سبب إطلاقه عليه إنه كان يهاجي - وهو غلام - كعب بن جعيل شاعر تغلب قبل نبوغه وتفوقه فقال له : « يا غلام إنك لأخطل اللسان ! » أي بذيئه فلقب منذ ذلك الحين بالأخطل . وهناك أقوال أخرى كثيرة متضاربة في سبب إطلاق هذا اللقب عليه جمعها صاحب الأغاني في الجزء السابع من كتابه فليراجعها من أراد .

ومصادر الأدب القديم لا تعين زمن ولادته ولا مكانها . إلا أن الأب صالحاني ناشر ديوانه يرجح أنه ولد حوالي سنة ٦٤٠ للميلاد أي حوالي سنة ١٩ للهجرة . ولهذا الترجيح ما يبرره ، لأن صاحبنا كان شاعراً مجيداً في أيام معاوية ، وخلافة معاوية تمتد كما تعلم من سنة ٤١ إلى سنة ٦٠ للهجرة وشاعر ينبغ في هذا العهد يمكن اقتراض ولادته بسهولة في التاريخ الذي عينه الأب صالحاني . أما مستط رأسه فأكبر الظن أنه في الجزيرة الفراتية حيث تنقل قبيلته وحيث نشأ وترعرع باجماع الرواة . وقد فقد المترجم أمه وهو صبي ، فكانت زوجة أبيه تسيء معاملته وتضطهده وسيمر بك عند الكلام عن أخلاقه ما يدل على سوء معاملتها له .

ويظهر أنه قال الشعر صبياً ، فالرواة يحدثونا أنه هاجى كعب بن جعيل شاعر تغلب وهو غلام فضر به أبوه وقال له : « أبغزمتك ^(١) » هذه تريد أن تقاوم ابن جعيل ؟ ! » . فلم ينه ذلك عن المضي في مهاجمة كعب الذي كتب له الاستخذاء والحوال على يده . وقد أراد كعب أن ينتقم لنفسه من صاحبنا عندما ندبه يزيد بن معاوية لهجاء الأنصار فرفض مشيراً إلى مكانة الأنصار الدينية ودفاعهم عن

(١) الغرزمة : الابتداء في قول الشعر .

الرسول (ص) ولكنه نصحه بانتداب الأخطل لهذه المهمة ظاناً أنه يرمي خصمه بقاصمة الظهر . ولم يخطئ ظنه كثيراً ، فإن النعمان بن بشير شاعر الأنصار طلب إلى معاوية أن يقطع لسان الأخطل جزاء له على قوله :

ذهبت قريش بالمكارم والعلا واللاؤم تحت عمائم الأنصار
ونزل معاوية عند رغبة النعمان لولا أن يزيد أجار المترجم وفاءً بعهد الذي قطعه له بحايته من غضب أبيه . عندئذ نجح صاحبنا في مجازفته هذه النجاح كله ، فظفر بعطف بني أمية وصار شاعرهم الخاص يقدمونه ويقرّبونه ويجزلون صلته . فهذا يزيد يسامره ويعاشره ويحضره مجالس الطرب التي كانت يعقدها في دار ابن سرجون مدير شؤون المال في دولة أبيه ويمضي في مسابرة ومحاسنة إلى حد مشاركته في أكل الخنايص^(١) . وهذا عبد الملك بن مروان يسمح له بالدخول عليه متى أراد ومن غير إذن ويجالسه ويستمع إلى حديثه وهو ثمل ، ويلقبه مرة شاعر أمير المؤمنين وتارة شاعر بني أمية . وهذا الحجاج بن يوسف على جلالة قدره وعظم خطره يستزيره فيأبى أن يزوره ويكتفي بإرسال مدحته إليه مع أحد أولاده .

وصحيح أن الأخطل فقد نفوذه في بلاط دمشق على عهد الوليد بن عبد الملك الذي اتخذ عدي بن الرقاع شاعراً رسمياً له وأنه - أي المترجم - كف عن الادلال على بني أمية بهجاء الأنصار خدمة لهم ودفاعاً عنهم ، وأنه صار يشير في قصائده إلى أيدي الأمويين عنده إشارة الشاكر الممتن^(٢) بدلاً من أن يشير إلى يده عندهم

(١) الخنايص : جم خنوص وهو ولد الخنزير .

(٢) من ذلك قوله في قصيدة يمدح بها الوليد :

بني أمية قد احدث فواضلكم منكم حيادي ومنكم قبلها نعمي
فان حلفت لقد اصبحت شاكرها لا احلف اليوم من هاتنا على اثم

إشارة المتبجح المستطيل . إلا أن هذا حصل بعد أن سطع نجم الأخطل في سماء دولة بني أمية نحواً من ربع قرن ، وحسبك هذا دليلاً على أنه أحرز بفضل مكيدة خصمه كعب بن جعيل كل ما كانت تصبو نفسه إليه من جوائز سنينة وشهرة واسعة وجاه عريض .

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام أن حظوة المترجم عند بني أمية حملت قبيلته تغلب على الانفضاض عن خصمه كعب المتقدم ذكره والالتفاف حوله فصار شاعرها ولسانها والمقدم بين زعمائها . وبعبارة أخرى كان منها مكان عمرو بن كلثوم الذي لم تقتر تغلب عن الفخر ببطولته وشاعريته والتغني بمعلقاته .

لكن الذي قد لا يخلو من غرابة هو أن حظوة الأخطل عند بني أمية لم تمنعه تماماً من الفقر ولم ترفعه عن الاستجداء . فالرواة يحدثننا أنه عرض مديحه على عبد الملك بن المهلب نظير جائزة نفيسة فاعتذر هذا بخوفه أن يقال لعبد الملك بن مروان إنه : « يسأل في غرم ويعطي الشعراء » . ويحدثننا كذلك أن عجوزاً تدعى « أم زنبه » فقدت أولاداً في خدمة عبد الملك في يوم الرحوب لم تل من التعويض ما نال غيرها ممن فقد أحداً في خدمة الخليفة المرواني في هذا اليوم ، التمس من الأخطل أن يشفع لها عند الخليفة بتعويضها عن فقد أولادها في خدمته أسوة بغيرها من الناس فشفع لها ونجحت الشفاعة فدفع له العوض على أن يدفعه إلى العجوز . إلا أن حاجته إلى المال دعت به إلى إنفاقه فأنفقه ولبثت العجوز تطالبه به مدة من الزمن ثم إنها شعرت أنه لا سبيل إلى تحصيل شيء من الشاعر فرضيت منه بالمديح عوضاً عن المال فمدحها بشعر أقرب إلى الهجاء منه إلى المديح وهو قوله :

إذا ذكر النساء بيوم خير فنامي أم زنب ولا تراعي !

وظاهر أن الأخطل يريد أنه لا يد لأم زنبه في عمل الخير ، ولكن العجوز

رضيت بهذا وعدته مديحاً ، وزادت على ذلك أنها أعطته بعيراً علاوة على مالها عنده من المال .

قد تقول : وكيف توفق بين هاتين الروايتين وبين ما ذهبت إليه من ترفع الأخطل عن زيارة الحجاج رغم توسط الخليفة ؟ ! وأجيب عن ذلك بأنه لا يبعد أن يكون الأخطل قد امتنع عن إجابة رغبة الحجاج في قرة رخاء وفي ساعة خيلاء وزهو . ونحن لم نقل إنه قضى حياته كلها فقيراً معدماً ، وإنما قلنا إن حظوته عند بني أمية لم تمنعه تماماً من الفقر ولم ترفعه عن الاستجداء والفرق بين القولين كبير . وقد شاء سوء الطالع للأخطل أن يدخل بين جرير والفرزدق مع أنه كان في غنى عن هذا فتعرض لمناجزة جرير ومهاجاته ، وكان قد أسن وتحطم فلذعه جرير بقوارصه التي مر بنا بعضها عند الكلام عن شعره . وكان الأخطل قد قضى لجرير على الفرزدق بادئ بدء استناداً إلى رأي ولده مالك الذي أوفده إلى العراق ليطلع على ما يدور بين الشعارين الكبيرين المتناجرين عن كئيب . فوافاه هذا برأيه المشهور (جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر) إلا أن مجاشعاً رهط الفرزدق قدمت له هدية فاخرة عندما قدم الكوفة وأفدأ على بشر بن مروان وسأله أن يفضل صاحبها ففعل . على أن هناك شيئاً أحب أن ألفت نظرك إليه ، وهو أن الأخطل كان لبقاً في عدوله عن رأيه وتفضيله الفرزدق على جرير بعد أن فضل جريراً عليه اتباعاً لرأي ولده ، ذلك أنه كان يفضل الفرزدق على صاحبه من حيث النسب ، ولم يكن يفضل من حيث الشعارية . فكان يقول لجرير إن الفرزدق أكرم منه أباً وأشرف حسباً ولا يقول له إنه أخصب منه قريحاً وأفصح بياناً وأسير قافية :

أجرير إنك والذي تسمو له كأسيفة فخرت بحدج حصان ^(١)

(١) الحدج : مركب من مراك النساء . والأسيفة : الأمة .

أنعد مآثرة لغيرك ذكرها
 في دارم تاج الملوك وصهرها
 وسناؤها في غابر الأزمان
 أيام يربوع مع الرعيان ^(١)
 وأبا الفوارس نهشلاً أخوان
 جعلوك بين كلال وجران ^(٢)
 وإذا وضعت أباك في ميزانهم
 رجحوا وشال أبوك في الميزان

وبهذه الطريقة اللبقة أرضى صاحبنا مجاشعاً دون أن يغضب ضميره ودون أن يقع في تناقض يسيء إلى سمعته ويحط من منزلته .
 وتوفي الأخطل في خلافة الوليد بن عبد الملك . ولم يعين الرواة سنة وفاته ولا الموضع الذي توفي فيه . ولكنهم يحدوثنا أنه سئل قبيل موته أن بوصي فأوصى الفرزدق أن لا يقصر في هجاء جرير :

أوصي الفرزدق قبل المات بأمر جرير وأعيارها

(ب) أخلاقه : وثلاثة أمور لا بد من التنبيه إليها في أخلاق الأخطل وهي ظرفه وتسرعه وتدينه . فقد غلب الظرف على أقواله وأعماله منذ الحداثة ؛ وليس ثمة من يجهل قصته مع زوجة أبيه التي كانت تظلمه وتحرمه أطايب الشراب والطعام مؤثرة أولادها بها . فحدث أن رأى عندها ذات يوم تمرّاً وزيبياً وشكوة لبن فقال لها : « يا أماء » آل فلان يزورونك ويقضون حقك وأنت لا تزورينهم وعندهم عليل ! فقالت له : « جزيت خيراً يا بني ، لقد نهت إلى مكرمة . » وقامت فلبست ثيابها ومضت إليهم . فما كادت تغادر البيت حتى سطا على الزيب

(١) يقول أن الملوك يزوجون من دارم لملو مكائنها .

(٢) السكلاكل جمع كالسك وهو الصدر ومقدم العنق وواضح أن الأخطل يريد به الصدر لأنه أشار إلى مقدم العنق بكلمة جران التي لا تبدل على شيء سواه .

والتمر فمسحها مسحاً وعلى الشكوة فشرب ما فيها . فلما عادت ورأت ما حل بها
أخذت تلعنه وتصيح فقال :

ألم على عنبات العجوز وشكوتها من غياث لم
فظلت تنادي : ألا ويلها ! وتلعن ، واللعن منها أمم^(١)

ومن هذا القيل ما يروى من أنه كان ذات يوم يشرب في أحد متنزعات
دمشق ومعه صديق له فطراً عليها طارىء استثقله ولم يجرؤا على طرده ، وفيما
هما كذلك إذ سقطت ذبابة في باطية الأخل فقال له الطارىء : الذباب في باطيتك
يا أبا مالك ! فأجابه مرتجلاً :

وليس القذى بالعود يسقط في الأنا ولا بذباب نزعته أيسر الأمر
ولكن قذاها زائر لا نجبه رمتنا به الغيطان من حيث لا ندري^(٢)

ومن ظريف ما يحكى عنه أنه قدم الكوفة فنزل على سعيد بن بيان رئيس
تغلب فيها ، وكان أعور قبيح المنظر ، وكانت عنده برة بنت هاني التغلبية وكانت
ذات جمال فائق ، فاحتفى به سعيد وأحسن ضيافته ، فلما أخذت الكأس منه
جعل ينظر إلى برة وجهها وإلى سعيد وقبحه ودمايته وعوره فتعجب من صبرها
عليه . فقال له سعيد : يا أبا مالك أنت رجل تدخل على الملوك وتأكل معهم
وتشرب ، فأين ترى هيئتنا من هيئتهم ؟ وهل ترى عندنا عيباً تنهانا عنه ؟! فقال
له : ما لبيتك عيب غيرك ! فأجابه سعيد : أنا والله يا نصراني أحق منك لاني
أدخلتك بيتي !! وأخرجه ، فخرج وهو يقول :

وكيف يداويني الطليب من الجوى وبرة عند الأعور ابن بيان

(١) أمم : قريب .

(٢) يروى هذان البيتان والقصة في عدة أشكال اخترنا منها هذا الشكل .

فهلّا زجرت الطير إذ جاء خاطباً بضيقه بين النجم والدبران^(١)
 ينهمني الحراس عنها وليتني قطعت إليها الليل بالرسفان^(٢)
 إلا أن ذكاه الطبع وسرعة الخاطر اللذين ألهما صاحبنا كل هذه النكت
 الظريفة وكثيراً أخرى غيرها كانا يسوقانه أحياناً إلى التسرّع أو التهور .

روي أنه دخل على بشر بن مروان وعنده الراعي ، فقال له بشر : « أنت
 أشعر أم هذا ؟ » قال : « أنا أشعر منه وأكرم . » فقال للراعي : « ما تقول ؟ »
 قال : « أما أشعر مني فعسى ؛ وأما أكرم ، فإن كان في أمهاته من ولدت مثل
 الأمير ، فنعم . » وكان الراعي من أخوال بشر ، فلما خرج الأخطل قال له رجل :
 « أتقول لخال الأمير : أنا أكرم منك ؟ ! » فأجابه : « ويلك ، إن أبا نسطوس
 وضع في رأسي أكوؤاً ثلاثاً فوالله ما أعقل معها . »

أغرب من هذه الحادثة وأصدق دلالة على تهوّر المترجم ما يروى من أن
 الجحاف بن حكيم أحد زعماء قيس دخل على عبد الملك بن مروان وعنده الأخطل
 فقال الخليفة للأخير : « أتعرف هذا ؟ » قال : « لا » ، فقال : « هو
 الجحاف » فأنشد :

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر بقتلي أصيبت من سليم وعامر^(٣)
 وكانت لهذه الفتنة عاقبتها الوخيمة ؛ فقد غضب الجحاف غضباً شديداً ،
 وقام من فوره فجمع جموعه وأغار على تغلب في موضع اسمه « البشر » فقتل منها
 خلقاً كثيراً وأسر عدداً من رجالها كان في جملتهم الأخطل وكانت عليه عبادة

(١) ضيقة : منزل من منازل القمر مما يلي الدبران ، وهو طالع نحس فيما تزعم العرب .
 (٢) يظهر أن الأخطل قد استظرف هذه الأبيات لذلك أدجها في قصيدة مطولة مدح بها
 يزيد بن معاوية .

(٣) يشير الأخطل بهذا البيت إلى ما أصيبت به قيس وحلفاؤها في يوم السكحيل وكانت
 لتغلب على قيس .

قدرة فظنوا أنه عبد وأطلقوه ، وخشي أن يعرف فاختبأ في جب إلى نهاية المعركة التي كان ابنه « أبو غياث » بين قتلاها . وكان لا بد للأخطل من أن يشكو هذه الفاجعة إلى عبد الملك بن مروان ، وقد شكاه له فعلاً . ولكنه أساء التعبير إلى حد كاد يوقعه في غضب الخليفة . ذلك أنه أفرغ شكواه لعبد الملك بهذه الأبيات :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكى والمعوّل
فسائل بني مروان : ما بال ذمة وحبل ضعيف لا يزال يوصل ؟
فان لم تغيرها قريش بعدلها يكن عن قريش مستأز، ومرحل
فعضب عبد الملك وصاح به « إلى أين يا ابن النصرانية؟ » وهنا فطن صاحبنا إلى عظم الزلة التي وقع فيها فتداركها بقوله : « إلى النار يا أمير المؤمنين » .
على أن أبرز ظاهرة في أخلاق الأخطل إنما هي تدينه ، فليس من شك في أنه كان شديد التمسك بنصرانيته حريصاً على مبادئها وتقاليدها كل الحرص .
حدث إسحق بن عبد الله أحد أشراف بني هاشم قال : « قدمت الشام وأنا شاب مع أبي ، فكنت أطوف في كنائسها ومساجدها ، فدخلت كنيسة دمشق وإذا الأخطل فيها محبوس . فجعلت أنظر إليه ، فسأل عني فأخبر بنسبي فقال : يا فتى إنك لرجل شريف ، وإني أسألك حاجة ، فقلت : حاجتك مقضية . قال : إن القس حبسني هاهنا فتكلمه ليخالي عني . فأتيت القس ، فانتسبت له ، فرحب وعظم . قلت : إن لي إليك حاجة . قال : ما حاجتك ؟ قلت : الأخطل تخالي عنه . قال : أعيدك بالله من هذا ، مثلك لا يتكلم فيه ، فاسق يشتم أعراض الناس ويهجوهم . فلم أزل أستعطفه حتى مضى معي متكئاً على عصاه . فوقف عليه ورفع عصاه وقال : يا عدو الله أتعود تشتم الناس وتهجوهم وتقذف المحصنات ؟؟ وهو يقول : لست بعائد ... ولا أفعل ، ويستخذي له . (قال) فقلت له : يا أبا مالك

الناس بها بونك والخليفة يكرمك ، وقدرك في الناس قدرك وأنت تخضع لهذا هذا الخضوع وتستخذي له ، فقال : إنه الدين ... إنه الدين !! « (١) .

وحدث أبو عبد الملك أنه رأى الأخطل في الجزيرة « وقد شكي الى القس ، فأخذ بالحمية وضربه بعصاه وهو يصيح كما يصيح الفرخ . فقال له : أين هذا مما كنت فيه بالكوفة ؟ ! فقال : يا ابن أخي ، إذا جاء الدين ذلنا « (٢) .
وروي أن عبد الملك بن مروان عرض عليه الاسلام جاداً أو هازلاً فقال له : « إن أنت أحللت لي الخمر ، ووضعت غني صوم شهر رمضان أسلمت !! »

قد يكون في هذه الأخبار شيء من المبالغة ولكنها تدلنا دون أدنى ريب على أن الرجل كان معروفاً بتدينه على أنه لو لم يكن كذلك لجارى خلفاء بني أمية ولا سيما عبد الملك بن مروان واعتنق الاسلام ، ولزاده ذلك عزاً إلى عزه وجاهاً إلى جاهه ، ولكنه ما كان ليبيع دينه نظير شيء من عرض هذه الحياة كائناً ذلك ما كان . ولقد أثر دينه في أدبه فعصم لسانه من الهجر ونزه هجاؤه عن الفحش ولقد كان على حق عندما قال : « إنه لم يهيج أحداً بما تستحي العذراء أن تنشده أباهها » .

(ج) شعره : للأخطل - كما لصاحبيه - ديوان ضخم عالج فيه معظم أنواع الشعر . وقد طبعه الأب أنطون صالحاني ببيروت سنة ١٨٩١ م وشرحه شرحاً مستفيضاً وضم إليه ما تفرق من أخبار صاحبه فجاء أثراً عظيم القيمة جم الفائدة . ولم تحف عناية الأب صالحاني بالأخطل عند هذا الحد ، بل ظل يلتبع شعره في دور الكتب وينشر كل ما ظفر به منه في ذبول وملاحق ظهر آخرها عام ١٩٣٨ م .

(١) الأغاني ج ٧ ص ١٧٣ - ١٧٤ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

(٢) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٧١ .

وهكذا أدى الأب صالحاني للأخطل وللأدب العربي خدمة لا تنسى .
وقد خلا ديوان المترجم تقريباً من الرثاء ، فليس فيه سوى أربعة أبيات من
الرثاء . ندب فيها الشاعر ولي نعمته يزيد بن معاوية لا قيمة لها البتة ، وحفل
بالنسيب ، ولكنه نسيب لا يساعد كثيراً على علو منزلة صاحبه الشعرية . أما
فيما عدا ذلك فإنه يحتوي على طائفة حسنة من غرر الشعر ونفاثه .

والمعروف أن الأخطل يهذب شعره ولا يألو جهداً في تنقيحه . ولكنني
أشك في أنه كان يفعل ذلك دائماً لأنه لو فعل ذلك دائماً لما تغزل بمثل قوله :
يرمين بالحدق المراض قلوبنا فغويهن مكلف مضرور
وبمثل قوله :

وإذا نصبن قروهن لغدرة فكأنما حلت لمن ندور

ولو فعل ذلك دائماً لما ندب شبابه بمثل قوله :

إما تربني خناني الشيب من كبر كالتسر أرجف والانسان مهود

فقد يكون الصبا مني بمنزلة يوماً وتقتادني الهيف والرعاديد

وأخيراً لو فعل ذلك دائماً لما مدح بني أمية بمثل قوله :

وأعطيتم على الأعداء نصراً فأبصرتم به والناس عور

فما أظن أنك بحاجة إلى أن أدلك على مكان الغثاة من قوله : (فغويهن مكلف

مضرور) ! أو على مكان الركافة من قوله : (كالتسر أرجف والانسان مهود)

ومن قوله (وتقتادني الهيف والرعاديد) ، أو على مكان السماجة من قوله : (وإذا

نصبن قروهن لغدرة) ومن قوله :

وأعطيتم على الأعداء نصراً فأبصرتم به والناس عور !

تلك السماجة التي يخيل لك معها في البيت الأول أن حبيبات الشاعر عبارة عن

جماعة أعز ! . وفي البيت الثاني أن البيت الأموي فئة قليلة جداً ، ممن أنعم الله

عليهم بسلامة البصريين جموع لا تحصى ممن ابتلوا بعاهة العور... ولكنهم-أعني
الأخطل- ربما أحسن تنقيح رائيته الشهيرة التي مطلعها: « خف القطين فراحوا
منك أو بكروا... الخ » والتي يبدو فيها أثر التنقيح واضحاً جلياً ، وربما فعل
ذلك أيضاً في بعض خمرياته .

غزله ورأيه في المرأة : قلت لك إن غزل الأخطل لا يحتل المكان الأول
من ديوانه وأقول لك الآن إنه لا يعدو أن يكون تكراراً لما قاله مئات الشعراء
قبل لترجم . فمن من شعراء العرب لم يشيخ حبيبة ظاعنة ، ولم يبك على طلل
دارس ، ولم يتوجع لهجر طال أمده أو يتطلع إلى وصل هو كل ما يتمنى في هذه
الحياة ؟ ! . وعلة هذا الجفاف الغريب في غزل شاعرنا أنه لم يكن صاحب غرام
فيشرب على نحو ما يفعل الشعراء العشاق الصادقون ، ولم يكن صاحب فجور
فيتحدث عن مغامراته كما يتحدث الشعراء المجان المتعرون ولم يكن في النهاية
صاحب خيال رقيق يلهمه بدائع الغزل في غير حب ولا مجون كما حصل لصاحبه
جرير . ولعلني أروي لك أحسن غزل الأخطل إذا رويت لك هذه الأبيات :

ألا يا أصلي يا هند ، هند بني بدر وإن كان حيّانا عدى آخر الدهر
وإن كنت قد أقصدتني إذ رميتني بسهميك فالرامي بصيد وما يدري
أسيلة مجرى الدمع أما وشاحها فجار وأما الحجل منها فما يجري
وكنتم إذا تناوت عنا تعرضت خيالاتكم أو بت منكم على ذكر
وهذه الأبيات :

ليالي نلوا بالشباب الذي خلا بمرحمة الأرداف طيبة النثر
أسيلة مجرى الدمع خفاقة الحشا من الهيف مبراق الترائب والنحر
وتبسم عن ألمى شتيت نباته لذيد إذا جادت به واضح الشعر
وإني وإياها إذا ما لقيتها لكلام من صوب الغمامة والخر

وأنت ترى أنه ليس فيما رويت لك شيء يستوقف نظر الباحث . بيد أنه إن كان الأخطل غير مجيد في وصف حوادث الغرام ومحاسن المرأة الجسمية إجادة تذكر فإنه مجيد دون أن يكون أصيلاً في وصف خلق المرأة وميلها إلى الشباب ونفورها من المشيب^(١) . وقد عالج الأخطل هذا الموضوع مراراً عديدة نجح في أكثرها نجاحاً لا بأس به . عالج في دالية مدح بها يزيد بن معاوية فقال :

يقلن : لا أنت بل يستفاد له ، ولا الشباب الذي قد فات مردود !

وعالج في رائيته الشهيرة التي مدح بها عبد الملك بن مروان فقال :

يا قاتل الله وصل الغايات ! إذا أيقن أنك ممن قد زها الكبر^(٢)

أعرض لما خنى قوسي موترها ، وابتض بعد سواد اللمة الشعر^(٣)

ما يرعوين إلى داع لحاجته ولا لمن إلى ذي شيبة وطر

ولكن أحسن ما وقع له في هذا الباب قوله في قصيدة يهجو فيها جريراً ويفتخر

على قيس : —

ما إن رأيت كمكرهن إذا جرى فينا ، ولا كجباهن جبالا

المهديات لمن هوين مسبة ، والمحسنات لمن قلين مقالا

يرعين عهدك ما رأيك شاهدآ ، وإذا مذلت يصرن عنك مذالاً^(٤)

إن الغواني إن رأيك طاوياً برد الشباب ، طوين عنك وصالا

(١) أقدم وأحسن من سبقه إلى هذا فيما أعلم علامة الفحل الذي يقول :

فان تسألوني بالنساء فأنني بصير بأدواء النساء طيب
يردن ثراء المال حيث تلحقه وشرخ الشباب عندهن عجيب
فان شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له في ودهن نصيب

(٢) زها الكبر : استخفه .

(٣) اللمة : من الشعر ما جاوز شحمة الأذن .

(٤) مذل : كره وضجر .

وإذا وعدتك نائلاً أخلفته ووجدت عند عدائهن مطالاً
 وإذا دعونك عمهن ، فانه نسب يزيدك عندهن خيالاً
 وإذا وزنت حلومهن إلى الصبا رجح الصبا بحلومهن فبالا (١)
 فما أشك في أنك تستطرف معي هذه المنتخبات ولا سيما الأبيات الأخيرة
 لأنها من نفاسة الوصف ودقة التحليل بحيث يمكن أن تعتبر من أحسن ما قيل
 في هذا الباب إن لم تكن أحسن ما قيل . على أنه قد لا يبعد أن يكون الأخطل
 أول شاعر فطن إلى هذه اللباقة النسوية التي يمثلها قوله :

المهديات لمن هوين مسبة والمحسنات لمن قلين مقالا

هجاؤه : وتساألني أن أحدثك عن هجاء الأخطل فأقول لك إنه شديد إلى أقصى
 حدود الشدة قاس إلى أبعد حدود القسوة ، إلا أنه منزّه عن القذف ، خلو من
 الفحش والهجر (٢) . والأخطل من هذه الناحية عظيم الشبه بالخطيئة الذي كان
 هجاؤه للزيرقان بن بدر من العفة بحيث حمل الخليفة عمر بن الخطاب (رض)
 على القول بأنه لم يهجه ، ومن الشدة بحيث حمل حسان بن ثابت على القول بأنه

(١) لجريير في الشيب وسوء أثره في نفس المرأة خطرات لطيفة أيضاً أحسنها فيما أعلم
 هذه الأبيات :

وقالت : فيم أنت من التصابي	مقى عهد التشوق والدلال
فا ترجو ؟ وليس هوى الفواني	لأصحاب التنجيع والسمال
رأت مر السنين أخذت مني	كما أخذ السرار من الهلال
ومن يبقى على غرض المنايا	وأيام تمر مع الليالي

(٢) الواقع أن هذه القاعدة التي جرى عليها الأخطل في هجائه وهي - الشدة على المهجو
 في غير فحش ولا اقتداء - لا تخلو من شذوذ . ومن أمثلة هذا الشذوذ قوله في هجاء
 النابغة الجعدي :

وما أم ربوت على يديها بظاهرة الثياب ولا حصان
 ولكن هذا قليل في هجائه إلى الغاية .

سلح عليه . وأكبر الظن أن عفة هجاء الأخطل ناشئة عن تمسكه بدينه . فقد رأيت أن النصرانية لم تكن (لغة على لسانه) كما كان الاسلام عند جرير والفرزدق :

على أن الأخطل لا يقتصر في هجائه على الغمز واللمز بل إنه يرسم لمهجوه أحياناً صورة فنية تثير في نفس القارئ شعوراً مزدوجاً هو شعور الازدراء للمهجو ، والاعجاب بالهجاء . فمن ذلك قوله واصفاً هزيمة أحد زعماء بني العجلان في معركة هزمه بها التغالبة رهط الأخطل :

ونجى ابن بدر ركضه من رماحنا بنضاعة الأعطاف ملهبة الخصر (١)
إذا قلت : نالته العوالي ، تقاذفت به سوحق الرجلين صائبة الصدر (٢)
كأنها ، والآل ينجاب عنها ، إذا انغمسا فيه ، يعومان في غمر (٣)
يسر إليها ، والرماح تنوشه : فدى لك أمي ، إن دأبت إلى العصر
فظل يفد بها ، وظلت كأنها عقاب دعاها جنح ليل إلى وكر

فهذا التفصيل في التحدث عن هزيمة ابن بدر ، وهذه السخرية المرة التي تصوره ملهباً ظهر فرسه بالسوط مرة ، ومقدماً إياها بأمة تارة تجعل من هذه الأبيات الخمسة صورة فنية لا نبالغ إذا قلنا إنها على جانب كبير من الأصالة والنفاسة . وفي هذه القصيدة التي يهجو بها الأخطل طائفة كبرى من خصومه شذرات أخرى لطيفة منها قوله :

تنق بلا شيء شيوخ محارب وما خلتها كانت تريش ولا تبزي
ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحر

(١) بنضاعة الأعطاف : تفيض أعطافها عرقاً .

(٢) -سوحق الرجلين : بهيئتهما . وصائبة الصدر : سريعة المر قاصدة في استوائها .

(٣) الآل : السراب .

إن تشبيه الثرثرة الفارغة بنقيق الضفادع تشبيه مبتذل ، ولكن اهتداء حية البحر إلى الضفادع بفضل نقيقتها تمة طريقة للتشبيه تجعل من هذين البيتين صورة فنية رائعة . ولكن هذه النزعة التي تثير في نفس القارىء الشعور باللذة الفنية ليست غالبية على هيجاء الأخطل وإنما تغلب عليه صرامته وعفته .

مديحه : وكما نزه الأخطل هجاءه عن الفحش والهجر نزه مديحه عن الاستجداء الذي سقط فيه مديح جرير ، ونزهه كذلك عنه التناقض الذي وقع فيه مديح الفرزدق . وعلة ذلك أنه لم يكن من ضمة النسب وشدة الطمع بحيث يقف من ممدوحيه موقف السائل يشكو لهم كثرة عياله مرة ، ويدكرهم ما عند الله من أجر في صلة أمثاله تارة ، وأنه أخلص إلى بني أمية الاخلاص كله فقصر مديحه على خلفائهم وأمرائهم وعلى من خدمهم من كبار الولاة والقواد والزعماء . وقد جرى الأخطل في مديحه على غرار من سبقه من كبار الشعراء المداحين كزهير بن أبي سلمي ونابغة بني ذبيان وأعشى بكر . فوصف أخلاق ممدوحيه وشمائهم وما أثرهم ومفاخرهم وصفاً بشيع فيه الصدق وتغلب عليه البساطة ويندر فيه الغلو والاسراف . فبنو أمية يبارون الريح سخاءاً إذا أجذب العام وهم من قوة البطش وشدة البأس بحيث لا يلينون إلا إذا استسلم لهم العدو . هذا إلى أنهم ذوو صدور رحية وأخلاق سمحة ، يحسنون الصفح إذا قدروا والعفو إذا ظفروا ، ورجلهم عبد الملك بن مروان قائد جيوش وقامع فتن وموطد أركان مملكة ، وأخوه بشر مطعام مضياف ذو رأي حصيف وحلم رزين . أما الحجاج بن يوسف عامله الأكبر فانه صعب المراس شديد الاخلاص للعرش الأموي يأتي البريد في كل يوم بتحفة من تحفه الثمينة وخبر من أخباره السارة ، وهلم جرأ . ولم يكن للأخطل بد من أن يعالج السياسة ، لأنه شاعر قصر له سياسته وله مصالحه التي لا تستغنى عن دعاية قوية واسعة ، ولأنه لسان قبيلة يهيمها أن تنتفع

بشعره إلى أبعد حد مستطاع . وقد صدع الأخطل بمشيئة هذه الظروف ، فاصطلم السياسة في شعره ولا سيما في مديحه مراعيًا مصلحة قبيلته قبل كل شيء . ولك أن تقرأ رأيته الشهيرة التي مطلعها « خف القطين ... الخ » والتي تقدم بعضها لتقنين منها كيف يتوخى مصلحة قومه في تحريضه بني أمية على زفر بن قيس زعيم قيس عيلان وفي التهجيم على حلفائه من سامم وكليب يربوع وغيرهم لأن زفر بن قيس وأنصاره الأذنين والأبعدين ليسوا أعداء لبني أمية فحسب بل إنهم أعداء لتغلب قبيلة الشاعر التي رأت أن من مصلحتها أن تشد أزر بني أمية وتؤيد سلطانهم وأن تقف إلى جانبهم في الحروب الداخلية التي دارت بينهم وبين خصومهم ، وبين زفر هذا وأشياعه وبين تغلب ، كما بينه وبين آل مروان ، حروب ووقائع سالت فيها الدماء كل مسيل . ومديح الأخطل الجيد ، سياسيًا كان أم شخصيًا بحثًا ، كثير . إليك منه هذه الأبيات التي يمدح بها عبد الملك بن مروان في قصيدة (خف القطين ... الخ) :

مقدم مثني ألف لمنزله	ما إن رأى مثلهم جن ولا بشر
يفشى القناطر بينهم ويهدمها	مسوم فوقه الرايات والفتن ^(١)
حتى يكون لهم بالطف ملحمة	وبالثوية لم ينبض بها وتر ^(٢)
وتستبين لأقوام ضلاتهم	ويستقيم الذي في خده صعر
ثم استقل بأثقال العراق وقد	كانت لهم رقعة فيه ومدخر ^(٣)
في نبعة من قرش يعصبون بها	ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر ^(٤)

- (١) مسوم : معلم بعلامة يعرف بها . القتر : القبار .
 (٢) الثوية : موضع بقرب السكوفة . لم ينبض بها وتر : لم ترم بها النبال لقرب ما بين الجيشين .
 (٣) عافهم على ما فرط منهم حال استيلائه عليهم وادخر لهم عقوبات أخرى المستقبل .
 (٤) النبعة : واحدة النبع وهو الشجر الذي تتخذ منه القسي يثبت في قلال الجبال : يعصبون بها : يطيفون بها .

وهذه الأبيات التي يمدح بها خالد بن عبد الله بن أسيد بن أبي العيص
بن أمية :

أبي عودك المعجوم إلا صلابه وكفالك إلا نائلا حين نسال
ألا أيها الساعي ليدرك خالدا تناه وأقصر بعض ما كنت تفعل
فهل أنت إن مد المدى لك خالد موازنه أو حامل ما يحمل
أبي لك أن تستطيعه أو تناله حديث شاك القوم فيه وأول

نفره : وكما ينسج الأخطل على منوال من تقدمه من الشعراء في المديح ينسج
على منوالهم كذلك في الفخر ، أستغفر الله ، بل إنه ينسج على منوال سلفه أو عمه
عمرو ^(١) بن كلثوم بصورة خاصة . فقد كان فخر الأخطل سجلا حافلا بوقائع
تغلب وأيامها في القرن الأول للهجرة كما كان فخر ابن كلثوم ولا سيما معلقته سجلا
حافلا بماثر تباب وأيامها في القرن السادس للميلاد . ولك أن تقارن بين
قول الأخير :

وإن قناتنا يا عمرو أعت على الأعداء قبلك أن تلينا
إذا عض الثقاف بها اشمازت وولتهم عشوزنة زبونا ^(٢)
عشوزنة إذا انقلبت أدنت تلق قننا المثقف والجينا

وبين قول الأول :

إذا الملك آلى أن يقيم قناتنا فليس علينا يومذاك بقادر

(١) أشار الأخطل إلى عمرو بن كلثوم على أنه عمه بقوله :

أبني كليب إن عمي هذا قتل الملوك وفككا الأغلالا

اذ المراد بقوله « عمي » عمرو بن كلثوم قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة ، وأخوه

سرة بن كلثوم قاتل المنذر بن النعمان بن المنذر .

(٢) الثقاف : القويم . اشمازت : نفرت . عشوزنة : صلبة شديدة . زبون : دواع .

إذا الأصعر الجبار صعر خده أقناله من خده المتصاعر
بضربة سيف أو بنجلاء ثرة إذا نشجت مجت دماء الأباهر^(١)

أقول : لك أن تقارن بين هذه الأقوال لتبين أن الشاعرين يتكلمان لغة واحدة ويمثلان خلقاً واحداً ويعبران عن سجية واحدة . ومع أن الأخطل يبدو معتدلاً في غزله وفي مديحه وفي هجائه أحياناً فإنه لا يحجم عن الغلو والاسراف على نفسه في الفخر اقتداءً بسلفه ابن كثوم ، ولا أدل على ذلك من قوله :

إنا لنقتاد الجياد على الوجى نحو العدا بمساعر أبطال^(٢)
في كل ذي لب كأن زهاء ليل تعرض أروعان جبال^(٣)
دم يظل به الفضاء معضلاً كالطود أرعن مجفل الأتقال^(٤)
مابسين أوله وآخر جمعه يوم يسار وليلة البغال
مجر تظل البلق في حافاته ينشدن بين تلمس وسؤال^(٥)

أظن أن هذا الجيش الذي يصفه لنا الأخطل جيش دولة من أقوى الدول وأكثرها عدداً وعدداً ، لا جيش قبيلة مهما عظمت سطوتها وكثر عدد أفرادها واتسعت رقعة سلطانها ؛ ولكن هذا الغلو في الفخر غير كثير على خليفة

(١) بنجلاء : واسعة والمراد بها هنا الطمعة . ثرة : يتدفق منها الدم . نشجت : كان لها صوت كهووت النشيج . الأباهر جمع أبهر وهو الظهر أو الوريد .

(٢) الوجى : الخفى . المساعر : جمع مسمر وهو مسمر نار الحرب .

(٣) ذو لب : جيش كثير العدد له ضوضاء وجلبة . زهاؤه : مقداره . رعان : جمع رعن : مقدم الجبل .

(٤) دم : كثير العدد . معضل : ضيق . أرعن : له فضول تشبه رعن الجبل . مجفل : كثير الثقل .

(٥) مجر : جيش عظيم . البلق : جمع أبلق وهو من الخيل ما جمع بين السواد والبياض وما كان مبعجلاً إلى الفخذين .

غمر بن كلثوم القائل :

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر مملأه سفينا

خبرياته : على أنه إن كان الأخطل مقلداً في كل ما سبق درسه من أنواع شعره فإنه أصيل كل الأصالة في وصف الحر وما يتصل بها من غناء وطعام وآنية وما إلى ذلك، واست أعني أن شاعراً لم يسبقه إلى هذا الوصف، فقد سبقه وصاف الحر في الجاهلية والاسلام، ولا سيما الأعشى، إلى كل هذا وإنما أعني أنه استلهم حياته كل ما قال في وصف الحر واستمد أخيلته وخواطره في هذا الباب من شؤون وحوادث ملأت نفسه ونفذت إلى أعماق حسه واحتلت المقام الأول من تاريخ حياته . فما أظن أنه يكذبنا في شيء عندما يخبرنا أن شرب « ثلاث زجاجات » مملأه « زهواً » حتى يخيل له أنه « أمير على أمير المؤمنين » وما أظن أنه يكذبنا في شيء كذلك عندما يحدثنا أنه ورفاقه شربوا ذات مرة حتى فقدوا صوابهم ثلاثة أيام متواليات، فلما أفاقوا لم يكن لهم هم إلا استئناف الشراب . وما أظن أنه يصف لنا إلا نفسه أو أحد إخوانه عندما يصف لنا « صريع مدام » حف به إخوانه وهم « يهادونه أحياناً ويجرونه حيناً » . وما أريد أن أسرف في التلميح والاختصار أو التشويه والمسح فاسمع الأخطل يحدثك عن يوم من أيام لهوه وطربه :

شربت ، ولاقاني ، حلّ أليتي ، فطار تروى من فلسطين مثقل^(١)

عليه من المعزى مسوك روية مملأة يعلى بها وتعدل^(٢)

(١) الآية : الخين . القطار : عدد من الأبل متتابع على نسق واحد .

(٢) المسوك : جمع مسك وهو الجلد والمعني به هنا الزق .

فقلت : اصبحوني ، لا أبأ لأبيكم ! وما وضعوا الأثقال إلا ليفعلوا
 أناخوا ، فخرجوا شاصيات ، كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا^(١)
 وجأؤوا ببيسانية هي ، بعدما يعمل بها الساقى ، الذو أسهل ،^(٢)
 فصبوا عقاراً في إناء ، كأنها ، إذا لمحوها جذوة تتأكل
 تمر بها الأيدي سنيحاً وبارحاً ، وتوضع بالهمّ حيّ ، وتحمل^(٣)
 وتوقف أحياناً فيفصل بينها غناء مغن ، أو شواء مرعبل^(٤)
 فلذت لمرتاح وطابت لشارب وراجعني منها مراح وأخيل^(٥)
 فما لبثنا نشوة لحقت بنا توابعها مما نعل ونهمل
 تدب ديباً في العظام كأنه ديب نال في نقاً يتهميل
 فقلت اقتلوا عنكم بمزاجها ، وأطيب بها مقتولة حين تقتل !

فما أشك في أنك تحس الصدق والأصالة في كل بيت من هذه الأبيات : تحسهما
 في هذين البيتين اللذين يصف فيها الأخطل قطاراً مثقلاً بالخرق قادمًا من فلسطين .
 وتحسهما في هذين البيتين اللذين يحدثنا فيها الأخطل كيف ابتاع نصيبه من هذه
 الخمر . وتحسهما في هذا البيت الذي يعين به الأخطل نوع هذه الخمر ويصفها
 بأحسن الأوصاف فيقول لنا : إنها بيسانية وإنها لذينة الطعم خفيفة الأثر في عقل
 الشارب وجسمه . وتحسهما في هذه الأبيات التي يحدثنا فيها الأخطل كيف نادى
 جماعة من إخوانه على هذه الخمر فشربوا وأكلوا وسعوا . وتحسها أخيراً في

(١) شاصيات : مرتفعات القوائم من امتلائها .

(٢) بيسانية : نسبة إلى بيسان قرية من قرى فلسطين .

(٣) السنيح : الآني من جهة اليمين . والبارح : الآني من جهة اليسار .

(٤) مرعبل : مقطوع .

(٥) المراح : النشاط . والأخيل : الكبير .

هذا البيت الذي يصف فيه الأخطل ديب هذه الحرة في عظام شاربها فيشبهه
بديب الغمال في الرمال وهو تشبيه ما أظن أن شاعراً سبق المترجم إليه . وفي
إمكانك أن تتبين الصدق والأصالة في صفحات أخرى عديدة من خمرات الأخطل
تقدمت الإشارة إلى بعضها في هذا الفصل ^(١) .



(١) للأخطل وصف كثير اقتصرنا هنا على الجانب الحمري منه لأنه أكثرهم أصالة
وأجوده . وسأروي لك مثلاً منه عند الفصل بين المترجم وصاحبيه .

الفصل بين جرير والفرزدق والأخطل

— ٥ —

أ - أقوال الرواة والنقاد القدماء في هذا الباب .

ب - نقدها .

ج - صعوبة الفصل بين هؤلاء الشعراء .

د - الرجوع إلى قاعدتين أساسيتين في هذا الموضوع .

هـ - تفضيل جرير لتفوقه في خمسة أضرب من القريض . البرهنة على ذلك .

تفضيل الفرزدق على الأخطل لتفوقه في ضربين من الشعر . مثل من فخر

الفرزدق . موازنة بين الفرزدق والأخطل في وصف القطا . موازنة أخرى

بينهما في وصف لقاء الذئب . الأخطل ثالث الثلاثة لتفوقه في وصف الحمر

فقط .

و - خاتمة .



(أ) والآن لتعيين منزلة كل من هؤلاء الشعراء الثلاثة الذين شغلوا العالم

العربي وكانوا حديث الخاص والعام زمناً غير قليل .

الواقع أن أقوال الرواة والنقاد في تعيين منزلة كل منهم وتحديد مركزه

بالنسبة إلى صاحبيه مختلفة كل الاختلاف؛ فهذا المفضل الضبي وهو الراوية الناقد

الثقة يقول بتفوق الفرزدق ويقدمه على صاحبيه مقدمة شديدة . وهذا ابن سلام

ينسج على منواله في تقديم الفرزدق على صاحبيه . وهذا يونس النحوي يقدم
 الفرزدق مرة ويقدم الأخطل تارة . وهذا حماد الراوية يفضل الأخطل ويقول :
 إن شعره حبيب إليه النصرانية . وهذا أبو عبيدة يفضل الأخطل ويقول : إنه أشبه
 بالجاهلية وأشدّهم أسرّ شعر وأقلهم سقطاً . وهذا أبو عمرو بن العلاء وهو الراوية
 الناقد والقارىء أيضاً يفضل الأخطل ويشبهه بالنابغة الذبياني لصحة شعره ويقول :
 « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما فضلت عليه أحداً ! » والله أعلم بما
 لهذا الرأي المبني على عبادة القديم من قيمة . وهذا ناقد عذري يسأله عبد الملك عن
 أمدح بيت قالته العرب فيجيب قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
 وعن أهجى بيت قالته العرب فيجيب : قول جرير

ففض الطرف إنك من نيمر فلا كعباً بلغت ولا كلابا
 وعن أفر بيت قالته العرب فيجيب قول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا
 وعن أغزل بيت قالته العرب فيجيب : قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لا يحين قتلنا
 وعن أحسن تشبيهه قالته العرب ، فيجيب : قول جرير :

سرى نحوكم ليلا كأن نجومه قناديل فيهنّ الذبال المقتل

وعبد الملك يقره على رأيه ويأمر له بجائزة . وهذا جرير يقول عن الفرزدق إنه
 « نبعة الشعر » وبصف موقفه من الأخطل فيقول : « أدركته وله ناب واحد، ولو
 أدركته وله نابان لأكتفي » ويقول عن نفسه مرة إنه « مدينة الشعر منها يخرج
 وإليها يعود » وتارة إنه « نحر الشعر نحرآ » . وهذا الفرزدق يقول لاسليمان بن
 عبد الملك وقد سأله عن أشعر الناس « كفالك بابن النصرانية إذا مدح » . وهذا

مالك بن الأخطل يقول « جرير يعرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر » .
وأخيراً هذا مروان بن أبي حفصة يقول :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما حلوا الكلام ومره جرير
ولقد هجا فأمض أخطل تغلب وحوى اللهى بمدح المشهور

(ب) وغني عن البيان أن ناقداً حديثاً لا يمكنه أن يستمد رأيه من هذه الأقوال
المجملّة على العموم إجمالاً تاماً والتي لا يخلو بعضها من التعصب ، والتي لا تعتمد في
جملتها على درس حقيقي أو نقد صحيح ، والتي لا تخلو من الوضوح والافتعال أيضاً .
فما أظن أن قصة العذري من الصحة في شيء . ولك أن تراجعها في (ج ٧ ص ٥٠)
من الأغاني لتتحقق وجاهة هذا الزعم .

(ج) على أن الفصل بين هؤلاء الشعراء الثلاثة وتحديد منزلة كل منهم
بالنسبة إلى صاحبيه أمر لا يخلو من صعوبة ومشقة ذلك أن حسنات كل منهم
تختلف وحسنات صاحبيه في موضوعاتها وأغراضها وطرق أدائها اختلافاً شديداً .
مثال ذلك أن القدماء يستحسنون كثيراً قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لا يبحين قتلانا
بصر عن ذا اللب حتى لا حراك به وهنّ أضعف خلق الله إنسانا

وهو استحسان في محله ، ولا سيما بالنسبة إلى البيت الثاني . ويستحسنون كثيراً
أيضاً قول الفرزدق :

قالت : وكيف يميل مثلك للصبا وعليك من سمة الحليم وقار ؟
والشيب ينهض بالشباب كأنه ليل يصيح بجانيبه نهار

وهو استحسان في محله كذلك ، ولكن مما لا شك فيه أنه ليس بين بيتي جرير
وبيتي الفرزدق صلة يستطيع ناقد أن يتخذها أساساً لمقارنة أو موازنة بين الرجلين ،

وقل مثل ذلك عن أكثر محاسن هؤلاء الفحول الثلاثة إن لم نقل عنها جميعاً ،
ومعنى هذا أن الفصل بينهم من الصعوبة بمكان .

(د) ومع ذلك أحب أن أقول كلمة متواضعة في هذا الباب .

يخيل إليّ أن الفصل بين جرير والفرزدق والأخطل يقوم على أمرين اثنين
لا ثالث لهما ، أحدهما عدد أبواب القريض التي برز فيها كل من هؤلاء الشعراء ،
وثانيها ما ترك من غرر الشعر وفائسه في هذا الباب .

(هـ) وعلى هذا يكون جرير أكبر الثلاثة وأعلامهم كعباً في صناعة القريض
لأنه يند صاحبه في خمسة من أبوابه هي : المديح والغزل والهجاء والعتاب والرتاء ،
فما أظن أن للفرزدق ولا للأخطل في المديح مثل قول جرير في الحجاج :

دعوا الجبن يا أهل العراق فانما يباع ويشترى سي من لا يقاتل

لقد جرّد الحجاج بالحق سيفه لكم فاستقيموا لا يميلنّ مائل

فما يستوي داعي الضلالة والهدى ولا حجة الخصمين حق وباطل

وثنتان في الحجاج لا ترك ظالم سويّاً ولا عند المرأشة نائل

ومن غل مال الله غلت يمينه إذا قيل أدوا لا يغلنّ عامل

ولا مثل قوله في عبدالعزيز بن الوليد بن عبد الملك :

فيومان من عبدالعزيز تفاضلا في أي يوميه تلوم عواذله

فيوم تحوط المسلمين جواده ويوم عطاء ما تغبّ نوافله

ولا مثل قوله في نفس القصيدة :

فلا هو من الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله^(١)

(١) قد يقال إن جريراً أخذ هذا المعنى من الأخطل الذي يقول في مدح بشر بن مروان .

أغر غايته التاج لا متميس ولا ورق الدنيا عن الدين شاغله

ولكن أظن أنه من الحق أن نقرر أن جريراً أخذه وهو « قطعة خشب فأعاده سبيكة

ذهب » هذا إذا فرضنا أنه أخذه اخذاً وهو ما استبعد .

فهذا بديع ليس في الناس مثله وهذا مديح لا يكذب قائله
ولست أنكر فضل الأخطل في قوله :

حشد على الحق عيافو الخنا أنف إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستفاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا
ولكن أيقاس هذان البيتان بما تقدم ذكره من مدح جرير براءة وصف وجزالة
لفظ ومثانة سبك وحلاوة جرس ؟! إنني أشك في ذلك (١).

وما أظن أن للفرزدق ولا للأخطل كلمة في الغزل فيها من رقة الشعور
ولطف الخيال وجمال اللغة وحسن التأليف مثل ما في قول جرير :

غيمضن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟
وقوله في العيون :

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لا يحيين قتلنا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا
وقوله في نفس القصيدة :

لقد كتمت الهوى حتى تهيمني لا أستطيع لهذا الحب كتماناً
وقوله من أخرى :

تركت محائين رأوا شفاء فحاموا ثم لم يردوا وحاموا
وما أظن أن للفرزدق ولا للأخطل كلمة في الهجاء فيها من شدة النكابة ونزاهة
العبارة ومثانة الأسلوب مثل ما في قول جرير :

(١) لولا وجود شك بنسبة البيت التالي الى الفرزدق وهو :

يفضي حياء ويفضي من مهابته فإيكلم الا حين يبتسم
لكان الفرزدق عندي أمدح الثلاثة بهذا البيت، فإن فيه من عمق التفكير ودقة التصوير
وجمال الأداء ما لا نظير له في مديح جرير والأخطل كله .

ففض الطرف إنك من نعيم فلا كعباً بلغت ولا كلاباً
وقد حدثتك عن رثاء الفرزدق حديثاً لا يخلو من تطويل زعمت فيه أنه خلو من
أهم عنصر من عناصر الرثاء ألا وهو «الكلام المؤثر الذي يصور نبضات القلوب
الحزونة وخلجات النفوس المتألمة» ، وأشرت إلى رثاء الأخطل فقلت لك إنه
عبارة عن أربعة أبيات لا قيمة لها البتة ، وقلت لك أيضاً إن جريراً مجيد في الرثاء
كما أنه مجيد في الغزل ، وأقول لك الآن إنه لو لم يكن له فيه سوى مرثيته لزوجته
لكفي ، وهذه المرثية مشهورة ومع ذلك أروي لك منها هذه الأبيات :

لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
وأهت قلبي إذ علتني كبرة وذوو التماثم من بليك صغار
صلى الملائكة الذين تخيروا والطيبون عليك والأبرار
ولقد أراك كسيت أبجل منظر ومع الجمل سكينة ووقار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكرّ عليهم ونهار
ولسنا نعرف للفرزدق ولا للأخطل عتاباً يستحق الذكر ، ولكن يائسة جرير
التي يعاتب بها جده الخطفي على استرداده مالا نحله إياه إثر ولادة صبية ولدت
له والتي يقول فيها :

وإني لمغرور أعذل بالمني ليسالي أرجو أن مالك ماليا
فأنت أبي ما لم تكن لي حاجة فان عرضت أيقنت أن لا أباليا
وإني لعل الفقير مشترك الغنى سريع إذا لم أرض داري انتقاليا
بأي سنان تطعن القوم بعد ما نزع سناناً من قناتك ماضيا
أقول هذه الياثية من خير ما عاتب به شاعر إنساناً أساء إليه ونال منه . وإذن
نجرير مقدم على صاحبيه في هذه الأبواب الخمسة التي له فيها غرر ومحاسن لا نعرف
لها نظيراً في شعر الفرزدق والأخطل . ويليه الفرزدق في المنزلة لأنه يبد صاحبيه

في باين فقط من أبواب القريض هما الفخر والوصف . فمن غرره التي يقدم بها
على صاحبيه في الفخر قوله :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب
سروا يخطون الليل وهي تلفهم على شعب الأكوار من كل جانب
إذا مارأ واناراً يقولون ليتها وقد خصرت^(١) أيديهم نار غالب
وقوله :

وقد علم الجيران أن قدورنا ضوامن للأرزاق والريح زفرف
وقوله :

وكنا إذا الجبار صعر خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع^(٢)
وقوله :

ترى كل مظلوم إلينا فراره ويهرب منا جهده كل ظالم
فلست أعرف لجري ولا للأخطل خراً يداني هذا الفخر في جمال معناه وجلال
ميناه .

أما الوصف فليس لجري فيه إذا استشدنا وصف عطاء الرجال شي . يذكر .
ولكن للأخطل وصف كثير أحسنه في الخبر . وقد حدثتكم عنه عند الكلام
عن شعره وهو في هذا النوع من الوصف مقدم على صاحبيه ، إلا أنه دون
الفرزدق فيما عدا ذلك . ولك أن تقارن بين ما قاله الفرزدق في وصف القطا وزق
أفراخه وبين ما قاله الأخطل في هذا الشأن لتبين من السابق في هذه الحلة ، قال
الفرزدق :

(١) خصرت : تقلصت من شدة البرد .

(٢) الأخادع : جمع أخدع وهو شعبة من الوريد .

ويدعو القطافيه^(١) القطا فيجيبه توائم أطفال من السبب المحل
دوارج أخلفن الشكير كأنما جرى في مآقيها مراد من كحل
يسقين بالمواة زغباً نواضناً بقايا نطاف في حواصلها تغلي
تجج أداوى في أداوى بها استقت كما استفرغ الساقى من السجل بالسجل
وقال الأخطل :

إذا صدرت عنه^(٢) حمام تركنه لورد قطعاً بسقي فرادى وتوأماً
تراها إذا راحت رواءً ، كأنها معلقة عند الحناجر ختماً^(٣)
تأوب زغباً بالفلالة تركنها بأغبر مجهول المخارم أقماً^(٤)
إذا نهتهن^(٥) الروافد بالقرى ، سقين بمجالات هوامد جماً^(٥)
ينبهن^(٦) قيظي الفراخ كأنما ينهن مغموراً من النوم أعجماً^(٦)
ثنين عليها الريش حتى تلاحقت ، وصار شعاعاً فيضها قد تحطأ^(٧)
فطارت شلالاً وابدعت كأنها عصاة سبي شع أن يتقسماً^(٨)
فلا نزاع في أن الفرزدق أصدق تصويراً وأروع خيالاً وأنصع ديباجة. وما أشك
في أنك تدرك ذلك إدراكاً تاماً وتؤمن به إيماناً تاماً . ولك أن تقارن أيضاً بين
آيات الفرزدق النونية التي روى فيها قصة لقائه الذئب ومقاسمته زاده وآيات

(١) الضمير في « فيها » عائد الى البيداء الموصوفة بآيات سابقة .

(٢) الضمير في (عنه) عائد الى الماء المذكور في بيت سابق .

(٣) الختم : الجرة الحفراء شبه بها حواصل القطا .

(٤) تأوب : تعود . الخارم : الطرق المشتبكة .

(٥) يعني بالروافد : أمهات الفراخ . الهوامد : جمع هامد وهو الضئيف . جنم : جمع جانم وهو اللاصق بالأرض .

(٦) القيظي : ما فرخ في القيظ .

(٧) شعاع : متفرق . القيض : قشور البيض .

(٨) شلال . متفرقة . ابدعت : أسرع في تفرقها شع : تفرق هارباً .

للاخطل في عروضها وقافيتها تحدث فيها عن ذئب وغراب تضيفاه . قال
الفرزدق :

وأطلس ^(١) عسال وما كان صاحباً	دعوت بناري موهناً فأتاني
فلما دنا قلت ادن دونك إني	وإياك في زادي لمشتركان
فبت أقعد الزاد بيني وبينه	على ضوء نار مرة ودخان
فقلت له لما تكشر ضاحكاً	وقائم سيفي من يدي بمكان
نعش فان عاهدتني لا تخوتي	نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنما	أخمين كانا أرضعنا بلبان
ولو غيرنا نهبت تلمس القرى	رمك بسهم أو شبة سنان
وكل رفقي كل رحل - وإن هما	تعاطى القنا قوما هما - أخوان

وقال الأخطل :

خليلي ليس الرأي أن تذراني	بدويّة يعوي بها الصديان ^(٢)
وأرقي من بعدما نمت نومة	وعضب جلت عنه القيون يمانى
نصاحب ضيفي فقرة يعرفانها	غراب وذئب دائم العسلان
إذا حضراني عند زادي لم أكن	بخيلاً ولا صبا إذا تركاني
إذا ابتدرا ما تطرح الكف فانه	به حبشي كيدس الاحظان
يباعده منه الجناح وتارة	يراوح بين الخطو والحجلان

إذا لم يخطئ ظني فكل ما يقوله الأخطل هو أنه لا يجرؤ على البقاء وحده في
الصحراء وأنه منح الغراب والذئب ضيافته ولكنهما لو تركاه لكان ذلك خيراً

(١) أطلس : الذئب الذي في لونه غبرة الى سواد . عسال : مضطرب في عدوه .

(٢) الدويّة : القفر الذي يسمع فيه صوت الريح . والصديان : مثنى الصدا والمراد بهما
هنا اليوم والهامة .

له . فأين هذا من دعوة الفرزدق ذنبه إلى القرى وقسمته الزاد بينه وبينه مع علمه
بغدره واستعداده لمواجهة؟! . هذا فضلاً عن الأسلوب القصصي الرائع الذي تمتاز
به أبياته . الحق أن الفرزدق أمهر الثلاثة في الوصف غير مدافع فيما عدا الحمر . وهذا
والأخطل ثالث الثلاثة لأنه لم يتقدم صاحبيه إلا في وصف الحمر . وهذا
يعني أنه يتفوق في نوع واحد من أنواع القريض بينما يتفوق جرير في خمسة من
هذه الأنواع والفرزدق في اثنين .

وغرر الأخطل التي تثبت تفوقه في وصف الحمر وما يتصل بها كثيرة . رويت
لك مثلاً منها عند الكلام عن شعره . وأروي لك الآن منها هذا البيت وهو:
وأدريت منهم سبجياً^(١) كأنه قنيل من السودان عبل مجرح
وهذا البيت الرائع :

وإذا تعاورت الألف زجاجها ففجت فشمّ رياحها المزكوم^(٢)
(و) هذا ما أزعجهم أنه رأي في المثلث الأموي وربما كان خليفاً بما عقبته به على
أقوال الرواة والنقاد القدماء .



(١) السبجلى : الواسع الضخم والمراد به هنا الزق .

(٢) في الواقع ان الأخطل أخذ هذا من قول الأعشى .

وإدكن عاتق حجل ربحل صبحت براحه شرباً كراما

من اللاتي حان على المطايا كربح المسك تستل الزكما

ولكنه احق به منه لأنه افرضه بتألب اجل .

خاتمة الكتاب

رأيت فيما تقدم أن القرآن يحتوي على ثمر فنيّ بليغ وأن هذا الثمر قد أثر تأثيراً عميقاً جداً في خطب صدر الإسلام ودولة بني أمية وفي عهود هذا العصر وكتبه ، وأن المدارس الشعرية التي تخرج فيها المخضرمون قديمة العهد وطيدة التقاليد مضى على بعضها في الجاهلية مئة سنة أو أكثر^(١) وأن المرأة العربية لم تكن محرومة في ذلك العصر من نعمة الأدب ، وإنما كانت تفكر كما يفكر الرجل وتنشئ كما ينشئ ، وتنال من بعد الشهرة وذيوع الصيت مثل ما بنال ، وأن الشعر العربي على عهد صدر الإسلام ودولة بني أمية لم يكن أداة كسب ووسيلة ارتزاق ليس غير ، وإنما كان منه ما يعنى بالمثل العليا والمبادئ السامية ، وما يعنى بالجمال والمواطف عناية صادقة . رأيت هذا كله وأنت إذا أردت أن تخرج بنتيجة منه كانت هذه النتيجة :

أولاً — أن (عصر القرآن) أو عصر صدر الإسلام ودولة بني أمية من أخصب عصور الأدب العربي وأغزرها إنتاجاً وأشدّها إشراقاً .

ثانياً — وأن الأدب الذي تمخّض عنه هذا العصر أدب عربي صراح لا يد فيه للفرس ولا اليونان ولا لأحد غير هؤلاء وأولئك ، لأن أحداً من كبار الخطباء أو نوابغ الكتّاب أو فحول الشعراء الذين يملّون هذا العصر لم يكن من أصل غير عربي .

(١) من أمثلة ذلك أن زهير بن أبي سلمى الذي أدرك الإسلام عمر أكثر من ثمانين سنة باجاء الرواة . وقد كان طفلاً صغيراً عندما ترملت والدته وتزوجت أوس بن حجر شاعر مضر الذي تولى تربيته وتخرجه .

ثالثاً — وأن العصر الجاهلي الذي سبق هذا العصر مباشرة كان عصر
 أدب وبيان ولسن وفصاحة ، لأنه ليس من المعقول أن عصر القرآن على كثرة
 ما أنجب من عقول نبيرة وقرائح خصبة يظهر فجأة على مسرح التاريخ دون
 مقدمة أو تمهيد . إنما المعقول أن يكون ثمرة عصر نشطت فيه القرائح وفتحت
 الأذهان وقطع الخيال والعقل أشواطاً لا بأس بها في مضمار التقدم والارتقاء .



المفردات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الباب الأول	
النثر في عصر القرآن	
الفصل الأول:	
النثر الفني في عصر القرآن	
تمهيد في النثر الجاهلي ونشأته وتطوره وضياعه	٨-٧
النثر الاسلامي	٨
أنواع النثر الفني عند العرب ووجودها جميعاً في القرآن	١٤-٩
ميل القرآن إلى التزام قافية واحدة	١٥-١٤
بعض خصائصه الفنية الأخرى	٢٠-١٥
خاتمة : الفصل في الموضوع	٢١
الفصل الثاني:	
الخطابة في عصر القرآن	
انتصار القرآن من الناحية الأدبية	٢٣-٢٢
أثره في خطب القرن الأول للهجرة وكتبه	٢٤-٢٣

الموضوع	الصفحة
الخطابة في عصر الراشدين	
خطبة أبي بكر في وصف الملوك	٢٤
خصائصها الفنية	٢٥-٢٤
خطبة عمر بعد تشييعه سعد بن أبي وقاص	٢٥
أسلوبها	٢٦-٢٥
خطب الامام علي	
وصف الشيخ محمد عبده ما ترك نهج البلاغة في نفسه من الانطباعات (هامش)	٢٧-٢٦
الشكوك في نهج البلاغة : مناقشتها	٢٩-٢٧
بعض خطب الامام علي ممتبسة من العهد الفريد	٣١-٢٩
استعراض الصلة الفنية بين خطب الراشدين والقرآن	٣٢-٣١
خطبة الامام علي بعد تلاوة « ألهام التكاثف »	٣٣-٣٢
مميزاتها الفنية	٣٤-٣٣
بقاء الخطابة على عهده بنى أمية كما كانت في أواخر الراشدين	
خطبة للحسن بن علي	٣٤
خطبة لمعاوية بن أبي سفيان	٣٤
خطبة لعمر بن عبدالعزيز	٣٥-٣٤
خطبة لعبد الله بن الزبير	٣٦-٣٥
نبذة من خطبة لأبي حمزة الأباطي	٣٧-٣٦

الموضوع	الصفحة
العناصر التي تجمع بين القرآن وبين خطب صدر الاسلام ودولة بني أمية	٣٧
أسباب تأثر العرب بالقرآن في هذا العصر	٣٧
الفصل الثالث:	
المكتوبة النسائية في عصر القرآن	
الاجماع على أن عبد الحميد بن يحيى أستاذ صناعة الانشاء الأكبر	٣٨-٣٩
ترجمته (هامش)	٣٨-٣٩
خصائص الانشاء المزعومة على عهده	٣٩
مناقشتها	٤٠-٤١
فضل الراشدين ولا سيما عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب على صناعة الانشاء	٤١-٤٢
رسالة عمر إلى معاوية في القضاء	٤٢-٤٣
رسالته إلى أبي موسى الأشعري في السياسة والادارة	٤٣
رسالته إلى سعد بن أبي وقاص في تدبير أمور الحرب	٤٤-٤٥
أسلوب عمر الانشائي	٤٦
رسالة علي إلى معاوية في طلب البيعة	٤٦-٤٧
رسالة أخرى من علي إلى معاوية في الجدل والمناظرة	٤٧
رسالة منه إلى محمد بن أبي بكر بعد وفاة الأشتر	٤٧-٤٨
قطعة من وصية كتب بها إلى ابنه الحسن	٤٨-٤٩

الموضوع	الصفحة
قيمة هذه العهود والرسائل الفنية (العناصر التي تجمع بينها وبين القرآن)	٥٠-٤٩
عور الى عبد الحمير بن يحيى الطائب	
خصائصه الحقيقية كما تمثلها رسالته إلى ولي العهد	٥٠
مثل من هذه الرسالة	٥٣-٥٠
ما ينسب إلى عبد الحميد من آثار	٥٤-٥٣
نبذة من رسالة الصحابة	٥٥-٥٤
قطعة من رسالة كتبت إلى والٍ متمرد	٥٦-٥٥
التجانس في آثار علي وعمر	٥٦
فقدانه في آثار عبد الحميد	٥٧-٥٦
شهرة عبد الحميد ، أسبابها ، بطلانها	٥٧
مكان علي وعمر من صناعة الانشاء	٥٧
الباب الثاني	
الشعر على عهد النبي والراشدين	
الفصل الأول :	
حال الشعر من فجر الدعوة الإسلامية الى مقتل	
علي بن أبي طالب	
مناواته	٦١-٦٠

الموضوع	الصفحة
أسبابها	٦١
مؤازرته - دواعيها	٦٣-٦١
خصائصه	٦٦-٦٣
الفصل الثاني :	
مرر بن زهير بن أبي سلمى	
شعرها في صدر الاسلام	
الخطبة :	
سيرته	٧١-٦٨
شعره	
تمثيله مذهب أستاذه زهير ، خصائص هذا المذهب	٧٢
عنب الرواة بآثاره	٧٥-٧٢
أهمية ما يصح له من الشعر	٧٥
مديحه	٧٧-٧٥
هجاؤه	٧٨-٧٧
مكانه من المخضرمين	٧٨
الفصل الثالث :	
كعب بن زهير :	
تاريخه في الجاهلية	٨١-٨٠
تاريخه في الاسلام	٨٣-٨١

الموضوع	الصفحة
شعره	
ما أضيف إليه من الشعر	٨٥-٨٣
ما يصح من شعره	
تمثيله مذهب أبيه	٨٥
مثل منه	٨٧-٨٥
الفصل الرابع:	
مسألة بن ثابت الأنصاري	
حياته	٩٠-٨٨
أخلاقه	٩١-٩٠
شعره	٩٦-٩١
الفصل الخامس:	
الحقنماء	
سيرتها	١٠١-٩٧
شعرها	
ديوانها	١٠١
ما حمل عليها من الشعر	١٠٣-١٠١
ما يصح لها منه	١٠٤-١٠٣
أهميته	١٠٤

الموضوع	الصفحة
الباب الثالث	
الشعر السياسي في العصر الأموي	
تمهيد	١٠٧-١٠٦
الفصل الأول:	
شعراء الخوارج : عمران بن مطهر	
حياته	١١٠-١٠٨
شعره	١١٢-١١٠
الفصل الثاني:	
شعراء آل الزبير : ابن قيس الرقيات	
أخباره	١١٥-١١٣
شعره	١١٦-١١٥
الفصل الثالث:	
شعراء آل علي : الكميث بن زبير	
حياته	١٢١-١١٨
صفاته	١٢٣-١٢١
شعره	١٢٦-١٢٣

الموضوع	الصفحة
الباب الرابع	
الشعر العاطفي أو الغزل في العصر الاموي	
تمهيد	١٢٨
الفصل الاول:	
عمر بن أبي ربيعة	
سيرته	١٢٩-١٣٤
غزله	١٣٨-١٣٤
منزله بين شعراء الغزل	١٣٨
الفصل الثاني:	
جميل بثينة	
حياته	١٣٩-١٤١
أخلاقه	١٤١-١٤٢
شعره	١٤٢-١٤٥
منزله بنظر معاصريه	١٤٥-١٤٧
الباب الخامس	
الشعر التظليلي في العصر الاموي	
تمهيد	١٥٠

الموضوع	الصفحة
الفصل الاول:	
كثير عزة	
حياته	١٥٦-١٥١
أخلاقه	١٥٧-١٥٦
رأي الرواة والنقاد فيه	١٥٨-١٥٧
شعره	
نسيبه	١٥٩-١٥٨
مديحه	١٦٠-١٥٩
منزلته بين شعراء بني أمية	١٦١-١٦٠
الفصل الثاني:	
جرب	
حياته	١٦٧-١٦٣
أخلاقه	١٦٨-١٦٧
شعره	
جمعه وطبعه	١٦٨
غزله	١٧٢-١٦٨
رثاؤه	١٧٣-١٧٢
هجاؤه	١٧٦-١٧٣

الموضوع	الصفحة
مديحه	١٧٦-١٧٨
فخره	١٧٨-١٧٩
الفصل الثالث :	
الفرزدق	
حياته	١٨٠-١٨٦
صفاته	١٨٦-١٨٨
شعره	
جمعه وطبعه	١٨٨
غزله	١٨٨-١٩٠
رثاؤه	١٩٠-١٩٢
هجاؤه	١٩٢-١٩٣
مديحه	١٩٣-١٩٥
فخره	١٩٥-١٩٧
وصفه	١٩٧-١٩٩
ما لشعره من القيمة التاريخية	١٩٩-٢٠٠
الفصل الرابع :	
الاعطل	
حياته	٢٠٢-٢٠٦
أخلاقه	٢٠٦-٢١٠

الموضوع	الصفحة
ديوانه	
عناية الأب صالحاني به	٢١١-٢١٠
على ماذا يحتوي	٢١١
ما يقال عن تنقيح الأخطل شعره	٢١٢-٢١١
غزله ورأيه في المرأة	٢١٤-٢١٢
هجاره	٢١٦-٢١٤
مدحها	٢١٨-٢١٦
فخره	٢٢٠-٢١٨
خبرياته	٢٢٢-٢٢٠
الفصل الخامس :	
الفصل بين جبرير والفرزدق والأخطل	
أقوال الرواة والنقاد في هذا الباب	٢٢٥-٢٢٣
قدحها	٢٢٥
صعوبة الفصل بين هؤلاء الشعراء	٢٢٦-٢٢٥
محاولته رغم هذه الصعوبة	٢٢٦
تفضيل جبرير لتفوقه في خمسة أضرب من القريض . البرهنة على ذلك	٢٢٨-٢٢٦
تفضيل الفرزدق على الأخطل لتفوقه في ضربين من الشعر . برهان ذلك	٢٣٢-٢٢٨
الأخطل ثالث الثلاثة لتفوقه في وصف الحمر فقط	٢٣٢
خاتمة الكتاب	٢٣٤-٢٣٣

جداول اخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	السطر	الصفحة
ومجزاة	ومجزاة	١	٤
(كانون الثاني وآذار ١٩٤٠)	(كانون الثاني ١٩٤٠)	٤	٦
وقوله	وله	١٨	١٠
في مختلف أجزاءه	في أجزاءه	٧	١٧
فلنلاحظ	فلنلاحظ	٦	١٩
لعمر بن عبدالعزيز	لعمر بن العزيز	١٥	٢٢
بكتابه	بكتابه	١٠	٢٤
شعاعاً	شعاشاً	١٢	٢٤
فصحيحة	صحيحة	١٩	٢٥
أعاذنا الله من شره	أعاذنا من شره	آخر الحاشية	٢٧
أجسادهم	أجسامهم	١٥	٤٢
المرسلين	والمرسلين	١٤	٥٤
ولان يغفل	ولم يغفل	٩	٥٧
اعتنق	واعتنق	٩	٦٩
راوية	رواية	١٢	٧١
ما معشر	يا معشر	١٠	٧٧
إلا	إلى	١	١١٦
هو أن	أن	١٧	١٥٥
يهويني	يهويني	٩	١٧٠
المواعيد	المواعيد	١	١٧١
لفسقه	لفسقة	١٦	١٨١

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨٥	١	فالتحهم	فالتحيم
١٨٨	٢١	سذاجة	سذاجته
١٩٠	١٩	أهم عناصر	أهم عنصر من عناصر
١٩٨	الحاشية ٣	نهر يصب في دجلة	نهر ينشعب من دجلة
١٩٩	٤	السبب	السبب
١٩٩	٧	أدواى في أدواى	أداوى في أدواى
٢١١	١٣	والرعديد	الرعديد
٢١٦	٦	عنه التناقض	عن التناقض
٢١٦	١٢	سامي	سامي
٢٢٠	١٢	ورفاقة	ورفاقه

تذبيح:

ورد في فهرس الفصل الأول من الباب الأول (النثر الفني في عصر القرآن)
والصواب (النثر الفني في القرآن) . وسقط من آخر فهرس الفصل الأول من
الباب الثاني هاتان الجملتان :

{ ص ٦٥ - ٦٦ مكان المحضرمين من الأدب العربي }
{ ص ٦٦ عبث الرواة بشعر المحضرمين }

فليلاحظ .



أهم كتب المؤلف المطبوعة :

- ١ - تاريخ القضية العراقية (جزآن ظهر في بغداد في سنتي ١٩٢٣ و ١٩٢٤)
- ٢ - شعر كورني الغنائي (بالفرنسية . طبع في مونيخ سنة ١٩٣٧)
- ٣ - بحث الشعر الجاهلي (طبع ببغداد سنة ١٩٣٩)
- ٤ - نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر (طبع ببغداد سنة ١٩٤٦)

أهم كتب المؤلف المخطوطة :

- ١ - البركان (ديوان شعر سياسي)
- ٢ - زبد الأمواج (ديوان شعر كذلك يحتوي على أغلب أنواع الشعر المعروفة)
- ٣ - سوانح (مجموعة خطب ومقالات ومحاضرات في السياسة والاجتماع والأدب)
- ٤ - الموشح في الأندلس وفي المشرق (كتاب يعالج نشأة الموشح وتطوره من نهاية القرن الثالث للهجرة إلى هذا اليوم)

